الفصل الثاني
الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة الأحزاب
(قبل المعركة)
المبحث الأول
الدروس العقائدية

١ ـ غزوة يهودية صِرْفة:

يقول أ/ وجدي: «إن الحالة القبلية التي كان عليها العرب لم تكن لتسمح لهم أن يُجمعوا على أمر يقومون به مجتمعين، وإن كان له أكبر تعلق بهم كافة، ولم يكونوا من الناحية الدينية أيضًا على شيء مما يدفع غيرهم إلى التكافل للذود عن عقائدهم الموروثة، فلم يكترثوا لظهور دين جديد يعيب عليهم وثنيتهم، ويُحقِّر آلهتهم، ويتوعدهم بالهلاك وسوء المنقلب.

هذه الحالة تكشف عن مبلغ التفكك الذي كانوا عليه، وعن خمود العاطفة الدينية فيهم، فإذا كانت قريش قد تحركت لمكافحة المسلمين في دار هجرتهم مرتين قبل هذه، فإن ذلك منها كان يرجع إلى عوامل اقتصادية؛ لإزالة العقبة التي أقامها المسلمون في طريقهم إلى الشام، ولولا ذلك لما حدَّث أحدٌ في قريش نفسه لغزو المسلمين في يثرب.

ولكن اليهود الذين نزلوا بين أظهرهم مهاجرين منذ أجيال، وتعلموا لغتهم، وتسموا بمثل أسمائهم، كانوا على غرار إخوانهم في جميع بقاع الأرض، يعرفون الوحدة الاجتماعية، والجامعة الدينية، ويدركون ما يُبتنى على انتشار دين جديد بيِّن المقاصد والغاية في البلاد العربية، من الوحدة الاجتماعية والسياسية، وهم مع كفرهم بهذا الدين كانوا يرون فيه خطرًا على وجودهم هنالك، وكانوا يظنون أن المسيحيين إذا كانوا على ما أُمروا به من الرحمة والعطف، يبالغون في اضطهادهم، فلا يُعقل أن يجيء أهل دين يكونون أرق قلبًا منهم؛ لذلك هالهم أن يستتب الأمر للإسلام في دار هجرته الجديدة، فلا يلبث أن تصبح له دولة وصَوْلَة، فيجدوا أنفسهم مضطرين للهجرة، وإلى أين هذه المرة، وليس في المعمور مَنْ يرحب بقادم عليهم من أهل ملة غيرهم؟

حملهم هذا كله أن ينتدب جماعة من عِليتهم، منهم سلام بن مشكم، وابن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، خرجوا من خيبر وقَدِموا على قريش في السنة الخامسة من الهجرة، وأخذوا يُحسِّنون لهم أن يؤلبوا العرب على حرب محمد ﷺ وجماعته؛ حتى يستأصلوهم أو يفرقوا وحدتهم، ويُبطلوا دعوتهم، خشية أن تصبح لهم دولة فلا يكون لهم ولا لغيرهم محيص عن الخضوع له، والدخول في دينه، وهو ما قد لا يرضاه منهم.

وما زال هذا الوفد يُحسِّنون لقريش هذا الأمر، ويُسوِّلونه لهم حتى زعموا أن ما عليه المشركون من الدين خير من الإسلام الذي يدعو إليه محمد ﷺ.

وكبير من أمة مُوحِّدة أن تداهن أمة وثنية إلى هذا الحد الشائن.

وقد سجَّل الكتاب الكريم هذا الخزي عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

فَسُرَّ المشركون من هذه الشهادة وقَبِلوا دعوتهم، لا لأنهم يأبهون بالدين، ولكن ليتخلصوا من عدو منع عليهم التقلب في البلاد، وتلمس الرزق منها.

ثم جاء هذا الوفد بني غطفان وكلموهم في غزو المسلمين، وما كان ليهمهم هم أيضًا أمر الدين، ولكنهم رشوهم بمحصول تمر خيبر سنة، فقبلوا دعوتهم». [السيرة المحمدية لوجدي ٢١٥-٢١٦].

ويقول د/ بركات: «استقر بنو النضير، الذين لم تَخُرْ قواهم رغم إجلائهم ولم تضعضع معنوياتهم رغم هزيمتهم، في خيبر بعد فترة قصيرة نسبيًّا، ولابد أن زعماءهم تدارسوا الموقف بأكمله ـ في سلم خيبر وهدوئها ـ أن الدين الجديد لم يكن يهدد أهل مكة وحدهم، بل كان يهدد اليهود كذلك، ولو ترك الأمر للمسلمين لضربوا ضربة جديدة في الوقت الذي يختارونه.

ولم يكن باستطاعة اليهود وحدهم ولا باستطاعة أهل مكة وحدهم أن يقضوا على هذه الجماعة التي تتكون من أشخاص إن كانوا فقراء إلا أنهم ملتزمون، يدينون بولاء لا يهن لزعيم له عليهم سلطان مطلق، وقرر بنو النضير أن يبعثوا بوفد إلى مكة يتكون من عشرين من كبارهم وكان في هذا الوفد من الشخصيات البارزة سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن أبي الحقيق، وانضم إلى الوفد عدد من زعماء بني وائل، وهم بطن من بطون الخزرج، كانوا على صلة وثيقة باليهود، ووصل هذا الوفد إلى مكة في صيف سنة ٥ هـ/ ٦٢٦م ودعا قريشًا إلى الانضمام إليهم في هجوم شامل على المدينة للقضاء على الرسول ﷺ نهائيًّا، ورحبت قريش بدعوتهم إلى قتال الرسول ﷺ.

ومن مكة قصد هذا الوفد إلى غطفان ووجَّه إليهم نفس الدعوة وأبلغهم أن قريشًا قبلتها، وعرض الوفد عليهم من باب الترغيب نصف محصول خيبر من التمر مقابل انضمامهم إلى قريش».

[محمد ﷺ واليهود لبركات ١٢٧-١٢٨].

ويقول أ/ باشميل: «اتضح للقارئ الكريم من تتبع أحداث غزوة الأحزاب هذه، ودراسة تفاصيل أسبابها ومسبباتها وبواعثها وغاياتها، أن هذه الغزوة الخطيرة المريعة، ليست في حقيقتها إلا حملة يهودية

صِرْفة، قد مُونت بأموال إسرائيلية، وجاءت وفق تصميمات دقيقة مدروسة محكمة، وضعها مفكرون إسرائيليون تطفح نفوسهم بالحقد القاتل على الإسلام ونبي الإسلام.

فهذه الغزوة التاريخية الخطيرة، وإن كانت في الشكل والمظهر تحمل الطابع العربي القرشي والغطفاني، إلا أنها ـ في أهدافها العميقة ومراميها البعيدة وغاياتها الخبيثة ـ هي غزوة يهودية لحمًا ودمًا.

فكل الأدلة القاطعة، قد تقاطرت على أن هذه الغزوة ـ عندما وجهت لإبادة المسلمين وتهديم كيانهم من الأساس ـ لم يكن لها من محرك حقيقي فعال ـ منذ بدأت حتى فشلت ـ سوى اليهود واليهود فقط.

لقد كان حِرْصُ اليهود على الإطاحة بالمسلمين والقضاء على الإسلام ذاته قديمًا، قِدَم الصراع بين اليهودية والإسلام، هذا الصراع الذي كان قد بدأ منذ اللحظة التي بزغت فيها شمس الإسلام.

ولكن هذا الصراع الذي لم يتخذ طابع الوضوح والعنف، إلا عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة، وأخذ حلفاء اليهود ـ الأوس والخزرج ـ يتسابقون إلى الدخول في هذا الدين بسرعة أذهلت اليهود وأقلقت بالهم وأقضت مضاجعهم.

لأنهم بمجرد وصول النبي ﷺ إلى يثرب شعروا باهتزاز سلطانهم الفكري والسياسي والمالي الذي به كانوا يسيطرون على سكان يثرب وما جاورها منذ قرون عديدة؛ وذلك لأن هؤلاء العرب ـ سواء في يثرب وما جاورها ـ كانوا في الجاهلية دون اليهود فيما يختص بالثقافة ومعرفة الأديان، والخبرة الاقتصادية وأساليب جمع المال وكنزه، فكان اليهود ـ لسذاجة هؤلاء الإعراب ـ يتحكمون فيهم اقتصاديًّا، عن طريق قروض الربا، التي هي دعائم اقتصاد اليهود في كل عصر وزمان، بالإضافة إلى أن هؤلاء اليهود كانوا قبل الإسلام مرجعًا لهؤلاء الأعراب في كثير من استفساراتهم الروحية، فكان ذلك مصدر سلطانهم على المنطقة.

ولذلك ـ وحسدًا للنبي ﷺ ـ قاموا بعدة محاولات لتنفير العرب عن الدين الجديد بشتى وسائل الكذب والتشكيك والإرجاف وكانت هذه محاولاتهم الأولى لمقاومة دعوة الإسلام.

ولكنهم فشلوا في هذه المحاولة فشلًا ذريعًا، حيث لم يمر على قدوم صاحب الرسالة العظمى محمد ﷺ إلى يثرب، ستة أشهر حتى أصبح أكثرية عرب هذه المنطقة يدينون بالإسلام ويبذلون المهج والأرواح في سبيل حمايته ونصرته، الأمر الذي جعل اليهود يلجؤون إلى العنف.

وفي خلال أربع سنوات قام اليهود للتخلص من الإسلام وحامل رسالته بعدة محاولات جريئة يائسة، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت وعادت على هؤلاء اليهود بنتائج عكسية حيث كانت هذه المحاولات العدوانية سببًا في نفي قبيلتين كبيرتين من هؤلاء اليهود عن المدينة هما بنو قينقاع وبنو النضير.

وكانت آخر محاولة عدوانية خطيرة قام بها اليهود هي محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ وهو آمن في ديارهم، الأمر الذي أدى إلى ضرب الحصار وإجلائهم عن يثرب وذلك قبل معركة الأحزاب بستة أشهر فقط، ولقد نزل بنو النضير مدينة خيبر التي كانت ـ منذ القدم ـ مركزًا للتجمع اليهودي.

لقد كان يهود بني النضير من أغنى أغنياء اليهود، وكانوا يتحكمون في اقتصاد منقطة يثرب وما جاورها تحكمًا كاملًا، وكان زعماؤهم ـ بالإضافة إلى هذا ـ يمتازون بالدهاء والمكر والحقد العارم على النبي ﷺ خاصة.

ولم يكن النبي ﷺ شديدًا في معاملتهم عندما نفاهم من المدينة بعد ضرب الحصار عليهم، فقد سمح لهم بأن ينقلوا معهم كل ما يقدرون على حمله من الأموال، ومن المعروف عن اليهود منذ القدم أن أكثر ما يكنزونه هو الذهب والفضة.

ولهذا فقد أوقر هؤلاء اليهود عشرات الجمال وحملوا معهم كل ما يملكون من ذهب وفضة وهو شيء عظيم، حتى إن أحد زعمائهم ـ هو سلام بن أبي الحقيق ـ حمل معه عند الجلاء خزينة كبيرة (جلدة ثور) مملوءة ذهبًا وفضة، وكان يضرب على هذه الخزينة قائلًا وكأنه يهدد المسلمين بالغزو: «**هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها**».

ولقد حاول اليهود فعلًا ـ عن طريق سلطانهم المالي ـ أن يخفضوا الأرض ويرفعوها، فلم تمض على إقامتهم في منفاهم الجديد خيبر ستة أشهر حتى خرجوا بمخطط جهنمي رهيب، يهدفون من وراء تنفيذه إلى سحق المسلمين في المدينة سحقًا كاملًا ليستعيد بنو إسرائيل من جديد سيطرتهم عن منطقة يثرب.

فقد رسم اليهود في خيبر للتخلص من المسلمين في يثرب مشروع غزو كبير، تقوم به قوة ضاربة متحدة من أقوى القبائل العربية المعادية للإسلام، وخاصة قريش وغطفان.

ولتحقيق هذا المشروع الخطير التي رُسمت خطوطه في خيبر قام زعماء اليهود ـ وعلى رأسهم حيي بن أخطب سيد بني النضير ـ بالسفر إلى مختلف الأقاليم العربية في الجزيرة، وطافوا على مختلف القبائل واجتمعوا بزعمائها شارحين لهم تفاصيل مشروعهم الكبير ومثيرين فيهم روح العداوة للمسلمين، مستخدمين ـ في الدرجة الأولى سلاح المال، سلاح اليهود الرئيس في كل عصر ـ وزمان ـ الإغراء لزعماء الأعراب وشرائهم بالرشاوى ليستجيبوا لهم، حتى إن هؤلاء اليهود جعلوا لقبائل غطفان النجدية جميع ما أنتجته خيبر من ثمار لسنة واحدة مقابل قبول هذه القبائل المشروع اليهودي والموافقة عليه.

ولقد نجح اليهود نجاحًا كبيرًا في مهمتهم، حيث وافقت قريش وغطفان ـ وهم أقوى وأعظم قبائل الجزيرة ـ على مشروع اليهود لغزو المدينة.

ولم يعد وفد خيبر من رحلته إلا وهو على رأس عشرة آلاف مقاتل، أربعة آلاف من قريش وأحلافها، وستة آلاف من غطفان وأحلافها.

وقد أنزل اليهود هذه الجيوش العظيمة بأطراف المدينة.. وأحلام العودة إلى المدينة والسيطرة عليها من جديد تستولي على كل مشاعرهم». [غزوة الأحزاب لباشميل ٦-١٠].

ويقول د/ الوكيل: «تعتبر هذه الغزوة ثمرة الحقد اليهودي الذي انطوت عليه نفوس قوم طُردوا من المدينة نتيجة للخيانة التي استهدفت حياة الرسول ﷺ، وبرغم تلك المحاولة الأثيمة التي كادت تهدم حياة أمة، وتقوض أركان دولة، فقد عاملهم الرسول ﷺ معاملة دلت على التسامح، وأظهرت عدالة الإسلام حيث سمح لهم بالخروج من المدينة سالمين، دون أن يعاملوا بمقتضى غدرهم، أو يؤخذوا بجريرتهم.

وقد رأينا أن زعماء بني النضير قد فضَّلوا التوجه إلى خيبر، وقد سمح لهم الرسول ﷺ بذلك، ولكنهم توجهوا وقد عزموا نكرًا، وبيَّتوا غدرًا، وقد أخذت نار الحقد تحرق قلوبهم، وتتأجج في صدورهم، كيف يخرجون من المدينة، ويتركون فيها أموالهم وديارهم يستمتع بها المسلمون؟

لابد من الانتقام، ولابد من استئصال شأفة المسلمين ليتمكنوا من العودة إلى المدينة، ويسترجعوا بيوتهم التي خرَّبوها قبل خروجهم، ويستردوا أرضهم التي تركوها لقمة سائغة للمسلمين، فماذا يفعلون؟

فكَّر زعماء اليهود في الاتصال بالعرب المعادين للمسلمين ليحرضوهم على قتالهم، ويزينوا لهم الدخول معهم في معركة لعلها تكون سببًا في القضاء على دولتهم، وتحقيقًا لما دار في رؤوسهم خرج حيي بن أخطب سيد بني النضير، وسلام بن مشكم، وكنانة بن أبي الحقيق، وهم زعماء اليهود في خيبر، وخرج معهم من بني وائل هوذة بن قيس وأبو عمار، وقد استغل هؤلاء اليهود ما في قلوب العرب من الثأر والحقد على الرجل الذي فرَّق جماعتهم ـ في زعمهم ـ وكلهم موتور حاقد.

توجه حيي بن أخطب يرافقه نفر من اليهود إلى مكة ليحرضوا قريشًا على حرب المسلمين، وتوجه كنانة بن الربيع يسعى في غطفان، ويحضهم على قتال رسول الله ﷺ على أن لهم نصف تمر خيبر.

[السمهودي ١/ ٣٠٠، ٣٠١].

ونجحت إلى حد ما فكرة اليهود في تأليب العرب على المسلمين، ولكنها كما سنرى لم تحقق الهدف منها، فأما غطفان فقد استجابت من غير تردد، حيث كان نصف تمر خيبر ـ كما ذكر السمهودي ـ أو تمر خيبر سنة كما ذكر الحلبي مغريًا لها بالخروج دون أدنى تفكير في العواقب.

وأما قريش فهو وإن كانت تتمنى إبادة المسلمين، وتتحين الفرصة للانقضاض عليهم، إلا أنهم قد جرَّبوا الحرب معهم، وتذكروا أيامهم الماضية في الوقائع السابقة، وهم وإن أحرزوا شيئًا من النصر في غزوة أُحُد إلا أن تعقب المسلمين لهم في اليوم التالي مباشرة، وعدم قدرتهم على مواجهتهم رغم ما بهم من الجراح، ثم خروج المسلمين إلى بدر في الموعد الذي حدده أبو سفيان معهم، وعدم خروج أبي سفيان بهم، كل ذلك عكر عليهم صفو النصر الموهوم، فترددوا في الأخذ بثأرهم، وخشوا عاقبة الخروج لحرب المسلمين.

وقد ظهر ذلك التردد في أسئلتهم الكثيرة التي طرحوها على حيي بن أخطب، فقد سألوا حييًّا عن بني النضير، فقال: تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم.

ثم سألوه عن بني قريظة، فقال: أقاموا بالمدينة مكرًا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم.

لم تكن قريش واثقة من إجابات ابن حيي، وازدادت حيرتهم، فأرادوا أن يستوثقوا مما سيُقدمون عليه، إنهم يرون أمر محمد ﷺ في ازدياد مستمر، ويرون أصحابه يكثرون، ومن دخل في دينه لا يفارقه رغم ما قد ينزل به من البلاء فشككهم ذلك في دينهم، وكان ذلك مثار سؤال وجهه أبو سفيان إلى حيي بن أخطب فقال: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ الأَوَّلِ وَالعِلمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟**

واستغل اليهود الفرصة، وخافوا إن هم أجابوهم بما يطابق الحق والواقع نفروا منهم، ولم يتبعوهم؛ لهذا أجابوهم بما يرضيهم، لينشطوهم لما جاؤوا من أجله، وهو الاشتراك في حرب ضد المسلمين، فأجابوهم بما يرضيهم على حساب عقيدتهم، وفضَّلوا الوثنية على التوحيد الذي هو دينهم ودين آبائهم، وقالوا لقريش: **بَل دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالحَقِّ مِنْهُ**».

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧١-١٧٢].

٢ ـ اليهود بين الأمس واليوم:

إن مما يلفت النظر أن اليهود الذين لم تنفع معهم كل سبل المعايشة السلمية من رسول الله ﷺ، كانوا هم المحرِّض الأول لهذه الغزوة، حيث أثاروا حفيظة المشركين تجاه المسلمين مرة أخرى بعد أن كادوا يسلِّمون بوجودهم كقوة حقيقية على أرض الواقع، وأخذوا في تأليب زعمائهم على رسول الله ﷺ، وبثوا في قلوبهم العداوة والكراهية للإسلام وأهله، مستغلين جهل هؤلاء بدين الله وشرعه، كما يفعل اليهود الآن مع الشعوب غير المؤمنة، حيث أوهموا الكثيرين منهم بأن المسلمين عدو لدود لهم.

يقول الشيخ عبيد: «فبين يدي القارئ غزوة الأحزاب، وقد قدمناها، للقارئ الكريم؛ لأنها ذات مغزى ودلالة وارتباط بما يجري على الساحة الدولية الآن من تعنت اليهود وصلفهم وغرورهم وعدم

التزامهم بالمواثيق الدولية واعترافهم بحق المواطنين الذين أخرجهم اليهود من ديارهم واستولوا على أموالهم، واليهود يعرف عنهم التاريخ أنهم لا يبالون بعهد أعطوه ولا يقيمون وزنًا لميثاق أبرموه؛ لأن العهود والمواثيق (عند اليهود) لا قيمة لها ولا اعتبار إلا إذا كانت هذه العهود والمواثيق تحقق لهم مصلحة أو تعود عليهم بالنفع ـ هذا خُلُقهم ـ منذ أن حلت اللعنة بهم على لسان داوود وعيسى بن مريم؛ لأنهم كانوا قد عصوا أمر الله وما زالوا يعتدون دائمًا على الضعفاء.

إن تصرفاتهم وسلوكهم في كل المجتمعات تجسد خِسَّتهم ولؤمهم وتُظهرهم أمام المجتمع العالمي ووجوههم كالحة من الغدر والخيانة ورصيدهم الهائل من المخازي والرذائل،، إنهم في لبنان يرتكبون الأعمال الوحشية والهمجية، وفي فلسطين يمسحون من الوجود قرى أهلها عُزَّل، ويبيدون عشرات الألوف من النساء والأطفال ويقفون بجوار الجثث يشربون الخمر ويرقصون وكأن شيئًا لم يكن؛ ولهذا فإن الخبراء في علم النفس يؤكدون أن كل فرد من الشعب اليهودي قد رسخ في ذهنه وامتزج في دمه أن مهمته في الحياة هي الإفساد والتخريب لكل ما هو غير إسرائيلي.

ويكفي للتدليل على ذلك أن الحركة الشيوعية ارتكب قادتها جرائم بشعة من التعذيب والقتل والإبادة كانت من الوحشية والهمجية بصورة لم يشهد التاريخ لها مثيلًا في مختلف عصوره، ومن الذي وضع هذه الخطة إنه (كارل ماركس) اليهودي المجرم الحاقد، كذلك أثبت التاريخ أن الذين وضعوا المخطط البشع للمجازر الوحشية التي ارتكبت في أول عهد الثورة الفرنسية والذين دبروا كل هذه المجازر إنما هم اليهود.

ولكي ندلل على ذلك نذكر أنه في عام ١٧٨٩م ألقى **الرئيس بنيامين فرنكلين** خطابًا عند وضع دستور الولايات المتحدة جاء فيه ما يلي:

هناك خطر عظيم يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية، ذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود.

أيها السادة في كل أرض حلَّ بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخُلُقي وأفسدوا الذمة التجارية فيها، ولم يزالوا منعزلين لا يندمجون بغيرهم، وقد أدى بهم الاضطهاد إلى العمل على خنق الشعوب ماليًّا كما هو الحال في البرتغال وإسبانيا، منذ أكثر من (١٧٠٠) عام.

وهم يندبون حظهم ويعنون بذلك أنهم قد طُردوا من ديار آبائهم، ولكنهم أيها السادة لن يلبثوا إذا ردت إليهم الدول اليوم فلسطين أن يجدوا أسبابًا تحملهم على ألا يعودوا إليها. لماذا؟ لأنهم طفيليات لا يعيش بعضهم على بعض ولا بد لهم من العيش بين المسيحيين وغيرهم ممن لا ينتمون إلى عرقهم فإذا لم يُبعد هؤلاء عن الولايات المتحدة بنص دستورها فإن سيلهم سيتدفق إلى الولايات المتحدة في غضون مائة

سنة إلى حد يقدرون معه على أن يحكموا شعبنا ويدمروه ويغيروا شكل الحُكم الذي بذلنا في سبيله دماءنا وضحينا له بأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الفردية، ولن تمضي مائتا سنة حتى يكون مصير أحفادنا أن يعملوا في الحقول لإطعام اليهود على حين يظل اليهود في البيوتات المالية يفركون أيديهم مغتبطين.

وإنني أحذركم أيها السادة أنكم إن لم تُبعدوا اليهود نهائيًا فلسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم، إن اليهود لن يتخذوا مثلنا العليا ولو عاشوا بين ظهرانينا عشرات أجيال، فإن الفهد لا يستطيع إبدال جلده الأرقط.

إن اليهود خطر على هذه البلاد إذا ما سُمح لهم بحرية الدخول فإنهم سيقضون على مؤسساتنا، وعلى ذلك لابد من أن يستبعدوا بنص الدستور. ا. هـ. [نشر هذه الوثيقة الأستاذ حسين أبو بكر القاضي المتخصص في الدراسات الإسلامية (سعودي الجنسية) ونشرت في جريدة الندوة بمكة في العدد ٥١١ بتاريخ ربيع الأول سنة ١٣٨٠ هـ وقد نشر النص الإنجليزي في حينه].

هذا كلام هام جدًّا لأنه صدر من أكبر زعماء الولايات المتحدة الأمريكية في القرن الثامن عشر وأعظم قادتها والمخلصين لها على الإطلاق، وهذه الوثيقة موجودة في معهد بنيامين فرانكلين في فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا، ويتبين من هذا أن كل القادة والمسؤولين الحريصين على سلامة أوطانهم وشعوبهم يحاولون تطهير أوطانهم وتنقية مجتمعاتهم من هؤلاء اليهود لعلمهم بحقيقة نفوسهم وما يتسمون به من الإفساد والتخريب والتدمير، فاليهود كالجسم الغريب الضار على جسد البشرية، فما حل اليهود على بلد إلا وارتكبوا من الجرائم والخيانات والدس بين الناس والوقيعة بينهم بأسلوب غير مسبوق، فكل تيارات التدمير الخُلُقي والانحراف العقائدي إنما هو في الغالب والأكثر من صنع التفكير اليهودي وتخطيطه.

إنه منذ اللحظة الأولى التي أشرق فيها نور الإسلام، ومنذ الساعة التي وصل فيها النبي محمد ﷺ إلى المدينة واليهود يكيدون للإسلام ويتربصون بالنبي ﷺ ويبثون من الأراجيف وينشرون من الأكاذيب ما تستهدف تشكيك الناس في صدق النبي ﷺ والتنفير من الدعوة الإسلامية، وبالرغم من التسامح الذي عامل به النبي ﷺ اليهود فإنهم لم يقابلوا هذا إلا بالحقد والحسد، فعندما ألقت (يثرب) كلها بزمام حكمها إلى شخصية سيدنا محمد ﷺ إلا وقام هذا النبي ﷺ على الفور بعقد معاهدة الدفاع المشترك والتعايش السلمي وعدم الاعتداء من أحد الطرفين على الآخر، وبرغم هذه المعاهدة المعقودة لكن اليهود ظلوا يقاومون الدعوة الإسلامية ويثيرون المتاعب في وجه حاملها، ومع ذلك قابل النبي ﷺ كل ذلك بحلم واسع وصبر جميل وتسامح عظيم حتى مع الذين تآمروا على حياته وقرروا اغتياله مرة بالحجر، وأخرى بوضع السم، وأخرى بدفع الأموال لمن يغتاله، ومع كل هذا ذهب في التسامح معهم إلى أبعد

الحدود فكان يعفو ويصفح ويمد يده بالمودة إليهم فلم يقابلوا هذه الأخلاق الكريمة إلا بالتآمر والغدر، فكان لابد من وقفة فيها الجد، يسمعهم فيها لغة السيف لأنهم دائمًا يرتكبون أشنع الجرائم وأخس صور الغدر خاصة عندما خانوا المواثيق، ونكثوا العهود، وداسوا على شرف الكلمة، وتعاهدوا مع الغزاة من قريش وغطفان وانضموا إليهم في غزوة الأحزاب، وخططوا وبدقة في وقت الأزمة الشديدة، وفي الساعات الحرجة لضرب المسلمين من الخلف خيانة وغدرًا مستهدفين القضاء على الإسلام واستئصال شأفته وإبادة المسلمين إبادة تامة غير مبالين بما أعطوا من عهد ولا ملتفتين إلى ما وقَّعوا عليه من مواثيق، لكن من حفر لأخيه حفرة وقع فيها، فإن المصير الذي خططوه للمسلمين ليدفعوهم إليه ويبيدوهم ارتد عليهم أنفسهم فكان جزاؤهم الإبادة؛ لأن غزوة الأحزاب انتهت والحمد لله لصالح المسلمين فكانت العقوبة التي تتناسب مع اليهود هي (الخيانة العظمى)، ولا بد أن ينالوا جزاءهم عليها، ولك أن تتأمل ما نزل باليهود لتعرف أن الخائن لابد أن ينال جزاءه مهما طال الوقت.

إن الدروس المستفادة والتي تبرز أمام أعيننا من وراء الغيب توضح لنا أن الرسول ﷺ لم يستعمل السيف إلا بعد أن استعمل كل الوسائل الممكنة من إدارة الحوار والتفاهم بالمعروف واستعمال العقل؛ لأن الإسلام دين سلام يمقت الحرب لأنها مدمرة للأحياء مهلكة للحرث والنسل، وهذه الدروس يجب أن نستفيد منها في وقتنا الراهن، وأن نعتمد على الله وعلى أنفسنا، وأن نحلل غزوات الرسول ﷺ لنستفيد منها، وأن نضع في اعتبارنا أن اللغة الوحيدة التي يفهمها اليهود هي لغة القوة، ولن تُحل مشكلة فلسطين إلا بالسيف.

فما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة، أما المؤتمرات الدولية وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن فهذه تحكمها قوة خفية فهي كذلك تحتاج إلى قوة، كذلك لا تحل القضية بالمؤتمرات المحلية المشحونة بالتشنجات والصراخ والعويل والخطب والقصائد، فكل ذلك في الهواء يضيع على الرمال والصخور، ولعلنا نذكر المثل العربي (**أَشْبَعْتُهُمْ شَتْمًا، وَرَاحُوا بِالإِبِلِ**).

ونحن لا ندري لمصلحة من هذا التهافت والاستخزاء، ألم نأخذ العبرة من الدول التي وجدت نفسها بعد اندحار الشيوعية فنهضت من كبوتها وأظهرت تنكرها للاتحاد السوفيتي وبدأت هذه الدول تستعيد شخصيتها كالصين ورومانيا وألبانيا والشيشان وكوسوفو وغير ذلك.

إن الأمة التي لا تحترم نفسها لا يمكن أبدًا أن تحترمها الأمم، والمسلمون اليوم والعرب معهم تنكروا لعقيدتهم وتناسوا حضارتهم فتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على الثريد، وزرعت الدول الأجنبية دولة إسرائيل ـ التي لم تقبلهم أي دولة ـ في أرض العرب والمسلمين، ولو أن العرب والمسلمين تمسكوا

بدينهم وتدارسوا حضارتهم، وعرفوا تاريخ آبائهم وأجدادهم لفر اليهود أمامهم، وقالوا عن العرب والمسلمين ما قاله اليهود من قديم الزمان: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

إن رسول الله ﷺ خاطب اليهود باللغة التي يفهمونها وكان من حوله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ونحن عرب ومسلمون فإن عدنا إلى ديننا عادت إلينا قوتنا وهابنا العدو وخاف فـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وغزوة الأحزاب وما تبعها من غزوة بني قريظة كانتا السبب في تصفية العنصر اليهودي من المدينة المنورة، وتم تطهير تلك البقعة الطيبة الطاهرة من شرور هذا النوع الخبيث من البشر الذي لا يعرف إلا الشر.

نقدم ذلك مذكرين الأمة بأمجادها فإن الذكرى تنفع المؤمنين». [غزوة الأحزاب لعبيد ٣-٩].

٣ ـ الحقد اليهودي على البشرية منذ القدم:

يقول أ/ شاكر: «يحقد اليهود على الناس جميعًا، وليس عليهم في الأميين سبيل، وأكثر حقدهم على المسلمين، وقد حرصوا على ضرب الدعوة الإسلامية في مهدها الأول، ولكن لم يتمكنوا من ذلك بل رد كيدهم في نحرهم، وأجلوا عن المدينة فرقة بعد فرقة، فلما أجلي بنو النضير، زاد حقد قادتهم، وخاصة الذين أقاموا منهم بخيبر، إذ أن الإسلام تزداد قوته يومًا بعد يوم، وكلما أرادت فئة أن تغير على أبنائه، أصابته الضربة القاسية، ونزلت المصيبة بديارها وخرج المسلمون أقوى مما كانوا؛ لذا فكر الحاقدون أن يحزبوا الأحزاب من كل الجهات والقبائل، وأن يقوموا بحملة رجل واحد على المدينة، فيقضوا على الإسلام، ويجتثوا جذوره، وينالوا ثأرهم، فخرج لهذا الغرض من خيبر حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة ابن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي وغيرهم واتجهوا إلى مكة قاعدة قريش العدو الأول للمسلمين، ودعوها إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا لها: **إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**، فسرت قريش، وأعدت العدة لتلك الحرب المرتقبة». [التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٢٨٠-٢٨١].

ويقول د/ المدخلي: «إن الحقد الذي تمكن في قلوب اليهود على البشرية عامة وعلى المؤمنين خاصة قديم، يرافق هذا الحقد عناد وصلف وكبرياء؛ وذلك لأنهم يعتقدون أنهم أهل السيادة في الأرض حيث قالوا إنهم أبناء الله وأحباؤه وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ الآية [المائدة: ١٨].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «قالوا: أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه، وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم ما يوافق هدفهم وحرفوه. [تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤].

ونجد أكبر شاهد على حقدهم وكراهيتهم للمؤمنين قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ الآية [المائدة: ٨٢].

أما كراهتهم للعرب خاصة فهو واضح بالقرآن والسنة، ذلك أن القرآن حكى لنا أنهم يستبيحون أكل أموال العرب وليس عليهم سبيل في ذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ الآية [آل عمران: ٧٥].

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية أي: «إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا.

أقول: ولكن الله سبحانه وتعالى كفانا شرهم والمجادلة معهم عند ادعائهم هذا، وذلك بتمام الآية السابقة حيث قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

قال ابن كثير: «أي: وقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوها بهذه الضلالة، فإن الله قد حرَّم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بهت. [تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٤].

ومع هذا فإننا إذا أردنا أن نتعرض لحقدهم وغرورهم الذي وضحه القرآن لطال بنا البحث، ولكن أردنا التنويه بخبثهم ودسهم وعدم انصياعهم مع أنه واضح للعيان».

فهذه أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب تقول عن أبيها وعمها عندما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة يحمل النور معه، وكان أهل الكتاب يعرفون علامات مبعثه وصفاته، ولكن العمى عمى القلب، فهذا حيي بن أخطب وهو القطب الدوار والخصم الألد الذي حرَّك أعداء هذا الدين لهذه الغزوة، وأثار كوامن قريش وألَّبهم ضد المسلمين وضد حامل هذه الرسالة الصافية صلوات الله وسلامه عليه.

تحدث أم المؤمنين صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ رضي الله عنها فتقول فيما رواه ابْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: حُدِّثْتُ عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: «كُنْتُ أَحَبَّ وَلَدِ أَبِي إِلَيْهِ وَإِلَى عَمِّي أَبِي يَاسِرٍ، لَمْ أَلْقَهُمَا قَطُّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا إِلَّا أَخَذَانِي دُونَهُ.

قَالَتْ: فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَنَزَلَ قُبَاءً، فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ غَدَا (غدا: أي ذهب أول النهار نقيض الرواح، وقد غدا يغدو، والغدوة بالضم ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس والجمع غدوات. النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٦، مختار الصحاح ٤٦٩) عَلَيْهِ أَبِي، حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَعَمِّي أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ، مُغَلِّسِينَ (الغَلَس بفتحتين ظلمة آخر الليل، والتغليس: السير بغلس)، قَالَتْ: فَلَمْ يَرْجِعَا حَتَّى كَانَا مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، قَالَتْ: فَأَتَيَا كَالَّيْنِ (كلَّ الرجل والبعير من المشي-يكل كلالًا وكلالة أي أعيا) كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى، قَالَتْ: فَهَشَشْتُ (الهشاشة بالفتح الارتياح والخفة للمعروف) إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَوَاللهِ

مَا الْتَفَتَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، مَعَ مَا بِهِمَا مِنَ الغَمِّ، قَالَتْ: وَسَمِعْتُ عَمِّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَاللهِ! قَالَ: أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ؟ قَالَ: عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بَقِيتُ». [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥١٨- ٥١٩، ٢/ ٢٤١، الاكتفاء ١/ ٤٧٣، وفاء الوفاء ٢٦٩، ومن خلال هذا الحديث الذي دار بين زعيمي بن النضير يتضح للقارئ مدى البغض الشديد والحقد العارم الذي ينطوي عليه هؤلاء اليهود للنبي ﷺ ومدى تصميمهم على التخلص منه ومهما كانت الوسائل التي يكون بها هذا التخلص. غزوة الأحزاب لباشميل ٩].

والحديث بهذا الإسناد منقطع؛ لأن عبد الله بن أبي بكر بن حزم روى عن مجهول، الواسطة بينه وبين صفية.

والحديث وإن كان منقطعًا فالآيات والواقع الملموس من هذه الطائفة تؤيده، وقد دل كتاب الله على معنى هذا الحديث في أكثر من آية منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران].

قال ابن كثير: «هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوَّضوا - بتشديد الواو التي بعد العين - عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدُّون (نقيض فوق وهو الخسيس) الطفيف والخط الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم». [تفسير ابن كثير ١/ ٤٣٦].

وقال الطبري عند تفسير هذه الآية: «واذكر أيضًا من هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكتاب منهم يا محمد إذ أخذ الله ميثاقهم ليبين للناس أمرك الذي أخذ ميثاقهم على بيانه للناس في كتابهم الذي في أيديهم وهو التوراة والإنجيل، وأنك لله رسول مرسل بالحق ولا يكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم، يقول: فتركوا أمر الله وضيعوه ونقضوا ميثاقه الذي أخذ عليهم بذلك فكتموا أمرك وكذبوا بك واشتروا به ثمنًا قليلًا».

يقول: «وابتاعوا بكتابهم ما أخذ عليهم الميثاق أن لا يكتموه من أمر نبوتك عوضًا منه خسيسًا قليلًا من عوض الدنيا، ثم ذم جل ثناؤه شراءهم ما اشتروا به من ذلك فقال: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

[جامع البيان ٤/ ٢٠٢].

ثم أورد الطبري رحمه الله حديثًا يؤيد ما سبق، حيث قال: حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة ذكر لنا أن أعداء الله اليهود يهود خيبر أتوا نبي الله ﷺ فزعموا أنهم راضون بالذي جاء به وأنهم متابعوه وهم متمسكون بضلالتهم، وأرادوا أن يحمدهم نبي الله ﷺ بما لم يفعلوا، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ

فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران]. [تفسير الطبري ٤/ ٢٠٨].

والحديث بهذا السند إلى قتادة حسن ولم يسم قتادة من ذكر له ذلك.

ومن الجدير بالإشارة أن اليهود يحقدون أشد الحقد على النبي ﷺ قبل أن يعرفوه حتى أنهم عندما سمعوا أوصافه قال بعضهم لبعض: اقتلوه.

ويشهد لذلك ما رواه ابن سعد من سند منقطع من أعلاه حيث قال: أخبرنا عمرو بن عاصم الكلابي أخبرنا همام بن يحيى عن إسحاق بن عبد الله أن أم النبي ﷺ لما دفعته إلى السعدية التي أرضعته، قالت لها: احفظي ابني، وأخبرتها بما رأت، فمر بها اليهود فقالت: ألا تحدثوني عن ابني هذا؟ فإني حملته كذا ووضعته كذا ورأيت كذا وصفت أمه قالت فقال بعضهم لبعض: «اقتلوه»، فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت: لا هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيمًا لقتلناه».

[الطبقات الكبرى ١/ ١١٣، ١٢٠، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٩، السيرة النبوية ١/ ٥٤٦ وما بعدها].

وليس ذلك بمستبعد عن قوم وصفهم الله في كتابه بأنهم يقتلون أنبياءهم.

مما سبق من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة يتضح بعض الأدلة التي جاءت مبينة لما يُعرف به اليهود على مدى الأزمان من حقد دفين وعداوة ظاهرة للأمة الإسلامية ونبيها المصطفى ﷺ.

ذلك الحقد الذي أعمى قلوبهم وأحرقها، وشتت شملهم في الدنيا حيث نفاهم ﷺ من المدينة، وذلك بقوة الله التي تسانده حيث أخبر تعالى عن ذلك فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر].

ويجدر بنا ونحن بصدد الحديث عن حقدهم ودسائسهم أن نبين طوائف اليهود الذين تمركزوا في المدينة منذ زمن طويل، وهذه الطوائف هي: **بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة**، وكل طائفة من هذه الطوائف كان لها موقف مع النبي المصطفى ﷺ، وكانت كلها مواقف تنضح بالحقد والكراهية.

وكان من موقف بني قينقاع كما قال الحافظ مَا رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ بِإِسْنَادٍ حَسَن عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا يَوْم بَدْرٍ جَمَعَ يَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، فَقَالَ: «**يَا يَهُودُ: أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ**»، فَقَالُوا: إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، وَلَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا الرِّجَالُ [تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٠، السيرة النبوية ٢/ ٤٧]، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ

كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ [آل عمران]». [فتح الباري ٧/ ٣٣٢ بتصرف].

وهكذا يظهر أن أول من نقض العهد من اليهود هم بنو قينقاع.

[الطبقات الكبرى ٢/ ٢٩، فتح الباري ٧/ ٣٣٠].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَذَكَرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، عَنْ أَبِي عَوْنٍ قَالَ: كَانَ مِنْ أَمْرِ بَنِي قَيْنُقَاعَ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ العَرَبِ قَدِمَتْ بِجَلَبٍ (هو ما يجلبه الإنسان من بلد إلى بلد وذلك من التجارة) لَهَا، فَبَاعَتْهُ بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَجَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ بِهَا، فَجَعَلُوا يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ فَعَمِدَ الصَّائِغُ إِلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرِهَا، فَلَمَّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ سَوْءَتُهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ، فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ وَكَانَ يَهُودِيًّا، وَشَدَّتْ اليَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى اليَهُودِ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ، فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٨].

وأثر ابن هشام فيه انقطاع من أسفله ومن أعلاه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالَ: فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ.

وكان ذلك في شوال بعد وقعة بدر وأراد قتلهم فاستوهبهم منه كبير المنافقين ـ عبد الله بن أُبي ـ وكانوا حلفاءه، فوهبهم له وأخرجهم من المدينة إلى أَذْرِعَات (بلد في إطراف الشام تجاور أرض البلقاء).

قال ابن حزم: «وهم قوم عبد الله بن سلَام ـ مخفف ـ وكانوا في طرف المدينة، وكانوا سبعمائة مقاتل».

[ينظر رسالة: طوائف اليهود الثلاث في المدينة لأكرم حسين السندي]. [جوامع السيرة ١٥٤].

ثم نقض العهد بعد ذلك بنو النضير وكان رئيسهم حيي بن أخطب، والمشهور في كتب السيرة أن الرسول ﷺ نهض بنفسه إلى بني النضير مستعينًا بهم في دية القتيلين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ﷺ الذي نجا من حادثة بئر معونة.

فلما كلمهم ﷺ قالوا: «نعم»، فقعد رسول ﷺ مع أبي بكر وعمر وعلي ونفر من أصحابه إلى جدار من جدرهم»، فاجتمع بنو النضير وقالوا: «من رجل يصعد على ظهر البيت فيلقي صخرة على محمد فيقتله فيريحنا منه»، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فأوحى الله تعالى بذلك إلى رسول الله ﷺ فقام ولم يشعر بذلك أحد من أصحابه ممن كانوا معه، فلما استلبثه أصحابه ﷺ قاموا فرجعوا إلى المدينة، واتوا رسول الله ﷺ فأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه بما أرادته اليهود وأمر أصحابه بالتهيؤ لحربهم». [جوامع السيرة ١٨١، السيرة النبوية ٢/ ١٩٠].

لكن ابن حجر أورد غير هذا حيث قال: وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ قِصَّةَ بَنِي النَّضِيرِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ إِلَى مَعْمَرَ عَنْ الزُّهْرِيِّ: «أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كَتَبَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ قَبْلَ بَدْرٍ يُهَدِّدُونَهُمْ بِإِيوَائِهِمْ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ أَنْ يَغْزُوهُمْ بِجَمِيعِ العَرَبِ، فَهَمَّ ابْنُ أُبَيٍّ وَمَنْ مَعَهُ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَتَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا كَادَكُمْ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا كَادَتْكُمْ قُرَيْشٌ، يُرِيدُونَ أَنْ تُلقُوا بَأْسَكُمْ بَيْنَكُمْ**»، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ عَرَفُوا الحَقَّ فَتَفَرَّقُوا.

فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ كَتَبَتْ كُفَّارُ قُرَيْش بَعْدَهَا إِلَى اليَهُودِ: **إِنَّكُمْ أَهْلُ الحَلقَةِ وَالحُصُونِ، يَتَهَدَّدُونَهُمْ، فَأَجْمَعَ بَنُو النَّضِيرِ عَلَى الغَدْرِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: اُخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلاَثَةٍ مِنْ أَصْحَابِكَ وَيَلقَاكَ ثَلاَثَةٌ مِنْ عُلَمَائِنَا، فَإِنْ آمَنُوا بِكَ اِتَّبَعْنَاكَ**، فَفَعَلَ ﷺ، فَاشْتَمَلَ اليَهُودُ الثَّلاَثَةُ عَلَى الخَنَاجِرِ، فَأَرْسَلَتْ اِمْرَأَةٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى أَخٍ لَهَا مِنْ الأَنْصَارِ مُسْلِمٍ تُخْبِرُهُ بِأَمْرِ بَنِي النَّضِيرِ، فَأَخْبَرَ أَخُوهَا النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمْ..

قال ابن حجر: «فَهَذَا أَقْوَى مِمَّا ذَكَرَ اِبْن إِسْحَاق مِنْ أَنَّ سَبَبَ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ طَلَبُهُ ﷺ أَنْ يُعِينُوهُ فِي دِيَةِ الرَّجُلَيْنِ، لَكِنْ وَافَقَ اِبْن إِسْحَاق جُلُّ أَهْل المَغَازِي. [فتح الباري ٧/ ٣٨٥].

أما بنو قريظة فكان سبب محاصرتهم وقتلهم ما وقع منهم من نقض عهد النبي ﷺ ومما لأتهم (مالأه بالمد ساعده على الأمر وشايعه) لقريش وغطفان ومطاوعتهم لعدو الله وعدو رسوله حيي بن أخطب حتى أنه لم يزل بسيدهم كعب ابن أسد يفتله في الذروة والغارب (أي يدور من وراء خديعته) حتى نقض عهده وأخلف وعده.

وكان مصير هذه الطائفة أن نزلت على حكم الصحابي الجليل سعد بن معاذ ﷺ، وكانوا حلفاءه ومواليه فحكم فيهم أن يقتل رجالهم ويسبى نساؤهم وذراريهم وتقسم أموالهم، فقال ﷺ: «**قضيت بحكم الله**». كما سيأتي تفصيله في غزوة بني قريظة.

أما يهود خيبر فقد نقضوا العهد وخرج إليهم ﷺ في بقية المحرم سنة سبع وحاصرهم حتى فتحها وغنم ما فيها. [البداية والنهاية ٤/ ١٨١، فتح الباري ٧/ ٤٦٤، جوامع السيرة ٢١١].

بعد أن رأينا طباع اليهود وأن ديدنهم الحقد والعداوة للإسلام والمسلمين مهما كلفهم ذلك، وأنهم لا زالوا ولن يزالوا يكيدون للمسلمين ويقتلونهم متى سنحت الفرصة لهم فهم مهما اضطُهدوا فعندما يفيقون يكون أول عمل لهم هو ضد المسلمين فقط.

ولا أدل على ذلك أن يهود إسبانيا عندما طردهم فرديناند ملك إسبانيا أنقذ السلطان بيازيد الثاني يهود إسبانيا من إبادة محققة، وقدمت لهم الحكومة العثمانية جميع الحقوق وأصبحوا في حالة مُرْضِية للغاية، فما عليهم إلا أن يدفعوا الجزية ويعيشوا في أمن واطمئنان.

على الرغم من كل ما قدمته الحكومة العثمانية وولاتها فقد توجه **اليهودي دافيد روبيني** عام ٥٠٥هـ إلى **البابا كليمنت السابع** وعرض عليه مشروع محالفة عسكرية مسيحية يهودية ضد المسلمين تقضي- بما يلي:

(١) إنهاء العداء القائم بين المسيحيين واليهود على حساب المسلمين.

(٢) تعاون جيوش أوروبا مع جموع الشعب اليهودي الذين يقيمون داخل الدولة العثمانية للانقضاض عليها من الداخل وغزوها من الخارج واحتلال أراضيها.

(٣) تتولى الدولة المسيحية تزويد اليهود الذين يقيمون داخل الدولة الإسلامية بالأسلحة التي تساعدهم في الانقضاض على المسلمين. [السياسة اليهودية ـ مصطفى السعدني ١٩٥- ١٩٦ ط لبنان].

هذه هي أخلاق اليهود من قديم الزمان ولا زالت هي أخلاقهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وأخيرًا: قال الأستاذ محمد عزة دروزة: «ولليهود في العهد المدني شأن كبير متعدد النواحي لأنهم أول من اصطدم مع النبي ﷺ، ولقد شغلوا في القرآن المدني حيزًا واسعًا منذ بدء تنزيله».

ثم قال: «ولعل من الدلائل على أنهم أول من اصطدم مع النبي ﷺ ما جاء في الآيات الأولى من البقرة التي هي أول السور المدنية في ترتيب النزول فقد جاء في أولها: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة].

فقد قال جمهور المفسرين: «إن شياطينهم هم اليهود، ويدل هذا بوضوح على أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق وشجعوهم في مواقف الخداع». [سيرة الرسول ﷺ لدروزة ٢/ ١٢١].

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٨٥-١٠٢].

٤ ـ حقد اليهود على النبي ﷺ:

يقول د/ هيكل: «ولقد كان اليهود أبصر خصوم محمد ﷺ بتعاليمه وبمصير دعوته، وكانوا أكثرهم تقديرًا لما يصيبهم بانتصاره، فهم كانوا في بلاد العرب دعاة التوحيد، وكانوا ينافسون المسيحيين في سلطانهم ويأملون مغالبتهم والتغلب عليهم، ولعلهم كانوا على حق أن كانت السامية أميل بطبعها إلى فكر التوحيد، على حين كان التثليث المسيحي مما لا يسهل على هذه النفس الحامية مساغه، وهذا محمد ﷺ من صميم العرب ومن صميم الساميين، يدعو إلى التوحيد بعبارات قوية نفاذة تأخذ بمجامع الفؤاد، وتصل إلى أعماق القلب، وتسمو بالإنسان إلى ما فوق نفسه، وها هو ذا قد بلغ من القوة حتى أخرج بني قينقاع من المدينة، وحتى أجلى بني النضير عن ديارهم؟ فهل يتركونه وشأنه منصرفين إلى الشام وإلى وطنهم الأول بيت المقدس في أرض المعاد، أم تراهم يحاولون تأليب العرب عليه ليأخذوا بالثأر منه؟».

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٣٨].

ويقول أ/ باشميل: «إن غزوة الأحزاب الخطيرة هذه هي وإن كانت في الشكل والمظهر، غزوة قرشية غطفانية، إلا أنها في أهدافها البعيدة ومراميها العميقة هي غزوة يهودية لحمًا ودمًا، فاليد الحقيقية التي تكمن وراء هذه الحملة المخيفة الموجهة لإبادة المسلمين إبادة كاملة هي يد يهودية.

فغزوة الأحزاب الموجهة لاحتلال المدينة والقضاء على المسلمين وهدم الإسلام في عقر داره، قد جاءت وفق تصميمات مدروسة وضعها مفكرون إسرائيليون، كما أن تمويل هذه الحملة الخطيرة قد ساهم اليهود فيه مساهمة كبيرة.

لقد كان اليهود ـ وهم مصدر الفتن والقلاقل ومثيرو الحروب في كل عصر وزمان ـ هم الذين حزبوا تلك الأحزاب وحشدوا عشرة آلاف مقاتل من أعراب الجزيرة العربية لغزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين فيها.

كما أن قريشًا ـ العدو العربي التقليدي للمسلمين ـ لها يد كبيرة في تنسيق هذا الغزو والتشجيع عليه والترحيب بفكرته التي جاءت من جانب اليهود.

أما قريش فقد كان نزاعها مع النبي ﷺ ودعوته نزاعًا قديمًا قدم الدعوة الإسلامية، وكان صراعها من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين صراعًا قديمًا مزمنًا يرجع عهده إلى أول ظهور الإسلام، وقد خاضت قريش ـ في سبيل تحقيق هذا الهدف ـ مع المسلمين معارك رهيبة أولها معركة بدر الكبرى وآخرها معركة أُحُد التي ـ بالرغم من انتصاره الوقتي فيها ـ لم تحقق لها هدفها المنشود.

أما اليهود فقد كانت العداوة والكره لكل من سواهم من البشر طبيعة متأصلة في نفوسهم، فما ظنك بمن جاء يحمل رسالة سماوية فيها الخطر كل الخطر على كيان هؤلاء اليهود المبني على الغش والدس والوقيعة والاستغلال.

لقد كان اليهود ـ دونما جدال ـ يُضمرون للنبي ﷺ ودعوته من الحقد والبغض والحسد ما هو أعمق مما تضمره قريش وأحلافها من أعراب الجزيرة، فكان اليهود ـ لذلك ـ أحرص من أعراب الجزيرة على محو الإسلام والقضاء على المسلمين.

وإذ كانت قريش في مكة قد استطاعت أول الأمر ـ لقوتها وضعف المسلمين ـ أن تنكل بهم وتفتن البعض منهم عن دينه تحت وسائل التعذيب بل وتجبر النبي ﷺ على مغادرة وطنه الأصلي (مكة) لجرأتها على الائتمار بقتله، فإن اليهود الذين يودون أن يفعلوا ذلك وأكثر بالنبي ﷺ وصحبه رضي الله عنهم، لم يكن في مقدورهم أن يفعلوا شيئًا من ذلك بمفردهم عندما جاءهم النبي ﷺ إلى يثرب.

لأنه ﷺ لم يصل إلى المدينة إلا وقد سبقه تكوين جبهة عسكرية قوية مُشَكَّلة من جميع القبائل القحطانية (الأوس والخزرج) في يثرب.

بالإضافة إلى مهاجري قريش المسلمين الذين تركوا مكة فرارًا بدينهم، وانضموا إلى معسكر يثرب، فكانت هذه الجبهة العسكرية القوية درع الرسول ﷺ الحربي الواقي الذي يحتمي به، الأمر الذي غاظ اليهود وقهرهم، وجعلهم يعجزون عن القيام منفردين بأي عمل عسكري وشبه عسكري ضد المسلمين كما كانت تفعل قريش؛ لأن هؤلاء اليهود بالرغم من قدمهم في الجزيرة هم عنصر أجنبي دخيل على الأمة العربية لم يستطع الامتزاج بهذه الأمة، بالرغم من إقامته بينها آلاف السنين.

وكل ما قام به اليهود في يثرب ضد النبي ﷺ ـ قبل غزوة الأحزاب ـ هو عمليات دس وتفريق بين المسلمين ومحاولات لإثارة الحرب الأهلية بينهم، وحركات عصيان ضيقة النطاق .. عمليات كلها باءت بالفشل.

وآخر محاولة جريئة قام بها اليهود هي محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ وهو بين منازلهم، فكانت نهاية هذه المحاولة الفاشلة هي طرد يهود هذه القبيلة وإجلاؤهم عن المدينة نهائيًا».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١١٥-١١٨].

٥ ـ لا حد للحقد اليهودي على الإسلام:

يقول أ/ دويدار: «لم يكن خروج بني النضير من المدينة بالأمر الهين على نفوسهم، ولا بالأمر الذي تنتهي آثاره بمجرد انتهائه، فقد كانت المدينة موطنهم وموطن آبائهم وأجدادهم منذ عهود بعيدة، وكان الأنصار من الأوس والخزرج هم الطارئين عليهم في عهود الآباء والأجداد، كما كان المهاجرون من قريش هم الطارئين عليهم في أيامهم الحاضرة.

وعلى رغم ما كان يبدو عليهم من مظاهر التجلد والاغتباط عند خروجهم، فإن قلوبهم كانت تغلي بالحقد على رسول الله ﷺ وأصحابه، أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم كارهين، وأرغموهم على ترك أرضهم ومنازلهم، وحصونهم وأسلحتهم، وزروعهم وثمارهم، وتجارتهم وأموالهم، وأنعامهم ودوابهم، ولم يسمحوا لهم أن يأخذوا من كل ذلك إلا بمقدار ما تستطيع أن تحمله الإبل من الأموال والمتاع.

فكان كل ما يفكرون فيه أن ينتقموا من أولئك الأعداء، وأن يمكنوا لهم ضربة قاصمة يستطيعون بها القضاء عليهم، أو يستطيعون بها على الأقل أن يُخرجوهم من حيث أخرجوهم.

هذا إلى ما كان يملأ قلوبهم من الحسد والبغضاء لذلك الرسول الذي جاء بدعوته إلى مدينتهم، فانتزع منهم تلك المكانة الدينية التي كانوا يستمتعون بها والتي كانوا يُدِلُّون بها على العرب المشركين في المدينة وفي غيرها من بلاد العرب وقبائلها.

وقد أخذت هذه الدعوة تظهر وتنتشر، ويزداد أنصارها على الأيام كثرة وقوة، حتى استطاعوا أن يُخرجوهم منها فريقًا بعد فريق، وهم أبناء البلاد وأهلها، وأصحاب الرأي والمكانة فيها.

من أجل هذا وذاك طوى اليهود نفوسهم على فكرة الانتقام، وجعلوا يتلمسون الفرصة للقضاء على محمد وصحبه، وعلى هذه الدعوة التي زاحمتهم في دينهم وغالبتهم في أوطانهم، وكانوا يعلمون أن قريشًا ومن حولهم من الأعراب كارهون لهذه الدعوة، ليس منهم إلا من يناوئها ويود القضاء عليها، وإن اختلفت بينهم الأسباب وتنوعت المقاصد، فجعل بنو النضير وَكْدَهم أن يؤلفوا بين أولئك الأحزاب، وأن يكوِّنوا منهم كتلة واحدة ينقضُّون بها على محمد ﷺ وصحبه، فيضربونهم ضربة رجل واحد، فيقضون عليهم في ساعة من نهار ثم يفرغون من أمرهم، وبذلك يستريح العرب واليهود جميعًا، ويعود السلام والأمن والطمأنينة إلى الجزيرة كما كان من قبل هذه الدعوة.

هكذا فكر بنو النضير، وعلى هذه النية أجمعوا أمرهم وعقدوا عزيمتهم، فخرج حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق في نفر من أشرافهم ووجوههم، يحزبون الأحزاب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، فقدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: **سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**.. وكأنما خامر الشك قريشًا في نية اليهود، فترددت في أن تمالئهم على محمد وهو واحد منها، أو كأنما خامرها الشك في أمر دينها فأرادت أن تطمئن إلى حقيقة الأمر فيه، وأن توازن بينه وبين دين محمد، ذلك الذي يدعو إلى عبادة الله وحده، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وأن تتبين موقفها إن كانت على الحق أو على الباطل فيما تريد من حربه.. لعل قريشًا فكرت في شيء من ذلك، وقارنت بين موقفها وموقف محمد، فرأت أنها في كل ما كان بينها وبينه كانت هي البادية بالعدوان، وأن محمدًا وصحبه لم يكونوا إلا مدافعين عن أنفسهم وعن دعوتهم، وعن حقهم في نشر هذه الدعوة بين الناس، ليؤمن بها من يشاء ويكفر بها من يشاء.. نعم، ولعل شيئًا من ذلك هو الذي دفع قريشًا أن تقول لمن جاءها من أحبار بني النضير: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ الأَوَّلِ وَالعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟**» فلم يسع اليهود وهم في موقف الإغراء لقريش إلا أن يقولوا لهم: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ الأَوَّلِ وَالعِلمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟**»...

وهكذا دفعهم الحقد والحسد والعداوة للنبي ﷺ ودعوته إلى عدم التورع في الشهادة الفاجرة، بأن الشرك خير من التوحيد، وأن آلهة المشركين وأصنامهم خير من إله محمد رب العالمين، وأن ما عليه المشركون من عادات وتقاليد أهدى مما يدعو إليه محمد ﷺ، وهكذا أنكروا أساس دينهم الذي هو الإيمان بالله وحده، في سبيل محاربة النبي الداعي إلى ذلك الإيمان، والناهي عن الشرك والإثم والفواحش، فأنزل الله في ذلك قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

فلما قالت اليهود ذلك لقريش سرهم، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فجعلوا يتأهبون لذلك.

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى أتوا غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأعلموهم أن قريشًا قد بايعوهم على ذلك، ووعدوا رجال غطفان أن يعطوهم ثمار خيبر من النخيل سنة، إذا تم لهم النصر على محمد ﷺ، فاستجابت لهم غطفان بكل بطونها.

وهكذا جعلوا يحزبون الأحزاب ويؤلِّبون القبائل ويجمعون كل من له عند رسول الله ﷺ ثأر، حتى اجتمع لهم ـ من قريش وغطفان وأسد وسُلَيْم ومن تابعهم من قبائل العرب ـ نحو من عشرة آلاف مقاتل، وسار هذا الجيش الكبير إلى المدينة، تحت إمرة أبي سفيان بن حرب، في شوال سنة خمس من الهجرة (فبراير ٦٢٧م)». [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤١٦-٤١٨].

ويقول د/ الغضبان: «وكان خروج بني النضير بأحقادهم وذلهم دافعًا لهم على تغيير الحلف، الذي نقضوه ليكون حلفهم الجديد مع عدو محمد ﷺ الأول قريش، وقد استطاعوا بنشاطهم السياسي أن يؤلبوا معظم العرب على حرب رسول الله ﷺ، فهم أقنعوا سليم وغطفان وقريش بحرب رسول الله ﷺ.

وواقع الحركة الإسلامية اليوم لابد من حربه مع اليهود عاجلًا أو آجلًا، والتعرف على التخطيط اليهودي الماكر في رغبته باستئصال شأفة المسلمين يفيدنا اليوم كثيرًا في هذه المعركة، فبنو النضير الذين أحنوا رقابهم لفترة مؤقتة، سرعان ما اشتعل مرجل الحقد في قلوبهم بعد الهزيمة، وراحوا يؤلبون العرب ضد الإسلام والمسلمين، ويتحالفون معهم لا على هزيمة محمد ﷺ فقط، إنما على استئصال شأفته، واليهود اليوم يتحالفون مع الحكام العرب حِلفًا غير معلن، ومن وراء ستار في ضرب الحركات الإسلامية في بلادهم ضربًا يستأصل شأفتها وينهيها من جذورها، وكثيرًا ما تصمت إسرائيل وتحقق الأمن مع بعض جاراتها العربيات ريثما يتمكن الحكام من إبادة المجاهدين في سبيل الله، وما أحداث حماة ولبنان إلا نماذج من هذه النماذج حيث تُدك المدن على أهلها، وتُدفن المساجد بأهليها، بترابها وركامها حتى لا يرتفع للإسلام صوت، أو تقوم قائمة، وما أشبه الليلة بالبارحة!

كما نفقه كذلك ما تبذله اليهودية من مال لذلك، وكم كان سلاح المال رائجًا عندها، فلقد فكرت أن تشتري الخليفة المسلم بالمال مقابل السماح لها بالهجرة إلى فلسطين، بل اشترت الإنجليز بالمال في الحرب العالمية الأولى مقابل وعد بلفور بالسماح لها بإقامة وطن يهودي في فلسطين، فهي هنا تتبرع بثمر خيبر عامًا كاملًا مقابل دخول غطفان الحرب ضد المسلمين، وهي تمد الأعداء بالبضائع ليحاربوا المسلمين، فلقد كانت أفريقيا سوقًا يهودية، وكان اعتراف سبع عشرة دولة أفريقية بإسرائيل هو الثمن.

وفي عالم السياسة لا وزن للمبادئ إلا عند المسلمين، واليهود أكثر الناس تناقضًا مع مبادئهم حين يكون لهم مصلحة في ذلك، مثلهم مثل النصارى والكافرين، بل هم أشد عداوة؛ ولذلك رأيناهم يفضلون المشركين الوثنيين على المسلمين الذين يؤمنون بالله وتحكيم كتابه، وهم يعلمون أن محمدًا ﷺ نبي مرسَل، ومع ذلك فهم يشهدون لقريش بصحة دينها الوثني.

وعلينا أن لا نغتر كثيرًا بالقواسم المشتركة بيننا وبين حلفائنا، فسرعان ما تتغير المصلحة فتسقط المبادئ، ويُرمى بها جانبًا أمام مصلحتهم.

والتضليل الفكري الذي يمارسه اليهود ضد المسلمين والإسلام في العالم يكاد يسد الأفق، ومن خلال الأفكار المطروحة في العالم تحت أي اسم لاجتثاث المسلمين من جذورهم، وما المحافل الماسونية والأفكار التحررية والوجودية، والماركسية، والعلمانية، إلا صورة من صور التضليل، إنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا.

ولئن كان دورهم في البداية رهيبًا، فلم يرعووا عن ذلك، بل راحوا يؤججون النار مع إخوانهم من بني قريظة لنقض العهد، وذلك في قلب المعركة، كما سنرى في المرحلة الثانية من الغزوة».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٢٩٦-٢٩٨].

ويقول د/ فيض الله: «رأينا كيف أثار شيخ بني النضير حُيَيٌّ بن أخطب حفيظة قريش ومَنْ تبعها ضد المسلمين، وكيف حرضهم على حربهم، وأقنعهم بأنه سيوحي إلى يهود بني قريظة، بنقض عهد محمد ﷺ، وقطع المدد عنه، بحيث ينفتح أمام المشركين واليهود الطريق إلى المدينة.

ولا غرابة في أن يسلك ذلك الشيطان هذا المسلك، حيال الرسول ﷺ والمؤمنين، فقد طُرد هو ومَنْ معه من اليهود من المدينة شر طرد، في غزوة بني النضير ـ كما رأينا ـ إنما تبدو الغرابة في استجابة بني قريظة لهذه الدعوة الإجرامية، من عدة أوجه:

(١) أن المسلمين كانوا أوفياء ليهود يثرب، وكانوا مسالمين، لم يُحدِثوا إزاءهم أي شغب، ولم يسيؤوا إليهم، حتى يفاجئهم هؤلاء اليهود بهذا الغدر الماكر اللئيم.

(٢) إنهم كانوا مرتبطين مع المسلمين بوثيقة، أشهد عليها الله ورسوله، وجاء فيها:

«أن الله شهيد على مَنْ بر واتقى، وأن عليهم النصر على مَنْ حارب أهل هذه الصحيفة، وأنه لا يَحل نصر المُحْدِث وإيواؤه، وأن مَنْ نصره وآواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، لا يُؤخذ منه صرف ولا عدل...».

وقد بر المؤمنون بهذه الوثيقة، وها هم أولاء اليهود من بني قريظة يغدرون وينقضون العهد اليوم، كما نقضه من قبلهم إخوانهم يهود بني النضير، ومن قبلهم إخوانهم بنو قينقاع، وهذا تسجيل تاريخي لا يقبل التغيير والتبديل، وواقع لا مرية فيه، يعلن في جلية، أنه لا قيمة للعهود والمواثيق عند اليهود بإطلاق.

(٣) أنهم تحالفوا مع المشركين، وهم يزعمون أنهم أهل التوحيد، فما وجه هذا الحلف، وما الصلة بين الموحدين وبين المشركين؟ لا شيء، سوى المصلحة والمادة، التي تغلب عندهم على الدين كله، فهم إذًا وثنيون كالمشركين، لكن هؤلاء يعبدون الأوثان، التي لا تضر ولا تنفع، وأولئك يعبدون الدرهم الرَّنَّان، فبه ينفعون وبه يضرون... ثم لا شيء سوى ترجيح الوثنية على الإسلام، وتفضيل الشرك على التوحيد، الذي يمثله الإسلام، الذي يزداد مع الزمن قوةً وعزةً، وسموًا ورفعة.

وقد استنكر بعض اليهود صنع بني النضير هذا، ومحالفتهم الشرك ضد الإسلام، فقال **الدكتور إسرائيل ولفنسون** في كتابه «**تاريخ اليهود في بلاد العرب** [١٤٢]»: «كان من واجب هؤلاء، أن لا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم؛ لأن بني إسرائيل كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم، بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نُكِبوا بنكبات لا تُحصى، من تقتيل واضطهاد، بسبب إيمانهم بإله واحد، في عصور شتى من الأدوار التاريخية، (هكذا على حد تعبيره) كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين، هذا فضلًا عن أنهم بالتجائهم إلى عُبَّاد الأصنام، إنما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام، وبالوقوف منهم موقف الخصومة».

هكذا خطَّأ كاتبٌ يهودي قومَه في تفضيل الشرك على التوحيد، لكنه لم يحدد الباعث على هذا التفضيل، الذي وليه الاشتراك الفعلي في تأليب الشرك على الإسلام، والوقوف مع المشركين في حرب الموحدين.

لم يكن الباعث إلا خصومة اليهود مع الإسلام، وإشفاقهم من امتداد الفتح الإسلامي، وبسط نفوذه على أرجاء المعمورة، مما تتوارى معه الظلال اليهودية، ويضمحل السلطان اليهودي إزاءه، وتصبح عقيدة أن اليهود شعب الله المختار، أسطورة قديمة.

من أجل ذلك لم يكتف اليهود بتفضيل الشرك على التوحيد الذي يدعو إليه محمد ﷺ، بل إنها خفَّت للتشغيب والتأليب على محمد ﷺ، وشاركت في محاربته فعلًا.

وسنرى عما قليل، كيف لاقت قريظة جزاء عدوانها، وحاق بها من الخزي ما حاق ببني النضير وبني قينقاع قبلها». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٢٤-٢٢٦].

ويقول الشيخ أبو خوات: «ولقد جاز هذا الكذب والنفاق على المشركين ففرحوا بشهادة أهل الكتاب الأول ـ كما كانوا يسمونهم ـ ضد الإسلام مع أنهم يعبدون الله الواحد الذي يعبده المسلمون، ولكنه الحقد الأعمى والرغبة القاتلة في الانتقام مما أدى إلى أسف الدكتور ولفنسون اليهودي في كتابه

تاريخ اليهود ص١٤٢: «والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين، حيث فضَّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية».

ألا فما أشبه الليلة بالبارحة .. إنه الكراهية المتأصلة والعداء المستحكم الذي لا علاج له إلا بالفصل بين العرب واليهود بحيث لا تكون بينهما مصالح مشتركة ولا حدود مشتركة حتى يستريح العالم ويهدأ، وإلى أن يتم ذلك فلن تخلو فترة من أحداث بين العرب واليهود، ولن يفيد حل سلمي ولا حل عسكري غير حاسم بحيث يمكن معه إقامة اليهود مواطنين في دولة لا يكون لهم فيها حكم ولا سلطان، وسيرى من يعيش هذه الحقيقة وإن طال الزمان. هذه عبرة مكررة لا يمل هذا القلم من الكتابة فيها لأنها حقيقة الحياة في هذا الجزء من العالم الحديث». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٨٦-٨٧].

ويقول د/ زين السيد: «إن قوى الشر تعمل دائمًا من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين، ومن أجل الحصول على هذا الغرض الدنيء بذلت كل جهدها ملتمسة كل الأسباب التي توصلهم إلى ذلك، فقد كان رسول الله ﷺ قد أجلى بني قينقاع وبني النضير عن المدينة لنقضهم المعاهدة التي أبرمها معهم، ولم يكن خروجهم من المدينة بالأمر الهين على نفوسهم ولا بالأمر الذي تنتهي آثاره بمجرد انتهائه، كبر عليهم إكراههم على ترك ديارهم، فقد كانت المدينة في زعمهم موطنهم وموطن آبائهم منذ عهود بعيدة، وكان الأنصار من الأوس والخزرج هم الطارئون عليهم في عهود الآباء والأجداد، كما كان المهاجرون من مكة هم الطارئون عليهم في أيامهم الحاضرة، وعلى الرغم من أنهم حين أُخرجوا من المدينة كان يهيأ للناظر أنهم فازوا بنجاتهم من القتل وأصبحوا مستريحي الضمير إلا أن قلوبهم في الحقيقة كانت تغلي بالحقد والحسد والكراهية على رسول الله ﷺ وأصحابه، هؤلاء النفر الذين أخرجوهم من ديارهم كارهين، تاركين وراءهم أرضهم وزروعهم وحصونهم وأسلحتهم وأمتعتهم ودوابهم ولم يسمحوا لهم أن يأخذوا معهم إلا مقدار ما تحمله الإبل من الأموال والأمتعة، هؤلاء النفر باستماتتهم في الدفاع عن الحق وتشبثهم وأخذهم على أيدي معاديه وتهديدهم لمعانديه يتفننون في الكيد لهم ولم يألوا جهدًا في محاولة الانتقام، والدس والخديعة بعض ديدن اليهود، ومن هنا كان تخطيطهم وتدبيرهم القضاء على الإسلام والمسلمين، هذا إلى ما كان يملأ قلوبهم من الكراهية والبغضاء لذلك الرسول ﷺ حيث جاء بدعوته إلى المدينة فانتزع منهم مكانتهم الدينية التي كانوا يتعالون بها على العرب المشركين في المدينة وغيرها من أهل الجزيرة العربية، وقد أخذت هذه الدعوة تنتشر ويكثر أتباعها قوة وعددًا حتى أخرجوهم منها فريقًا بعد فريق أذلة صاغرين وهم أبناء الوطن الأصليين كما يدعون وأصحاب الكلمة فيه.

من أجل هذا أخذوا يعمدون إلى فكرة الانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين ومن هذه الدعوة التي أجلتهم من دورهم وغالبتهم في أوطانهم، وكانوا يعلمون يقينًا أن قريشًا كارهة لهذا الدين الجديد ويودون القضاء عليه وعلى أتباعه، فجعل بنو النضير كل همهم أن يؤلفوا بين قريش والقبائل العربية المجاورة وأن يجمعوا منهم الأحزاب، وينقضوا على محمد ﷺ وصحبه فيقضون عليهم في ساعة من نهار ويفرغون من أمرهم، ويستريح العرب واليهود جميعًا ويعود الأمن والسلام والطمأنينة إلى ربوع الجزيرة العربية كما كان قبل ظهور الدين الجديد الذي أرق مضجعهم وفرق كلمتهم وانتزع السيادة منهم.

لقد بلغ العداء باليهود لمحمد ﷺ وأصحابه منتهاه حتى أعماهم عن رؤية الحق الواضح وجعلهم يسيرون في دياجير الظلم والظلام، وهم يعلمون مغبة أمرهم، واليهود في كل العصور أخذوا على عاتقهم الكيد للإسلام والمسلمين للنيل منه، ولعل المسلمين ينتبهون لمثل ذلك، كما ينبغي أن تظل الصورة واضحة في الأذهان، وأن يكونوا دائمًا في منتهى اليقظة والحذر من عدو يكيد ويدبر ويخطط بلا يأس ولا ملل وإن طال المدى، وتعاقبت الأعصر والأزمان وأن أبناءه وأحفاده ليسيرون على المنهج ونفس الخط يكملون المسيرة ويصلون إلى نهاية الشوط، ولن يردهم عن ديارنا ومقدساتنا كلام ولا شعارات وإنما يستأصل شأفتهم ويقضي على مؤامراتهم استمساك بحبل الله المتين وشد عرى الأخوة بيننا وتوثيق أواصر المحبة بين أبناء الأمة الإسلامية». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٤٧، ١٦٤].

ويقول الشيخ عبيد: «والقرآن الكريم ذكر هذا الحدث لما له من أهمية حيث يكشف عن الطوية الخبيثة والنفوس اللئيمة فيقول القرآن: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء].

هل حفظ التاريخ عن أحد من البشر أنه نزل في مثل هذا المستنقع الخبيث اللئيم».

[غزوة الأحزاب لعبيد ١٨].

٦ ـ كان غدر اليهود وفجور زعيمهم حيي بن أخطب وراء حشود الأحزاب:

يقول الشيخ عرجون: «أما أسباب غزوة (الأحزاب ـ الخندق) فهي معصوبة بغدر اليهود وحسدهم وتحريضهم أعداء المجتمع المسلم على مهاجمته لاستئصاله والقضاء عليه وعلى رسالته ودعوته، فهم الذين أشعلوا نارها، وأوروا زنادها، وحملوا لواءها، وانتهضوا لها بباعث الحقد الأسود والحسد الذي ملأ صدورهم والغدر الذي كان ديدنهم.

وكان الذي تولَّى كبر تجميعهم من اليهود لعين السماء والأرض، فرعون الفراعين، وأكفر الكافرين، خبيث الأَخْبَثين حيي بن أخطب النَّضْري، وقد انضم إليه فجارهم: سلَّام بن مِشْكَم، وابن أبي الحُقَيْق،

وكنانة بن الربيع، وهؤلاء نضريون امتزج الغيظ والحنق بدمائهم، وأذاب الحسد كل ذرة من ذرات آدميتهم، وملأهم ضغينة، وانضوى تحت راياتهم الأرذلان: هوذة بن قيس وأبو عمار الوائليان، وكان بعض بني النضير عند إجلائهم قد خلَّف قومه وذهب إلى خيبر التي خرج منها ركب الشيطان بعدُ بتدبير أخبث المكر إلى مكة لتحريض بقايا غثاء الإنسانية في قريش ولفائفها على حرب النبي ﷺ ومهاجمته في داره ومدينته، والتقوا بطاغوت قريش وقائدها أبي سفيان بن حرب وغيره من زعماء أشتات الهاربين فرارًا من سيوف المسلمين.

محاورة استفتاء بين أخابث اليهود وبلهاء قريش:

وقال اليهود لهم: إنا جئناكم لنعاهدكم على أن نكون معكم على محمد حتى نستأصله، فقال لهم بلهاء قريش وطغامها: إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ ـ أف للرؤوس النخرة الخاوية والعقول البالية المهلهلة، والبلادة المتحجرة البلهاء ـ فقال لهم اليهود وهم منتشون من جهالاتهم البلهاء وبلادتهم الجهلاء، وأحسوا منهم بأنهم لا يحملون عقولًا في أدمغتهم تزن الأمور بميزان المعرفة والعلم، ولكنهم قوم كالأنعام بل هم أضل سبيلًا منها، فقالوا لهم وهم آمنون أن يُرَدَّ لهم قول: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

وأف للعقول الحاقدة التي أعماها الحقد حتى ألقاها بين أحضان الكذب الوضيع فهي تكذب في كذبها، وقد أنزل الله تعالى فيهم تعجيبًا لكل ذي عقل يحمل ذرة من سلامة التفكير من هؤلاء الممرورين سائلين ومسؤولين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء]، فاجتمعوا واتَّحدوا لذلك.

ثم خرج مَنْ خرج من أخابث اليهود إلى غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ كما دعوا قريشًا لذلك، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم، وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة كما في رواية الواقدي، وعند غيره أن الذي خرج إلى غطفان هو كنانة بن الربيع وأنه جعل لهم نصف ثمر خيبر دون التقيد بزمن مخصوص، فاستجاب لهم الأحمق المطاع عُيَيْنَة بن حصن الفزاري، وجمع من قومه فزارة ومن تبعهم من أهل نجد ألف مقاتل وخرج بهم معهم.

لفائف من قبائل مختلفة استجابت لفجار اليهود وخرجوا مع موتوري قريش:

وخرج أبو سفيان بن حرب في بقايا قريش من الموتورين ومن انضم إليهم من الأحابيش في أربعة آلاف، ووافاهم طليحة بن خويلد الأسدي فيمن أطاعه من قومه، وتجمَّعوا حتى عسكروا بمَرِّ الظَّهران، ثم جاءتهم سُلَيم مددًا في سبعمائة رجل، يقودهم سفيان بن عبد شمس، وهو أبو أبي الأعور الذي كان مع

معاوية في صفين، وبعض الروايات يذكر أن قائد سُلَيم كان أبا الأعور نفسه لا والده سفيان، ثم هوى إليهم الحارث بن عوف المُرِّي في أربعمائة مقاتل من قومه بني مُرَّة، قال الزهري: إن الحارث بن عوف رجع ببني مُرَّة فلم يشهد غزوة الأحزاب مُرِّيٌّ، قال ابن سعد: والقول الأول أثبت؛ لأن هؤلاء المُرِّيين شهدوا الأحزاب بقيادة الحارث، وقد هجاه حسان بن ثابت ﷺ بذلك.

ويدل على شهودهم لها أن رسول الله ﷺ أدخل الحارث بن عوف قائد بني مُرَّة في مراوضته مع عُيَيْنَة بن حصن لكسر شوكة الأحزاب عن المسلمين.

وخرجت مع الأحزاب أشجع في أربعمائة رجل يقودهم مسعود بن رُخيلة، وقد بلغت عدة تجمعات الأحزاب عشرة آلاف، وكانوا على أتم الأهبة والاستعداد للقتال، تتوافر لهم إلى جانب كثافة أعدادهم البشرية من المقاتلين غزارة المؤن وكثرة السلاح ووفرة المركوب، إذ كان مع قريش وأحابيشها ومن تبعهم من شراذم القبائل من كنانة وتهامة ثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة بعير.

وقد عقدت قريش لواءها في دار الندوة، وجعلته في يد عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وكان عناج أمر الأحزاب وقيادتها العليا إلى أبي سفيان بن حرب، فهو صاحب أمرها الذي تَصْدُر عن رأيه.

وكان المسلمون ثلاثة آلاف مجاهد في سبيل الله، وهكذا كان التفاوت بين القوى الإسلامية والقوى المعادية لها تفاوتًا عظيمًا، بيد أن كثرة أعداد الأحزاب لا تخزمهم روابط متماسكة، فهم كثرة جوفاء، بينما كانت قلة عدد المسلمين لها عواصم من روابط محكمة أجلها رابطة الإيمان ووحدة الهدف، ومن ثم كان ميزان القوة المؤمنة أثقل وأرجح». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٤٤-١٤٦].

٧ـ حزب الشيطان بين اليهود والمشركين:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر تصوير لجهود اليهود الأثيمة في تأليب أعداء المسلمين عليهم وجمعهم لحربهم، وهذا الخُلق الذميم قد اشتهروا به قديمًا وحديثًا.

ونجدهم في هذا الخبر مع علمهم اليقيني بصدق نبوة رسول الله ﷺ يخونون الأمانة ويُلَبِّسون الحقائق فيحكمون بأن دين قريش الوثني أفضل من دين المسلمين الإلهي، فهم عبيد المصلحة، فإذا كانت مصلحتهم الدنيوية تتحقق بالكذب والخيانة والغدر فإن هذه الأخلاق السيئة وأمثالها هي دينهم الذي يقدسونه ظاهرًا وإن كانوا يعرفون الحق باطنًا كمعرفتهم أبناءهم.

وقد لاقت سعاياتهم الخبيثة آذانًا صاغية من أعداء المسلمين في مكة، حيث الحقد المتراكم على المسلمين، والرغبة الأكيدة في القضاء على الدين الإسلامي الذي تجرعوا بسببه الذل والإهانة لما كفروا به وقاوموا أصحابه.

كما لقيت سعاياتهم قبولًا لدى القبائل الانتهازية التي تطمع في خيرات المدينة وتحلم بشرف الاستيلاء عليها». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠١-١٠٢].

ويقول د/ حبيشي: «لم يبق مع النبي ﷺ في المدينة من اليهود سوى بني قريظة وزعيمهم كعب بن أسد.

والنبي ﷺ كان قد عاهدهم كما علمت، والتزم الفريقان بعهدهم، لم يخرج واحد منهم على العهد.

وكان بنو قريظة قومًا يعملون بالزراعة وينشغلون بها، وبينهم وبين المسلمين من أنصار ومهاجرين نوع من المودة، وتبادل المنافع على نحو ما يكون بين الجار وجاره.

وقد علمت فيما سبق أن حيي بن أخطب، وعبد الله بن أبي بن سلول قد حاولا قبيل إجلاء بني النضير أن يحمل القرظيين على أن يدخلوا مع إخوانهم اليهود في نقض العهد مع النبي ﷺ، وإبطال معاهدة السلام المبرمة بينهم وبين المسلمين، وأن بني قريظة لم يستجيبوا لهذه المحاولة، وقالوا لعبد الله بن أبي: إنا مع النبي في معاهدة سلام، وإنا لم نر من الرجل إلا خيرًا.

واستمر يهود بني قريظة على مبدئهم هذا لا ينبذون إلى النبي ﷺ عهده، ولم يرهقهم النبي ﷺ في شيء.

غير أن الأمور لم تسر على ما يريد النبي ﷺ إلى آخر المدى، وهي لم تسر على ما يريد القرظيون إلى آخر الدهر؛ لأن أحد اليهود من بني النضير قد دارت في رأسه حمى تقليد آبائه وأجداده، فارتكس في حمأة الخيانة إلى أبعد مدى، لا يصلح معه أن يدافع عنه بعض الكتاب المحدثين من اليهود على استحياء، أو على غير استحياء، ولا ينفع معه أن يشهد لمثل هذا الدفاع أحد المسلمين الذي فضَّل أن لا يكون مع الحق يُسلم له قياده، بل قادته المنفعة إلى إشباع هواه.

والله يبعث كل إنسان منا على نيته، ويحاسبه على مقتضاها أو يغفر له كل ما انكشف من سوءته.

ارتكس بعض اليهود في حمأة الخيانة إلى الأذقان، وهو حيي بن أخطب زعيم بني النضير، الذين أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة بسبب خيانتهم.

حين خرج حيي من المدينة متجهًا إلى الشمال، ترك بعض قومه يذهبون إلى الشام، ونزل هو وعصبة من رجاله معه بخيبر وما حواليها من مساكن اليهود.

ولم يكن اختيار حيي بنزوله بخيبر وما حولها عشوائيًّا، أو مجردًا عن الفكرة الدافعة إليه.

والفكرة الدافعة إليه هو: أنه أراد أن يفرِّغ نفسه لتأليب العرب في شمال المدينة وجنوبها ضد النبي ﷺ.

ففي شمال المدينة تتمركز غطفان ومن يدور في فلكهم من العرب، وفي جنوب المدينة قريش وحلفاؤهم.

وحيي يريد أن يؤلب هؤلاء وهؤلاء، وغير هؤلاء وهؤلاء على النبي ﷺ بعد أن يدخلهم جميعًا في حلف، يكون هو الذي يضع بنوده ويحدد إطاره.

غير أن حيي قد فكر طويلًا في الطريقة التي يتبعها في إغراء هؤلاء وهؤلاء.

ولم يستمر حيي طويلًا حتى أملى عليه شيطانه ما ينبغي عليه فعله، ووضح شيطانه أمامه الطريق وضوحًا تامًا لا يخطئ معالمه.

أما قريش: فإن نقاط الارتكاز في دعوتهم لا تحتاج إلى عبقري حتى يدركها.

فقريش كما علمت أصحاب مصالح تجارية يحتاجون إلى سوق يستوعب تجارتهم، والمدينة المنورة فيها من التكتل السكاني ما يغري أرباب الأموال بالحفاظ عليهم سوقًا مفتوحة تستوعب بضاعتهم وتربح أموالهم، وتجارتهم في الوقت نفسه تأخذ كل عام طريقها إلى الشام، وهي مضطرة للمرور على المدينة ذهابًا وإيابًا، وليس من مصلحتهم تزايد قوة النبي ﷺ في هذه البقعة من الأرض.

وقريش في الوقت نفسه بينهم وبين النبي ﷺ والمسلمين عداوات وثارات، خلَّفتها غزوة بدر الكبرى أولًا، وساهم فيها ما حدث يوم أُحُد.

وليس بصحيح ما توهمه بعض القرشيين، من أن معركة أُحُد قد أعادت إلى قريش هيبتها بين العرب، وإنما الصحيح أن معركة أُحُد قد ماعت، لا يحسب فيها النصر لأحد الفريقين على الآخر، وإنما كل فريق منهم يمكن له أن يعزي نفسه بقوله لإخوانه: لا تحزنوا فإنهم يألمون كما تألمون.

ويمتاز المسلمون المصابون في أُحُد بأنهم يرجون من الله ما لا ترجو قريش، وهم فوق ذلك قد تابعوا قريشًا بعد المعركة وساروا في أثرها يطاردونها، حتى ألجأوا زعيمها أبا سفيان أن يأمر أصحابه بأن يجدوا في المسير، حتى لا يدركهم المسلمون.

وبقيت ثارات قريش تلح عليهم أن ينتقموا لقتلاهم يوم بدر ويوم أُحُد، وبقيت هيبتهم في نفوس العرب والتي أضاعها النبي ﷺ من بين أيديهم تلح على قريش أن يعملوا على استردادها.

وقريش بعد كل ذلك وقبله سَدَنَةُ البيت العتيق وأصحاب الزعامة الدينية في مكة يؤمهم الناس حاجين ومعتمرين، ثم هم لا ينصرفون عن مكة إلا وقد أثروها ماديًّا واجتماعيًّا بالبيع والشراء، وإقامة الأسواق الأدبية والمهرجانات الثقافية.

أمور كثيرة، وأسباب متعددة تخلق المناخ المناسب يزرع فيه حيي بذور خُبثه، ويبذر فيه بذور حقده، ويغرس فيه شتلات الضغينة التي لا تنبت إلا مر الثمار.

وذهب حيي بالفعل إلى قريش يعدهم ويمنيهم، ويحملهم على الشر حملًا، وهم يُقبلون عليه مرة، وينصرفون عنه مرات، وهو طويل النفس في نفث سمومه، وينسج على منوال الفتنة الشر لُحمته وسداه.

وهو في كل محاولة يضغط على مثير من المثيرات التي تهيج قريشًا، حتى سألوه وهم في قمة هياجهم: أنتم يهود وأهل كتاب، وعندكم من العلوم الدينية ما ليس عندنا ولا عند محمد، وعندكم من معايير

الترجيح بين الديانات ما لا يخطئ في مجال الترجيح فتيلًا ولا قطميرًا، وإنا نسألك ونسأل حاخامات اليهود معك عنا وعن ديانتنا، وعن محمد ودينه، أينا أفضل عند الله، وأقوم للعيش على هذه الأرض، وأقدر على قيادة العرب، وأحق بالزعامة والقيادة؟

قال حيي ومن معه: يا معشر قريش إنه لا مجال للمقارنة، إنكم بوثنيتكم وعبادتكم للأصنام أفضل من محمد ومن معه على توحيدهم ونبذهم الشرك.

وقريش قد امتلأت زهوًا بما سمعته من شهادة أهل الكتاب وانحيازهم لهم.

أرأيت يا صاحبي إلى الشرك أين يذهب، وإلى الضلال والغاية التي ينتهي إليها؟!

أما أنا فإني أرى القرآن الكريم ينعي على هؤلاء النفر من اليهود صنيعهم، ويقبح فعلتهم حين يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء].

وأما أنا فإني قد اطلعت على كلام أبناء جلدتهم، فرأيت لبعضهم كلامًا يلومون فيه حيي وأتباعه أشد اللوم، حيث قبح صورتهم في التاريخ حين وقف يرجِّح ـ على غير معيار ـ ديانة الوثنية في مكة على ديانة التوحيد في المدينة.

وهاك عبارته من كتاب تاريخ اليهود في بلاد العرب [ص ١٤٢] أنقل لك منه هذا النص، وهو موصول بما قبله: [.. لكن الذين يلامون عليه بحق والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين، حيث فضَّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية.

نعم إن ضرورات الحروب أباحت للأمم استعمال الحيل والأكاذيب والتوسل بالخدع والأضاليل للتغلب على العدو، ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش هذا فضلًا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة].

وأيًّا ما كان الأمر في تقييم حيي ومن شايعوه من اليهود، فإنه في كل حال قد عرف الطريقة إلى تأليب قريش على النبي ﷺ، ومعهم حلفاؤهم من بني كنانة وأهل تهامة، في صدورهم حماستهم تدفعهم الرغبة في تأمين تجارتهم وفتح أسواقهم، واسترداد هيبتهم ومكانتهم.

وأما غطفان: ومن شايعهم من أهل نجد، فلم يكن بينهم وبين النبي ﷺ ثارات ولا حروب، ولا حتى خلافات، وليست المدينة في طريقهم إن أرادوا أن يذهبوا إلى الشام أو يعودوا منها، ولا غير ذلك من الأمور التي ارتكز عليها حيي، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع حين ذهبوا إلى قريش يألبونهم على النبي ﷺ، ويغرونهم به.

وهنا يجد حيي ومن شايعه من الرجال أنفسهم في حاجة إلى أسلوب جديد يثيرون به غطفان ومن معهم ضد النبي ﷺ في المدينة.

وأجهد الرجال أنفسهم في البحث عن هذا الأسلوب، ولم يجدوا لذلك سبيلًا يصلون به إلى نفوسهم، سوى أن يجعلوا لهم جُعلًا، أو يحددوا لهم أجرًا.

والأجر المقترح عرضه على هؤلاء هو: أن يقولوا لغطفان ومن معهم: اجتمعوا معنا على قتال النبي ﷺ ولكم ثمار خيبر جميعها عامًا كاملًا.

وغطفان قد أغراهم هذا العرض من حيي ورفاقه، واجتمعت كلمتهم على أن يجيبوا اليهود على ما أرادوه.

ملاحظة لا تخطئك: وحين اجتمع لحيي ورفاقه من يهود بني النضير، ما أرادوه من تأليب العرب على النبي ﷺ ودعوته في المدينة، واجتمع له حلفاؤه من جنوب المدينة وشمالها، قابلته مشكلة لم تسعفه قريحته أن يتغلب عليها، وهي: أن العرب الذين ألبهم حيي ليسوا على هدف واحد في حروبهم ضد النبي ﷺ، إذ قد علمت أن لقريش أهدافها، ولغطفان ومن شايعهم من أهل نجد هدفها، الذي لا يعدو أن يكون جُعلًا يناله خيره، أو أجرًا يستحقونه بعد غلبتهم للنبي ﷺ أن يأخذوه.

وطالما توزعت الأهداف، واختلفت المقاصد، وتبعثرت الدوافع، فإن اجتماع الجنود يكون هشًا يطيح به قليل من الإعصار، وشيء من الوهن.

وإعضال آخر قد قابل حييًّا ورفاقه، وهو: أن العرب في طباعهم أن كل قبيلة منهم لا تسلم زمام قيادها إلى قبيلة أخرى بسهولة، وإنما كل قبيلة منهم ترى أنها أولى بالقيادة، وأقدر على الزعامة، وأن ما دونها من القبائل لا يتاح لهم إلا أن يتبعوها، ويسيروا في فلكها، ويخضعوا لزعامتها وقيادتها.

وتلك مشكلة متأصلة في العرب منذ القديم وإلى اليوم، وهي مشكلة أعيت حييًّا لم يستطع منها فكاكًا، ولم يجد له منها مخرجًا.

وهذه المشكلة التي أعيت حييًّا ورفاقه كانت أولى بشائر النصر للمسلمين، وطلائع الفوز لهذا الدين الجديد الذي أذاب هذه الخصلة في قلوب تابعيه، وأصبح الأوس والخزرج ـ على ما كان بينهم من خلاف في الجاهلية ـ يدينون بالقيادة للنبي ﷺ، لا يفكر واحد منهم في زعامة، ولا في عصبية، وإنما كل واحد منهم يريد أن يموت بين يدي النبي القرشي ﷺ، ويحظى بالشهادة والنبي ﷺ يشهد له بها.

والمهاجرون على اختلاف قبائلهم وتنوعها، قد رضوا أن يكون النبي ﷺ إمامهم لا يختلفون عليه، ولا يطمعون بين يديه إلا في رضا الله ﷻ.

وهكذا اجتمعت أمام حيي أمور أعيته وضايقته، فلم يكن له من بد إلا أن يتجاوزها، وأن يسرع بجمع الحلفاء في مدينة رسول الله ﷺ زاعمًا أنه بأيديهم سوف يبطش البطشة الكبرى».

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١١٥-١٢١].

٨ ـ انحراف اليهود عن التوحيد:

يقول د/ أبو فارس معلِّقًا على الحوار بين قريش واليهود:

١ ـ إن سؤال قريش للوفد اليهودي عن دينها يدل على ضعف هذا الدين في نفوس أصحابه، وقلة ثقتهم به، وعدم اطمئنانهم لما يدينون به أنه الحق، فأرادوا أن تطمئنهم يهود ولو مجاملة بذلك.

٢ ـ ويؤخذ من موقف اليهود وجوابهم على سؤال قريش بأن لا وزن للدين عند اليهود إذا تعارض مع مصالحهم وأهوائهم، بل هم يزيفون الحقائق الدينية ويحرفون كلام الله لخدمة أغراضهم الخبيثة وأهوائهم المنحرفة، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦].

إن القارئ الكريم يلمس من هذا الموقف السياسة الميكيافلية عند اليهود، إذ الغاية تبرر الوسيلة، ومن ثم فلا ينظرون إلى نظافة الوسيلة ونبلها، فلا مانع لديهم أن يسلكوا كل وسيلة خسيسة قذرة ما دامت تساعد على تحقيق غايتهم، فلا غرو إذن أن يكذبوا ويقلبوا الحقائق ويفضلوا الكفر على الإيمان، والشرك على التوحيد من أجل إرضاء الكافرين ليستجيبوا إلى تحريضهم لقتال المسلمين.

٣ ـ إن المنطق الإيماني والمنطق العقلي يقضيان أن تتقارب وجهات نظر اليهود والمسلمين؛ لأن المشكاة واحدة، والمصدر واحد، فالقرآن من عند الله، والتوراة من عند الله، والوثنية ديانة تناقض العقيدة الربانية التي جاء بها القرآن والتوراة قبل أن تعبث بها أيدي اليهود.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يفضل اليهود الوثنية وعبادة الأصنام على دين الإسلام الذي دعا الناس إلى الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك؟

نعم إن الذي أعمى أبصار يهود وبصائرهم عن هذه الحقيقة وغيرها حقدهم على الإسلام وأهله، وحسدهم لرسول الله ﷺ على نعمة الرسالة والنبوة التي مَنَّ الله عليه بها، قال تعالى فاضحًا نواياهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

ولهذا الموقف وغيره استحقوا الطرد واللعنة من الله سبحانه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٨٥-٨٧].

ويقول د/ الوكيل: «لقد كشفت هذه الإجابة عن حقد دفين طغى على كل مقدسات اليهود، وأعماهم عن أصل عقيدة التوراة وهو التوحيد، فتركوا عقيدتهم لإطفاء غل صدورهم، ونزل القرآن الكريم يندد بهذا الموقف المخزي، ولعنهم لعنا كبيرًا فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ [النساء].

لم يكن القرآن الكريم وحده هو الذي وقف من اليهود هذا الموقف، بل إن كثيرين من بني جلدتهم قد عابوا عليهم موقفهم هذا، واعتبروه خروجًا على عقيدة اليهود ـ التوحيد ـ وتجافيًا لمبدأ أساسي من مبادئ الدين اليهودي، وكان من أبرز الذين عابوا على اليهود هذا الموقف المؤرخ الإسرائيلي في العصر الحديث الدكتور إسرائيل ولفنسون، كما سبق إيراد قوله». [تاريخ اليهود لولفنسون ١٤٢ - ١٤٣].

لم يرد اليهود من وراء هذا الكذب القبيح سوى تنشيط المشركين للدخول في حرب مع المسلمين، وقد تحقق لهم ذلك، وعقدوا اتفاقية عسكرية كان اليهود وقريش وغطفان من أبرز أعضائها».

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧٣].

٩ ـ الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل:

يقول د/ أبو خليل: «وقول اليهود هذا يخالف عقيدتهم ودينهم الداعي إلى عبادة الله الواحد، إن تقديمهم دين قريش وتحسينه، وجعله أهدى سبيلًا وهو الدين الوثني يوصلهم إلى هدفهم وغرضهم الذي يشغلهم ويفتت كبدهم، ألا وهو محاربة المسلمين وطردهم من المدينة، وإعادة إخوانهم إلى ديارهم، بل إن الهدف أبعد وأشمل: «**إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**».

وكان خيرًا لهم أن يعيشوا مع المسلمين في عهودهم التي ضمنها الإسلام منذ وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة، حيث تمتعوا بحق المواطنة كاملًا، من مؤامراتهم ووقوفهم دائمًا في الصف المعادي للمسلمين.

ولكن، إن انتصار الوثنية في جزيرة العرب انتصار لأهدافهم، فمع المنة والفضل على قريش، يحققون أطماعهم المادية والسياسية.

يقول الأستاذ (ولفنسون) في كتابه تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٤٢: «والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين، حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية».

والذين قالوا لقريش هذا، هم سادة اليهود وزعماؤهم وعلماؤهم، فهم يمثلون قومهم كافة؛ لذلك فهم يستحقون عقابًا وتأديبًا.

وهذا يدل على أن العلم وحده لا يكفي، يحتاج الإنسان إلى نور العلم، وروح العلم، والتفاعل الصادق مع العلم وبالتالي اتباع العلم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية].

ولذلك كان من الدعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ أَرِنِي الحَقَّ حَقًّا وَوَفِّقْنِي لِاتِّبَاعِهِ، وَأَرِنِي البَاطِلَ بَاطِلًا وَوَفِّقْنِي لِاجْتِنَابِهِ**».

العلم وحده غير كاف، فمع العلم يحتاج الإنسان إلى مخالفة الهوى، ومخالفة النفس لاتباع الحق أينما وجد.

ولم يضر الإسلام شيئًا عدم التزامهم واتباعهم له، وهم لو اتبعوه، ما خسروا شيئًا، فموسى عليه السلام مقدَّس مكرَّم في القرآن الكريم، وهم يعرفون ويعلمون أنه رسول الله حقًّا وصدقًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة]».

[غزوة الخندق لأبي خليل ٦٦-٦٨].

١٠ ـ الكفر كله ملة واحدة:

يقول الشيخ المسند: «الكفر كله ملة واحدة، فمن لم يكن مع المؤمنين فهو ضدهم سواء كان منافقًا أو مشركًا أو ملحدًا أو كافرًا، فكل هؤلاء لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم.

وقد تظافر على حرب المسلمين المشركون والمنافقون واليهود، وكانوا جميعًا يتمنون أن يزول المسلمون لينتهي الإسلام من الأرض، ولكن الله أراد الإسلام لعباده دينًا لا دين لهم سواه، وهذا أعظم درس للمسلمين في حال الحرب وفي حال السلم حتى يأخذوا أهبتهم ويحسبوا حسابهم لمن بين أظهرهم ومن يجاورهم ومن يتعامل معهم، وليعلموا أن أعداءهم يعرفون الإسلام ويعلمون نهجه ويدركون أهداف المسلمين ويعلمون تمام العلم أنه لو ساد الإسلام في الأرض فلن يبقى لهم مجال للسيطرة على العالم؛ فلذلك يحاربونه ويتفقون ضد أهله، ويخططون لتعمية أهدافهم عن المسلمين وهم متفقون عليها سلفًا. ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب]». [متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٧٧-٧٨].

ويقول د/ الزيد: «لقد خرج قادة اليهود من خيبر إلى مكة وإلى المشركين من قبائل العرب والتقوا جميعًا على حرب الرسول ﷺ، فمع اختلاف أديانهم وعقائدهم إلا أن حرب الإسلام والمعاداة لهذا الدين جمعتهم، فالكفر ملة واحدة وكلهم أعداء لهذا الدين لا يألون جهدًا في محاربته ومعاداته».

[فقه السيرة للزيد ٤٩٨].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد أكد هذه الحقيقة تضامن يهود بني النضير ويهود بني قريظة والمنافقين وكفار قريش وغطفان وسائر قبائل المشركين واجتماعهم جميعًا لحرب المسلمين واستئصال شأفتهم.

هذا وينبغي أن يعلم القارئ أن اليهود في نظر الإسلام كفار مخلَّدون في النار لقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وكذلك النصارى يُعتبرون كفارًا مخلَّدين في النار، وإن كان لهم أحكام خاصة في الحياة الدنيا كجواز نكاح نسائهم وحِل ذبائحهم». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٣].

ويقول الشيخ عرجون: «وهؤلاء الطوائف الذين كانوا في سابق التاريخ يقفون من الإسلام مواقف العداء قد تركوا ميراثهم في ذلك لربائبهم وتلاميذهم من الملاحدة والزنادقة والصليبية المتعصبة والشيوعية الفاجرة، واليهود الغادرين، والمنافقين الذين يظهرون في إطار العلم الاستشراقي، ومن أخذ عنهم من شباب الإسلام الجغرافي.

وكل أولئك داخل فيمن ذكرته الآيات التي جاءت في صدر سورة الأحزاب لمناسبة الحديث عن غزوتها التي كانت في الماضي آخر غزوات الهجوم الكفور على المجتمع المسلم، وقد شمر وارثو ضلالاتهم في أقطار الأرض ليقفوا من الإسلام اليوم مواقف غابريهم من أهل الكفر والضلال في شتى صوره وأشكاله، والكفر كله ملة واحدة، وشره النفاق». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٦٨].

ويقول د/ زين السيد: «ولا عجب أن يحدث ذلك التواطؤ من قوى الشر على حرب الإسلام ومحوه من الوجود؛ لأنه مستهدف من قِبَل أعدائه حيث إنهم يحاولون طمسه بشتى الوسائل سواء كان ذلك في القديم أو في الحديث، ولئن كان المسلمون قديمًا يعانون من قوى الشر فالمسلمون في العصر الحاضر يلقون نفس المعاناة من أصحاب المذاهب الهدامة وعلى رأسهم اليهود، فهم في كل زمان ومكان وراء كل زي من أزياء الفكر والعقيدة والسلوك ما دام لهم في رواجه منفعة، وهم أحرص على ترويجه إذا كان يحقق لهم المنفعة ويجلب لغيرهم الضرر، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة.

ولئن كان المسلمون قديمًا قد وقفوا بصلابة وشراسة في وجه أعدائهم حتى خيبوا آمالهم وهيأوا للإسلام سبيل الظهور والانتشار فأولى بالمسلمين اليوم أن يقتدوا بأسلافهم وأن يتعاونوا فيما بينهم ضد كل قوى الشر والطغيان التي تحاول بشتى الوسائل القضاء على الإسلام وطمس معالمه حتى يبدد المسلمون آمال هؤلاء الأعداء.

والإسلام قادر دومًا على الخروج من أية أزمة مهما استعصى حلها؛ لأنه النظام الذي يربط بين كل ألوان النشاط البشري ويوحد بينها في الاتجاه». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٥٠-١٥١].

ويقول أ/ رضوان: «استعد المسلمون لملاقاة أعظم قوة حشدها العرب واليهود ضدهم، واشترك فيها العرب واليهود معًا، وكان الهدف من حشد هذه القوة هو القضاء على الإسلام والمسلمين ورسول الإسلام، وإطفاء نور أمة الإسلام الذي أشرق بالتوحيد والرحمة والعقل والحكمة والإخاء والمساواة والحرية والتسامح والعلم والإيمان والحضارة، وتكريم الإنسان، والشورى بين الحاكم والمحكوم، وحرية الرأي والفكر والعقيدة». [محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٨].

١١ ـ ديدن الكفار في جميع الأحوال تدمير الإسلام وإبادة أهله:

يقول د/ أبو فارس: «الكفار واليهود يحافظون على العهود مع المسلمين إذا كانوا ضعافًا، وهذه المحافظة ليست لطيب نفوسهم وحبهم للوفاء بالعهد والوعد والعقد، بل لعجزهم عن الأذى، وإلحاق الضرر بالمسلمين.

ومع هذا فلا يسكتون وهم ضعفاء، بل يسلكون أسلوب التشكيك باللسان وقد عجزوا عن استعمال السنان.

إن الكفار واليهود إذا شعروا بقوة لهم، وضعف المسلمين فإنهم لا يَرْقُبون في مؤمن إِلًّا ولا ذِمَّة، وينقلبون إلى وحوش كاسرة، يفقدون آدميتهم.

وتمسُّك بني قريظة بالعهد بادئ ذي بدء لم يكن لطيب معدنهم، أو حبهم للوفاء بعهودهم، أو حسن سلوكهم، وإنما لأنهم كانوا يشعرون بضعفهم، وعدم قدرتهم على الوقوف في وجه المسلمين ومجابهتهم، ولما سنحت لهم الفرصة في ظنهم وتقديرهم وأنهم مع الأحزاب سيدمرون الإسلام ويبيدوا أهله، نقضوا العهد مع الرسول ﷺ ومزقوا الصحيفة التي كتبها لهم، بل وأنكروا أن هناك عهدًا بينهم وبين الرسول ﷺ، ونالوا منه ﷺ.

وهذا ديدنهم في جميع الأحوال.

والنصارى لا يقلون في خطرهم وحقدهم على رسول الله ﷺ عن اليهود، فلقد كرهوا رسول الله ﷺ من أول يوم وناصبوه العداء، وقتلوا سفيره الحارث بن عمير الأزدي ﷺ، واشتبكوا مع المسلمين في مؤتة، وأخذوا يستعدون للانقضاض على الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية، فجهز النبي ﷺ جيشًا قوامه ثلاثون ألف مقاتل وسار إلى تبوك فلم تجرؤ الدولة الرومانية الصليبية أن تشتبك معه، وانسحبت جيوشها إلى العمق، فأخذ الجزية من الإمارات المحاذية لحدود الدولة الشمالية وعاد سالمًا غانمًا.

وبعد أن التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وجاء الخلفاء من بعده قضوا على دولة الرومان في بلاد الشام في المعركة الحاسمة المشهورة معركة اليرموك.

سكن النصارى بعد ذلك لعدم قدرتهم على القتال إلا أنهم لم يسكنوا في مجال الفتنة والتشكيك، وبذر بذور الفتنة في صفوف المسلمين.

ويحدثنا التاريخ بأن رجلًا اسمه يوحنا الدمشقي كان يجمع النصارى في عهد بني أمية، في اجتماعات سرية، يلقنهم أساليبه الخبيثة في كيفية تشكيك المسلمين بعقائدهم، وبرسولهم محمد ﷺ، بإثارة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، وزواجه أكثر من أربع نسوة. [الإمام أبو حنيفة ـ للشيخ محمد أبو زهرة].

وظل الأمر على هذه الحالة حتى دب الضعف في صفوف المسلمين فانقلبوا وحوشًا كاسرة، تعاونوا مع الغزاة الفاتحين ضد المسلمين، فاضطهدوهم وآذوهم.

يحدثنا ابن تغري بردي الأتابكي في كتابه النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر ـ والقاهرة عن موقف النصارى في بلاد الشام عندما غزا التتار بلاد الشام فيقول: (وذهب بعضهم إلى هولاكو وجاؤوا من عنده بفرمان يتضمن الوصية بهم، والاعتناء بأمرهم، ودخلوا بالفرمان من باب توما، وصلبانهم مرتفعة، وهم ينادون بارتفاع دينهم، واتضاع دين المسلمين، ويرشون الخمر على الناس وفي أبواب المساجد، وكانت النصارى في تلك الأيام ألزموا المسلمين بالقيام في دكاكينهم للصليب، ومن لم يقم أحدقوا به وأهانوه، وقام بعضهم وخطب وفضل دين النصارى ووضع من دين الإسلام). [النجوم الزاهرة ٧/ ٨٠ ـ ٨١].

هذه هي أخلاق النصارى، وهذا بعض ما تخفي صدورهم يظهر على أفواههم، ومن أفعالهم إذا ألمت بالمسلمين نازلة، قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

نعم إن التاريخ يحدثنا عن جرائمهم التي ارتكبوها ضد المسلمين حينما حانت الفرص لهم.

ماذا فعلوا بالمسلمين في الأندلس حينما أصبحت الجولة لهم؟!

يخبرنا عن أفعالهم البربرية المتوحشة كاتب نصراني فرنسي هو **الدكتور غوستاف لوبون**، فقد جاء في كتابه (**حضارة العرب**) في حوادث سنة ١٤٩٩ قوله: (وكان تعميد العرب كرهًا فاتحة ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بحرق الكثيرين، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر حرق الملايين من العرب دفعة واحدة، ونصح كردينال طليطلة التقي، الذي كان رئيسًا لمحاكم التفتيش بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالًا ونساء وشيوخًا وولدانًا... وقررت إسبانيا تهجير العرب من إسبانيا، فقتل أكثر مهاجري العرب في الطريق، فأبدى ذلك الراهب ببلدا ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع أولئك المهاجرين في أثناء هجرتهم، وهو الذي قتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠٠٠٠ مهاجر مسلم.

ويختتم كلامه قائلًا: ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين). [حضارة العرب ص ٤٠٢].

أما عن أفعالهم البشعة في بيت المقدس فيقول: (فكان من أحب ضروب اللهو إليهم قتلُ من يلاقونهم من الأطفال وتقطيعهم إربًا إربًا وشَيُّهم، كما روت آن كوفين بنت قيصر الروم».

[حضارة العرب ص ٣٩٨]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٣-١٤٦].

١٢ ـ أبو جهل يهود حيي بن أخطب:

يقول د/ الغضبان: «لقد كانت عبقرية التخطيط في هذه الغزوة لأبي جهل يهود حيي بن أخطب، واسم أبي جهل هذا أطلقه عليه المسلم العظيم محمد بن كعب القرظي ﷺ إذ يقول فيه: «**كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ رَجُلًا مَشْؤُومًا، هُوَ شَأْمُ بَنِي النَّضِيرِ قَوْمُهُ وَشَأْمُ قُرَيْظَةَ حَتَّى قُتِلُوا، وَكَانَ يُحِبُّ الرِّئَاسَةَ وَالشَّرَفَ عَلَيْهِمْ، وَلَهُ فِي قُرَيْشٍ شَبَهٌ، أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ**». [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٥].

وأين كان حيي ومن معه حتى جاؤوا إلى مكة؟

يقول ابن إسحاق على أعقاب غزوة بني النضير: «فَكَانَ أَشْرَافُهُمْ مَنْ سَارَ مِنْهُمْ إِلَى خَيْبَرَ: سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، فَلَمَّا نَزَلُوهَا دَانَ لَهُمْ أَهْلُهَا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٦٩].

فقد كان مركز تجمعهم خيبر، وانضم إليهم أبو عامر الفاسق الذي لم يستشف غِلَّه وغيظه في أُحُد حين خذله قومه ولم يجيبوه، وانضم إليهم سادة يهود بني وائل.

يقول الواقدي: «لَمَّا أَجْلَى رَسُولُ الله ﷺ بَنِي النَّضِيرِ سَارُوا إِلَى خَيْبَرَ، وَكَانَ بِهَا مِنْ الْيَهُودِ قَوْمٌ أَهْلُ عَدَدٍ وَجَلَدٍ وَلَيْسَتْ لَهُمْ مِنْ الْبُيُوتِ وَالأَحْسَابِ مَا لِبَنِي النَّضِيرِ ـ كَانَ بَنُو النَّضِيرِ سِرَّهُمْ وَقُرَيْظَةُ مِنْ وَلَدِ الكَاهِنِ مِنْ بَنِي هَارُونَ ـ فَلَمَّا قَدِمُوا خَيْبَرَ خَرَجَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَكِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَهَوْذَةُ بْنُ الْحُقَيْقِ، وَهَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الوَائِلِيُّ مِنْ الأَوْسِ مِنْ بَنِي خَطْمَةَ، وَأَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ فِي بِضْعَةَ عَشَرَ ـ رَجُلًا إِلَى مَكَّةَ يَدْعُونَ قُرَيْشًا وَأَتْبَاعَهَا إِلَى حَرْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَالُوا لِقُرَيْشٍ: **نَحْنُ مَعَكُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا**.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هَذَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ وَنَزَعَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ جِئْنَا لِنُحَالِفَكُمْ عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ وَقِتَالِهِ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **مَرْحَبًا وَأَهْلًا، أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْنَا مَنْ أَعَانَنَا عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ**.

قَالَ النَّفَرُ: **فَأَخْرِجْ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا أَنْتَ فِيهِمْ وَنَدْخُلُ نَحْنُ وَأَنْتُمْ بَيْنَ أَسْتَارِ الكَعْبَةِ، حَتَّى نُلصِقَ أَكْبَادَنَا بِهَا، ثُمَّ نَحْلِفُ بِاللهِ جَمِيعًا لا يَخْذُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا، وَلَتَكُونَن كَلِمَتُنَا وَاحِدَةً عَلَى هَذَا الرَّجُلِ مَا بَقِيَ مِنَّا رَجُلٌ**.

فَفَعَلُوا فَتَحَالَفُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَعَاقَدُوا». [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤١-٤٤٢].

إن الهدف الذي يشفي غيظ قلوب اليهود محددًا ولا يقبل التعدد، إنه الاستئصال التام من الجذور (**نَحْنُ مَعَكُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا**)، وهو هدف لم يتغير ولم ولن يتبدل على مر العصور، وهذا الهدف قد

أعلنه حيي بن أخطب منذ لحظة وصول رسول الله ﷺ المدينة، حيث قال له أخوه أبو ياسر: **فَمَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ؟ قَالَ: عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بَقِيتُ**».

والجانب الثاني العجيب هو هذه الجرأة السافرة على الله، والوقاحة في عملية تأكيد التحالف على الحرب، هو أن يخرج خمسون من بطون مكة مع هؤلاء البضعة عشر ـ من اليهود ويدخلوا تحت أستار الكعبة متعاهدين متواثقين ـ وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة ـ على حرب محمد ﷺ.

وحيي بن أخطب طاغوت يهود يعلم أن محمدًا ﷺ حق منذ لحظة وصوله المدينة.

حيث قال له أخوه أبو ياسر: **أهو؟** قال: **هو هو**.

إنه هو هو الذي في كتبهم وأسفارهم، وهو الذي بشَّر به موسى وعيسى عليهما السلام، وهو الذي يتوكفون قدومه، وهو النبي الحق المرسل من عند الله، ومع ذلك يجرؤ أن يقود هؤلاء الطواغيت الصغار معه، وأن يقود قريش لحرب رسول الله ﷺ، بل يجرؤ أكثر من ذلك أن يدخل تحت أستار الكعبة، ويلصق كبده فيها معاهدًا قريشًا على حرب المصطفى ﷺ.

وهو يعلم أن محمدًا ﷺ حق، أما يخشى أن يمسخه الله وحزبه قردة خنازير كما مسخ أجداده، ولكن حب الزعامة يعمي ويصم.

ونقف عند هذا المشهد من جانب آخر، فالحلف بين اليهود أهل الكتاب الأول وبين عبدة الأصنام والأوثان على حرب النبي الذي بشَّرت به كتب اليهود، وهو حلف يحرص على ستار القداسة وستار الشرعية، ولا مكان لتغليظ العهد إلا عند الكعبة، لقد اكتفى أبو جهل قريش بالأخذ بحلق الكعبة، على أن يدعو قائلًا: **اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة**.

أما أبو جهل يهود فقد تجاوز أبا جهل قريش، ودعا إلى الالتصاق بالكعبة مباشرة لتوثيق الحلف والحرب ضد رسول الله ﷺ، فهل هناك أقدس من هذه الراية؟

واهتبلها أبو سفيان فرصته، ليأخذها فتوى من الأحبار والرهبان الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

ولابد أن يشعر حَمَلة العقيدة، أن الحرب المسعورة التي يشنها عليهم الطواغيت من اليهود ومن الحاكمين كثيرًا ما تتخفى تحت أستار الدين، وكثيرًا ما تنطلق باسمه، وكثيرًا ما تحمل شعاراته، وهذا من أوقح النماذج التي تبرز ذلك، فهم يشهدون لعبدة الأوثان والأصنام بالهدى، وهم حَمَلة الكتاب الأول، وهم ورَّاث دين الله في الأرض، وقادهم الصراع على السلطة إلى هذه المواقع الآثمة.

والمبدأ الثالث الذي يبرز أمامنا في هذا الحلف الدنس هو الذي قرره أبو سفيان: **أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْنَا مَنْ أَعَانَنَا عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ**، فهي المفاصلة الكاملة بين الفريقين والحزبين، حزب محمد ﷺ وصحبه وحلفائه، وحزب الشيطان والطاغوت، وعلى رأسه حيي وبنو الحقيق، وأبو عامر الفاسق وأبو سفيان بن حرب.

ثلاثة مبادئ خارجة من إطار الزمان والمكان ما أحوج المؤمنين إلى أن يعوها:

المبدأ الأول: هدف أعداء الإسلام الاستئصال الشامل من الجذور: **(نحن معكم حتى نستأصل محمدًا، ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل)**.

المبدأ الثاني: الرايات الدينية المزيفة التي تحارب الإسلام ودعاته باسم الدين وباسم الإسلام وبشعارات الإسلام: (فالعهد بين أستار الكعبة، وعلى رأسه أحبار يهود وورثة الحنيفية ودين إسماعيل كما يزعمون).

المبدأ الثالث: المفاصلة التامة بين الدعاة والطغاة **(أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْنَا مَنْ أَعَانَنَا عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ)**».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٠-١٣].

١٣ ـ رعاية الله ﷻ ونصره لأوليائه:

يقول د/ المدخلي: «بعد أن اجتمع الوفد اليهودي بقيادة زعيمهم الحاقد حيي بن أخطب بقواد قريش وزعمائها، وبعد أن رجعوا فرحين بما جاء به ذلك الوفد المشؤوم الذي كشف الله أمره، ولعنه.

بعد ذلك كله اجتمع زعماء قريش في دار الندوة للمشاورة وخرجوا بقرار نهائي هو الموافقة على ما أراده اليهود منهم، وقد صادف هوى في نفوسهم ألا وهو استئصال الإسلام والقضاء على حامليه كما كانوا يعتقدون ذلك؛ لأن نظرتهم كانت تغتر بالعدد الكبير الذي حشدوه إلى أرض المعركة، ونسوا أن النصر من عند الله، وأنه هو الذي نصر المؤمنين مع قلتهم في بدرٍ وغيرها.

تجاهلوا ذلك كله، وكان يراودهم أمل متعلق بالكثرة الكاثرة التي ذهب اليهود من أجلها إلى غطفان وبقية القبائل المعادية للإسلام في ذلك الوقت.

ولكنهم كما قال الله ﷻ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

وهم مع ذلك لا يعلمون أن الله ﷻ قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].

والخندق في الحقيقة نصر من الله حيث ألهمهم الله إلى حفره وأعانهم على سرعة إنجازه، فكان حاجزًا حصينًا، ولكي يبين الله ﷻ لأعداء المسلمين من منافقين وكفار أن النصر بيد الله وليست بالكثرة، وأنه متى كان الله ﷻ مع فئة ولو قليلة تكون لها الغلبة في النهاية؛ ذلك لأن هذه الفئة القليلة تقاتل عن عقيدة سامية ومبدأ عظيم ألا وهو الإسلام». [مرويات الخندق للمدخلي ٢٠٩-٢١٠، ٣٢٠].

١٤ ـ توظيف العصبيات وتوجيهها لخدمة الإسلام:

يقول أ/ حوى: «أسوأ القادة هم الذين لا يستطيعون أن يسيطروا على العصبيات، فضلًا عن أن ينزلوا في حمأتها، وأفضل القادة هم الذين يعرفون خصائص الناس ويعرفون لكل حقه ويستطيعون أن يضعوا

الإنسان المناسب في المكان المناسب ويحسنون توجيه الطاقات، ولقد كان رسول الله ﷺ في كل شيء هو الأرقى، ومن ذلك هذا الجانب، فالجزيرة العربية مهد العصبيات، العصبية للأسرة وللشعب وللقبيلة، ورسول الله ﷺ محل قيادته المباشرة هم العرب، فكان لابد أن يسيطر على العصبيات وأن يصهرها بعصبية واحدة هي العصبية للإسلام وأهله، وأن يستفيد بعد ذلك من خصائص الناس ومن تنافسهم، وإنك لتجد كيف أن هذا كله قد تهيأ لرسول الله ﷺ فلم يفلت الزمام من يده مرة واحدة على كثرة المحاولات من يهود ومن المنافقين لإركاس الناس في هذه الحمأة، تجد ذلك في مواقف كثيرة وسنرى في أحداث السنة السادسة نموذجًا على ذلك، وفي تنافس الأوس والخزرج على الفضائل بما يخدم الإسلام نموذج على الجانب الآخر، ومقتل أبي رافع الذي فعله الخزرج لتكافئ الأوس في قتلها لكعب بن الأشرف بيان لهذا الجانب من حياته ﷺ في الاستفادة من العصبية بما يخدم الإسلام». [الأساس في السنة ـ السيرة الحوى ٢/ ٧١٣].

١٥ ـ تسمية هذه الغزوة غزوة (الأحزاب) أوفق بلمحة القرآن:

يقول الشيخ عرجون: «وقد لَـمَّح القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ إلى تسمية هذه الغزوة باسم (الأحزاب) الذي يصور جوهرها في تكالب شراذم المشركين وفجَّار اليهود على المجتمع المسلم ليستأصلوه من فوق الأرض.

وتُسمى هذه الغزوة في مؤلفات الغزوات والسير غزوة (الخندق) تسمية لها باسم أول (تطور) في وسائل الدفاع الحربي أخذ به الإسلام في جهاده القتالي قبل أن يعرفه العرب؛ ليضع لمجتمعه معلمًا من معالم الحركة المتجددة في ظل الترقي والأخذ بكل جديد صالح تتطلبه الحياة الثائرة المتجددة، باعتباره من أهم وأعظم جوانب التأهب والاستعداد لمواجهة أعداء الحق في منهج الجهاد القتالي لرسالة الإسلام، إذا ألجئ إليه المجتمع المسلم للدفاع عن دينه وعقيدته وكيانه، وإعلاء كلمة الله، ونشر ـ رسالة الهدى والخير والإصلاح.

وقد عكس الإمام البخاري الوضع الإشاري الذي لَـمَّح إليه القرآن المجيد، فقال في الترجمة لها: بأن غزوة الخندق وهي الأحزاب، ولو عكس فقدم ما أخَّر، وأخَّر ما قدم لكان أوفق بلمح القرآن الحكيم.

وفي صنيعه هذا إيثار لتقديم الوسائل على المقاصد، وكان الأخذ بإشارة القرآن في تسمية هذه الغزوة غزوة (الأحزاب) أو ـ على الأقل ـ تقديم هذا الاسم على اسم (الخندق) أحرى وأقعد وأوفق.

لأن هذه التسمية التي أشار إليها القرآن تعبِّر تعبيرًا صادقًا عن الصورة التي وضع أعداء الله من المشركين وفجار اليهود هذه الغزوة في إطارها للأحداث التي جمعت حشود الشرك وعبيد الوثنية،

وأقامت دعائمها على القوة المادية من المؤن والسلاح، وأقامت عناصرها على التكالب المسعور لمهاجمة المجتمع المسلم في داره ومستقر دعوته.

ولعل الإمام البخاري ﷺ ومن أخذ بطريقته آثر تقديم الوسيلة الجديدة اهتمامًا بالوسائل المحدثة، إيماء منه إلى أن (تطور) الحروب في حياة الأمم والدول يتطلب هذه الوسائل المتجددة باعتبارها سببًا من أسباب الأهبة والاستعداد الدفاعي المفاجئ للعدو، فيدهشه ويذهله، ويقلب عليه خططه في خوض الحروب والقتال؛ ولهذا قال فرسان الأعداء لما رأوا (الخندق) وهم يجولون بخيولهم ليشتبكوا مع كتائب المجتمع المسلم: **إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها**، وكذلك مما يلتمس للإمام البخاري في صنيعه أن الوسائل مقدمة بالطبع على المقاصد». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٣٥-١٣٦].

١٦ ـ الله أكبر .. إني أرى قصور الغرب والشرق:

يقول م/ أبو راس: «وهكذا عادت للمسلمين قوتهم بعد أن اندحرت طوائف الكفر واحدة تلو الأخرى، الأمر الذي أيقنت معه هذه الطوائف بأنها لن تستطيع أن تجابه الإسلام إلا إذا اتحدت ورمته عن قوس واحدة..

وكان أكثر «المتضررين» من رسوخ الإسلام وثباته أمام كل العواصف المجنونة التي حاولت أن تعصف به، طواغيت يهود جزيرة العرب الذين وقعوا فيما حفروه للإسلام من حفر، والذين ارتد كيدهم ومكرهم إلى نحورهم وهل يحيق المكر السيء إلا بأهله؟!

وتصدَّر جَمْع فِرَق الكفر والطغيان، لحرب المسلمين وللقضاء عليهم نفر من قادة اليهود، ذهبوا إلى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله ﷺ قائلين لهم (**إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**) وعندما انتهوا من إقناع قريش، ذهبوا إلى أعراب غطفان فعقدوا معهم ومع بعض القبائل الناقمة على الدين الجديد حلفًا مشابهًا، وهكذا نجح اليهود في جمع العرب الجاهليين لخنق من جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور ومن التفرق والتشتت، إلى الوحدة، نجحوا في جمع العرب لإطفاء مشعل النور الذي جاءهم من ربهم ليخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

ولا ألوم اليهود وهم يتحركون هذه الحركات «المكوكية» فهم يتحركون من أجل مصالحهم الدنيوية التي نذروا أنفسهم لها، وهم بحركتهم هذه يحاولون جاهدين الحفاظ على مركزهم في جزيرة العرب، ذلك أنهم اعتقدوا أن الإسلام الذي تحولت به الرسالة الربانية من بني إسحاق إلى بني إسماعيل سحبت المجد منهم، وأن هذه الرسالة إن كتب لها النجاح فإنها ستوحد العرب ليكونوا على أتقى قلب رجل منهم لتبور بذلك تجارة أسلحتهم التي كانوا يصنعونها ليقتل بها العربي أخاه العربي، ولكنني لا أفهم لماذا يستجيب العرب لليهود، ولماذا ينطلي عليهم سحرهم؟! واليهود الذين حرَّضوا العرب في جاهليتهم

الأولى هم اليهود الذين يحرِّضون العرب اليوم في جاهلية القرن العشرين أيضًا على شعلة النور وموكب الهداية، ذلك أن شعلة النور مصدرها واحد: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور].

وكذلك لأن موكب الهداية هدفه واحد إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، من مهاوي الحسد إلى ربوع الحب لتسود المحبة بين الناس كل الناس، الأمر الذي سيدفع اليهود ثمنه غاليًا إذا عاش العالم في ظل خير أمة أخرجت للناس.

لقد همس اليهود في آذان خلفاء أبي جهل في الماضي بخطر الإسلام عليهم، وهم اليوم يهمسون في آذان خلفاء أبي جهل في الحاضر بخطر الإسلام عليهم، وهم اليوم يهمسون في آذان أحفاد أبي جهل وعلى نفس الموجات ولنفس الأهداف والأغراض، وقد يكون الهامسون ليسوا يهودًا في ظاهرهم؛ لأن العلمانية التي أرساها اليهود في أوربا ومن ثم في عالمنا الإسلامي أغفلت ذكر اسم الدين في البطاقات الشخصية! والأمثلة على ذلك كثيرة أقربها إلى الأذهان المستشار الألماني الغربي السابق «**هلموت شميت**» الذي صرح بعد فشله في الانتخابات الأخيرة التي أطاحت به «**إنه لا داعي للاستمرار في إخفاء عقيدته اليهودية؟!**».

وعلم الرسول ﷺ بالخطة وبالمكر اليهودي الذي استطاع أن يستقطب العرب ليسيروا في قرابة عشرة آلاف رجل، فلم يقيد الخوف رسول الله ﷺ ولا صحابته ولكنه دفعهم إلى الجلوس بهدوء ليستدركوا أمرهم ويضعوا خطة ترد كيد الكفر والطغيان إلى نحره بإذن الله ﷻ، فهذه المعركة ليست كغيرها من المعارك، والزج بالجماعة المسلمة في ساحة القتال في وسط هذه الجموع الحاقدة الباغية ضرب من الانتحار.

لقد استشار ﷺ أصحابه ﷺ ـ كما عودهم دائمًا ـ فأشار سلمان الفارسي ﷺ بحفر خندق عميق يحيط بالمدينة من ناحية السهل ويفصل بين المغيرين والمدافعين.

ولم يضيع ﷺ ولا أصحابه الوقت في تشكيل لجان عمل! ولجان متابعة! و..و.. ولكنه ﷺ يتقدم أصحابه لحفر الخندق.

لم يأمر الرسول ﷺ بحفر الخندق بينما يجلس هو في ظل ظليل، وماء وفير، وجو عليل، ولم يتقدم الرسول ﷺ الجمع ليقص شريط البدء بالحفر، ولم يكتف الرسول ﷺ بضرب الضربة الأولى بالمعول ثم الانصراف في وسط التصفيق والهتاف الكاذِبَيْن، ولكنه ﷺ كما قال الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ﷺ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الخَنْدَقِ، حَتَّى [أَغْمَرَ بَطْنَهُ أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ] وَارَى

عَنِّي الْغُبَارُ جِلدَةَ [بَيَاضَ] بَطْنِهِ [شَعَرَ صَدْرِهِ]، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ وَهُوَ يَنْقُلُ مِنْ التُّرَابِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وكان الصحب الكريم يرددون خلف رسول الله ﷺ الكلمات الأخيرة من مقاطع هذا النشيد الخالد.

إن الشعور الحقيقي بالخطر على الإسلام والمسلمين هو الذي سلب النوم من جفون هؤلاء الرجال، وإن الشعور الحقيقي بالخطر على الإسلام والمسلمين هو الذي دفع هؤلاء الرجال صغيرهم وكبيرهم، قويهم وضعيفهم، صحيحهم وسقيمهم إلى العمل في حفر الخندق كل حسب طاقته وقدرته وإمكاناتهم.

وإن الرجولة الحقيقة هي التي تمثلت في شخص رسول الله ﷺ وفي أشخاص أصحابه وهم يعملون بكل اجتهاد وإخلاص مبعدين أنفسهم عن مواطن الرياء والسمعة!

لقد استغرق ﷺ في العمل مع أصحابه على الرغم من البرد القارس والأزمة الاقتصادية الخانقة التي كانت باقتراب الحصار من الممكن أن تعصف بالمدينة! لذا فلقد انتهج رسول الله ﷺ نهج رفع المعنويات، كما رأينا في بشاراته ﷺ في حفر الخندق.

وحديث الرسول ﷺ إلى أصحابه ليس حديث تخدير أعصاب، ولا حديث لفت أنظار، ووعود رسول الله ﷺ ليست كوعود القادمين من المجهول الذين وعدوا برمي العدو الصهيوني ومن يدعمه في البحر!

فالرسول القائد ﷺ يتلقى الأمر من صاحب الأمر، صاحب هذه الدعوة الحق ﷻ، وقادة الغفلة في هذه الأيام يتلقون الأمر والنهي من أعدائهم، أعداء أمتهم ودينهم.

لقد كانت كلمات رسول الله ﷺ كالفرقان حيث فرقت بين أهل الإيمان وبين أهل النفاق، أما المؤمنون فلقد قالوا كما حدثنا القرآن الكريم على لسانهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

وأما الواهنون، المتخاذلون، الضائعون، عبيد الدنيا، فلقد تندروا ببشريات رسول الله ﷺ وقالوا مقولتهم الفاجرة الكافرة: «**يخبركم أنه يبصر الحيرة ومدائن كسرى، وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا**» لينزل قول الحق يفضح نواياهم ويكشف حقيقة قلوبهم الزائغة المنحرفة ليقول فيهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

وكما هو موقف اليهود ثابتًا على مر العصور في مواجهة الدعوة والدعاة فإن موقف المنافقين لم يتغير.

الأمة الإسلامية تعاني من حصار يوشك أن يأخذ آخر أنفاسها!

الأمة الإسلامية تعاني من برود رهيب في المشاعر، وضيق «عجيب» في الاقتصاد ـ وأقول عجيب ـ لأنه مصطنع، إذا أن إمكانات العالم الإسلامي من الضخامة بمكان أن تجعل المواطن المسلم يعيش في أعلى مستويات المعيشة!

والأمة الإسلامية تعاني اتحاد الأعداء على اختلافهم في مواجهتها، اليوم تطعن أميركا لتطعننا روسيا غدًا، لتطعننا الصين بعد غد، لتطعننا أوروبا بعد بعد غد، وهكذا دواليك، وعصبة شريفة طاهرة من هذه الأمة قال فيها ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**». [مسلم في الإمارة (١٩٢٠)].

تصيح بشعوبها بأن تعود إلى الإسلام إذ أنها ترى في الإسلام بريق الأمل المتجدد الذي سيمكنهم بإذن ربهم من قصور واشنطن، وقصور موسكو، وقصور بكين، وقصور العالم الغربي!

في الحين الذي يتغامز فيه منافقو هذه الأيام وهم يهمس بعضهم في آذان بعض: يعدوننا بهذا وقد استولى الغرب والشرق بكتلتيه على الفضاء الخارجي بعدما استولى على البر والبحر!

وتتعالى ضحكاتهم كلما ارتكسوا في شِباك العمالة المنصوبة من قِبَل الشرق والغرب، وما فعل المنافقون أيام رسول الله ﷺ ما فعلوه، وما قالوا ما قالوه إلا لضعف يقينهم بالله رب السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى!

وما يفعل منافقو هذه الأيام ما يفعلونه، ولا يقولون ما يقولونه، إلا لنفس السبب وإن صلوا وصاموا وزعموا أنهم حماة الدين وأولياء المؤمنين!». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٣٩-٢٤٣].

١٧ ـ لمحات من آيات الله التي أيد بها رسوله ﷺ في غزوة الأحزاب:

يقول الشيخ عرجون: «وقد كان في هذه الغزوة من آيات الله ومعجزاته الكونية أمور كثيرة، أكرم الله بها نبيه ﷺ، ولو لم يكن فيها إلا ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم مما لا يمكن أن يحوم حول حماه شيء من الشك من إرسال الريح والجنود، وما صنعت بجموع الشرك والوثنية، من جموع الأحزاب، وإلا ما روي في أصح الصحيح من أحاديث تكثير الطعام القليل وكفايته العدد الكثير حتى أشبعهم وانحرفوا عنه وهو كما وُضع، وإلا ما في الصحيح من أحاديث الكدية التي عرضت في حفر الخندق، فنزل إليها النبي ﷺ بالمِعْول وهو معصوب البطن بحجر من شدة الجوع، فضربها فصارت رمالًا سيَّالة، وإلا ما في حديث سلمان ﷺ والبرقات التي برقت حين ضرب ﷺ الصخرة فرأى على ضوئها ﷺ ما يُفتح على أمته،

فصدَّقه الله وفتح ما فتح من البلاد التي وطَّد الله فيها ملك الأمة الإسلامية، وصارت بعد الوثنية أوطانًا للإسلام وهدايته؛ ولهذا كانت هذه الغزوة جديرة باسم غزوة الإعجاز الكوني والمعجزات الحسية والعقلية.

كما كان فيها من معالم منهج الرسالة ما سجلناه في أحداثها ووقائعها، ونبهنا عليه في آياتها حتى كانت غزوة جامعة لدروس الكفاح المرير، والنضال الخطير، والصبر على لأواء الحياة ومحنها، إلى جانب ما اشتملت عليه من فضل الله بإمداده نبيه ﷺ بنفحات المنن الكونية التي أنزلها حين استحكمت الخطوب، واكفهرت الكروب، ففرَّج بها مضائق البلاء والمحن، وقشع بريحها سحائب الكوارث، وختمها بتلطفه الذي مسح به عن صدور المؤمنين ما ألم بها من الهواجس والظنون، فعادوا أصفى بصائر وأصلب عزائم، وأرسخ إيمانًا وأعمق يقينًا، وأخلص نيات، وهم ينظرون إلى المستقبل بقلوب مشرقة وأفئدة منيرة، يرجون من الله تعالى ما وعدهم على لسان رسوله ﷺ في بشراه لهم بقوله: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا**».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٠٢].

١٨ ـ المعجزات ودلائل النبوة:

يقول د/ رزق الله: «إن مجموعة المعجزات التي أجرها الله ﷻ على يد نبيه محمد ﷺ أيام الخندق، سواء التي كانت في حفر الخندق، أو تكثير طعيم جابر ﷺ، أو الرياح التي كانت نقمة على المشركين، لهي مجموعة أخرى في سلسلة المعجزات الكثيرة التي أيد الله بها نبيه؛ ليقطع الحجة لدى المعاندين من المنافقين والمشركين وكل صنف من أصناف أعداء الدين». [السيرة النبوية لرزق الله ٤٥٧].

ويقول د/ زين السيد: «إن الله ﷻ مانح رسوله ﷺ الكثير من المفوضات الإلهية في جميع الأوقات ومختلف الظروف لينزل السكينة على قلوب المؤمنين ويثبت النفوس الحائرة ويزيد المؤمنين إيمانًا ويقينًا، وفي وقت حفر الخندق وقد بلغ الجهد من المسلمين مبلغه، ظهر الكثير من خوارق العبادات على يد رسول الله ﷺ ليبعث في نفوس المؤمنين الأمل بتأييد الله تعالى له وعنايته بهم، وهنا ارتفعت الروح المعنوية بينهم، وعلموا أن الله ﷻ ناصر رسوله ﷺ.

وتاريخ العالم كله لا يعرف مثلًا واحدًا يشبه ما كانت عليه ثقة أتباع الرسول ﷺ به».

[دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٥٧].

ويقول د/ الحميدي: «في هذه الأخبار عبر عظيمة فيما جرى لرسول الله ﷺ من المعجزات.

فالمعجزة الأولى في تكثير الطعام بين يديه ﷺ قد جاء ذلك في حديث جابر ﷺ عند البخاري حيث دعا رسول الله ﷺ ورجلًا أو رجلين على طعامه فأكل منه أهل الخندق وهم عدة مئات، وكذلك في حديث ابن عباس ﷺ عند الطبراني، وأبلغ من ذلك ما جاء في حديث ابنة بشير بن سعد عند ابن

إسحاق حيث شبع أهل الخندق من تمرات لم يملأن كفَّي رسول الله ﷺ، وذلك مما أنزل تعالى في الطعام من البركة على يد رسوله ﷺ.

أما المعجزة الثانية ففي تليين الحجر لرسول الله ﷺ وانكساره بين يديه، ثم في إخباره ﷺ عما سيكون في المستقبل من فتح الشام وبلاد فارس واليمن.

وإن في ظهور هذه المعجزات على يدي رسول الله ﷺ ـ والمسلمون في تلك الحال الحرجة التي ابتُلي فيها المؤمنون وزُلزلوا زلزالًا شديدًا ـ حِكَمًا عظيمة، حيث قوَّى الله تعالى بها قلوب المؤمنين ورسَّخ إيمانهم حتى أيقنوا بأن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم، ليس في تلك المعركة وحدها وإنما في المعارك القادمة أيضًا حتى ينتشر دين الله تعالى، وتكون كلمته هي العليا.

كما أن في هذه المعجزات تبكيتًا للمنافقين واليهود الذين أرجفوا بالمؤمنين وخذَّلوهم، فإن أي عاقل يرى هذه المعجزات يُسلِّم بنبوة رسول الله ﷺ وأن الله ـ تعالى ـ معه بنصره وتأييده».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١١٣-١١٤].

ويقول د/ البوطي: «وأما المعجزة الخارقة في هذه القصة: فهي ما رأيتَ من انقلاب شاة جابر الضعيفة إلى طعام وفير كثير، شبع منه مئات الصحابة، وبقيت منه بقية كثيرة تركوها بعد أن أقترح النبي ﷺ على أهل البيت أن يتصدقوا بها!... لقد كانت هذه الخارقة العجيبة لرسول الله ﷺ تقديرًا إلهيًّا لمدى محبته ﷺ لأصحابه وإعراضه عن الأسباب المادية وشأنها في جنب قدرة الله وسلطانه.

والذي أريده من القارئ أن ينتبه بفكره إلى مثل هذه المؤيدات الإلهية التي كان يؤيد بها النبي ﷺ من وراء قيمة الأسباب المادية وسلطانها، فهي من أهم ما يبرز معالم شخصيته النبوية للدارس المتأمل، أريد من القارئ أن ينتبه بفكره إلى هذه الحقيقة، بمقدار ما يمعن بعضهم في الإعراض عنها، وإن قابلتهم وجهًا لوجه أثناء البحث، بأدلة ثابتة لا تقبل الشك». [فقه السيرة للبوطي ٢٣٣].

ومن المعجزات إخبار الرسول ﷺ بفتح اليمن وفارس والروم:

يقول د/ أبو فارس: «في جو من القلق والبرد الشديد والريح الهائجة، والنفوس المضطربة يعلن رسول الله ﷺ بأنه سيفتح الله على المسلمين بلاد فارس والشام واليمن، ويُقسم الرسول ﷺ أنه رأى بعد كل ضرب قصور تلك البلاد.

إنه يخبر عن أمر في ظاهر الغيب في وقت لم يطمئن المسلمون على أنفسهم، وإذا بهذا الأمر قد تحقق فعلًا، ألا يدل ذلك على نبوة سيدنا محمد ﷺ.

نعم لقد تحقق هذا الأمر الغيبي على يد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين بشَّرهم بهذا، ففتح الله على يديهم بلاد فارس وقصورها، وبلاد الشام وقصورها، وصنعاء وقصورها».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٠].

ويقول د/ أبو شهبة: «وقد صدَّق الله نبوءة نبيه، فكانت معجزة ظاهرة من معجزات النبي ﷺ، إذ لم يمض على هذه الحادثة إلا نحو ربع قرن حتى فُتحت هذه البلاد كلها، ودخلت تحت لواء الإسلام، ولذلك كان أبو هريرة ﷺ يقول حين فتحت هذه الأمصار: **افْتَتِحُوا مَا بَدَا لَكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ مَا افْتَتَحْتُمْ مِنْ مَدِينَةٍ وَلَا تَفْتَتِحُونَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَى اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مَفَاتِيحَهَا قَبْلَ ذَلِكَ**. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٩].

وكنت أحب من المنكرين لنبوة سيدنا محمد ﷺ أن يتأملوا في هذه النبوءات التي صدَّقها الزمن، مع أنها قيلت في ظروف وملابسات ما كانت تشجع عليها، فإن أشد الناس تفاؤلًا ما كان يجول بخاطره أن يقول هذا، أو يفكر فيه، اللهم إلا أن يكون نبيًّا يوحى إليه.

ولا جائز لقائل أن يقول: لعلها رمية من غير رام فأصابت، لأنا نقول: إن تاريخ حياته ﷺ، وما عُرف عنه من الاتئاد والتروي في الأمور، وعدم المجازفة في القول، والبصر بالعواقب ونحو ذلك ما أقر به الأعداء والأصدقاء يرد هذا الجواز، ويبعده، فلم يبلق إلا أنها نبوءات صادقة من نبوءات الوحي، فاعتبروا يا أولي الأبصار!». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٧٩-٢٨٠].

ويقول الشيخ الصوياني: «معجزات تزيد الطاقة والإيمان، قدَّمها ﷺ لمن يحفرون الخندق، تلك المعجزات تفتح أبوابًا جديدة من الفرح والفرج للمؤمنين، وكأن ذلك الخندق ممر إلى الدنيا بأسرها، والمعاناة في حفره معاناة ولادة النور وانتشاره، أما بالنسبة للمنافقين، فكان ذلك الخندق طوقًا يخنقهم، هم كالكلاب ينتظرون من يمسك بطرف السلسلة ليتبعوه وهم يهزون أذيالهم منقادين أذلَّاء، كانت المعجزات تغيظهم وتدفعهم إلى مزيد من العناد والمكابرة، لكن أشد ما أغاظهم عند حفر الخندق هو تلك المعجزة التي لهج بها ﷺ ليس لمن يحفرون الخندق فقط، بل لأبنائهم ولمن بعد أبنائهم، ففي الوقت الذي يرتجف فيه المنافقون من الهلع، كان ﷺ يستبشر ويبشِّر بفتح فارس والروم واليمن.

يعد أصحابه بذلك وهو يضع الحجر على بطنه من الجوع، يقول ذلك لأصحابه وهو يحفر خندقًا يدافع به عن دولته الصغيرة التي لا تتجاوز حدودها حدود هذا الخندق، يبشِّرهم وهم جياع، بكنوز فارس والروم وقصور اليمن؛ لأنه نبي، ولأنها حقيقة قادمة كشمس الغد». [السيرة النبوية للصوياني ٣/ ٩٢-٩٣، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب١٣٢-١٥٤].

١٩ ـ الكفاءة والمعجزة:

يقول أ/ حوى: «في هذه الغزوة تظهر لك الكفاءة النبوية العالية، وتظهر المعجزات الخارقات، والمعجزات والكمالات هما النبوة والرسالة، وكثيرون من الناس وهم يتحدثون عن محمد ﷺ لا يُحسنون العرض المتكامل، فهم إما يبرزون الكفاءة على حساب المعجزة، وإما يظهرون المعجزة على حساب

الكفاءة، مع أن الكفاءة والمعجزة توأمان في حق الأنبياء جميعًا، وذلك كله مظهر الحكمة الربانية في اختيار الرسل، ومظهر التأييد الرباني للرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم بين توفيق وتأييد معجز أو سببي، ولكن يبقى لعالم الأسباب في حياة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ محله العريض؛ لأن الأصل في التكليف ليس الخارق وإنما هو عالم الأسباب، والرسل هم القدوة، والناس عامة محكومون بعالم الأسباب؛ ولذلك فأنت عندما تدرس المعجزات التي حدثت في هذه المرحلة لا تجدها تؤثر على قضايا الاقتداء المرتبطة بعالم الأسباب، بمعنى أن ما حدث في هذه الغزوة يمكن إدخاله في دائرة التفكير والتدبير والاستعانة بالله أولًا وأخيرًا، وبعضه لرسول الله ﷺ معجزة خاصة، وبعضه معجزة لرسول الله ﷺ ويمكن أن تطلبه من الله، وفضل الله واسع، مثال ذلك: تكثر الطعام القليل هو لرسول الله ﷺ معجزة، ونحن علينا أن ندبر الطعام لجندنا وهذا جزء من القدوة، والريح كانت معجزة لرسول الله ﷺ، ونحن ندعو الله أن يؤيدنا بما لا نحتسب، وفضل الله واسع». [الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٦٩٩-٧٠٠].

٢٠ ـ تحديد مهمة الرسالة الإسلامية:

يقول د/ أبو فارس: «ومن كلام الرسول ﷺ لأصحابه تلمس تبشيرهم بالنصر في معركة الأحزاب وغيرها وأن العاقبة ستكون للمسلمين، إن الأحزاب لا تعدل شيئًا بالنسبة لدولة فارس ودولة الروم، والله ﷻ سيَمُنُّ على المسلمين بفتحها على أيديهم، ألا فليطمئن المسلمون إلى نصر الله ووعده.

إنه أسلوب رائع في رفع معنويات المقاتلين، وفي نفس الوقت هو تحديد للرسالة التي يحملونها، إنها رسالة تحريرية، ليس تحرير الجزيرة العربية فحسب، وإن كانت لم تتحرر حتى تلك الساعة، إن رسالتهم هي تحرير الإنسان فوق كل أرض وتحت كل سماء، تحرير الإنسان الفارسي، تحرير الإنسان الرومي، تحرير الإنسان العربي، تحرير الإنسان من كل مكان». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٠-١١١].

٢١ ـ ثقة المؤمن بربه:

يقول د/ أبو فارس: «أرأيت إلى قول رسول ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**».

نعم الحالة عسيرة والكرب شديد، ورغم هذا فليس هذا الذي ذكر على الله بعزيز، إن المدائن عاصمة أكبر دولة في العالم، دولة الفرس، والشام تقع تحت سلطان دولة من أعظم دول العالم، دولة الروم.

إن المسلمين في نفس الوقت من حصار شديد ومن ابتلاء عظيم، تشن عليهم حملات الإبادة، دماؤهم مهدورة، حياتهم مهددة، ومع هذا كله لم يساور الشك أحدًا من المسلمين بهذا النصر، إنها الثقة المطلقة

بالله وعظمته وقدرته وجبروته التي ينبغي على الداعية المسلم أن يستشعرها وألا تغيب عن ذهنه مهما كانت الظروف والأحوال.

إن كاتب هذه الأسطر ليؤمن إيمانًا راسخًا لا يتزعزع، رغم الظروف القاسية الصعبة التي يعانيها المسلمون، أن هذا الدين سينتصر، وستعلو رايته خفاقة على ربوع العالمين، ليس عنده أثاره من شك في ذلك، وأن المستضعفين سيتولون قيادة البشرية من جديد وأن القصر الأبيض والكرملين سترفرف عليها وعلى غيرهما راية الإسلام. هذا ما يؤمن به ويعمل له ويحيى له، ويموت عليه.

إن على الدعاة إلى الله أن يبشروا هذه الأمة بالنصر، ويبثوا فيها الأمل ويحيوها به، إن النصر لآت بإذن الله، ويسألونك متى هو قل عسى أن يكون قريبًا.

فيا شباب الإسلام أعدوا أنفسكم لهذا اليوم الذي تتشرفون فيه بحمل راية الحق هداة مهديين، لا ظالمين ولا مستعمرين، تنيرون القلوب المظلمة، والنفوس الحزينة، وتُسعدون البشرية من جديد». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١١-١١٢، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٨٩-٩٧].

٢٢ ـ المسلمون اليوم بحاجة إلى الأمل:

يقول د/ أبو فارس: «المخرِّبون في هذه الأمة أولئك الذين يبثون اليأس في النفوس، ويجتثون الأمل من القلوب، هؤلاء هم الأعداء حقًّا، ينبغي علينا أن نعرفهم وأن نحذرهم.

المسلمون اليوم بحاجة إلى من يطرد اليأس من قلوبهم، والسآمة والملل من نفوسهم، وواجب الدعاة أن ينتبهوا لهذا ويربوا الأمة عليه، إن هذه الأمة ستسعد نفسها وتسعد البشرية الشقية من جديد إن هي ثابت إلى رشدها وطبقت شريعة ربها، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٢].

ويقول د/ الزيد: «في هذه الغزوة وقد أقبلت جيوش الأحزاب من كل جهة وبدأ المسلمون يحفرون الخندق يطوقون به المدينة كي لا يدخلها العدو، يأتي الرسول المصطفى ﷺ وينزل في الخندق؛ ليكسر صخرة اعترضت طريق الحفر ويضرب بيده الشريفة بالمعول تلك الصخرة ويقول للناس والجيوش مقبلة من كل صوب، لتحاصر المدينة: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**».

أيُّ تثبيت للقلوب الوجلة بعد هذا التثبيت، أي وعد للمؤمنين بعد هذا الوعد الصادق من المصطفى ﷺ، نعم هو رسول الله ﷺ، ولكن لماذا توقيت هذا الوعد ليقوله في هذا المكان؟ لماذا هذا التوقيت لهذا الوعد الصادق من الرسول ﷺ في هذه الشدة؟ والرسول ﷺ يواجه القبائل الزاحفة على المدينة يقول هذا القول! فتوقيتُه يحمل توجيهًا للأمة أن تركز على تثبيت القلوب وطمأنتها وإذهاب الفزع والخوف عنها في الشدائد.

إن الناس في الأزمات بحاجة إلى من يثبتهم، لا من يخوفهم، لا من يقول لها: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣]، ولا ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

إن الأمة بحاجة إلى مُثبِتين لا مثبطين ومرجفين، إن الأمة بحاجة إلى من يقوي ثقتها وإيمانها بربها ويرسخ عقيدتها ويشدها نحو دين الله». [فقه السيرة للزيد ٤٩٩-٥٠٠].

٢٣ ـ المأدبة الربانية:

يقول د/ أبو فارس: «إن هذا الطعام القليل الذي لا يكفي لنفر قليل يبارك الله فيه فيكفي ألفًا من صحابة رسول الله ﷺ قد عضهم الجوع بنابه، إن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الذي جرى على يديه هذا نبي مرسل مؤيَّد بالمعجزات الخارقة حتى يزداد الذين آمنوا إيمانًا».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٢٠].

ويقول د/ الغضبان: «إنه ﷺ الذي يعد المسلمين بكنوز كسرى وقيصر، والذين استبشروا بموعود رسول الله ﷺ لهم، هم الذي يرون على يديه هذه المعجزات الخالدة، حيث يكفي طعام النفر القليل دون العَشَرة إلى طعام ألف من أصحابه (**وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ** (تغلي ويسمع غليانها) **كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ**)، فهؤلاء أهل الله وأولياؤه، صبروا على الجوع ثلاثًا ما ذاقوا ذواقًا، فأعد الله ـ تعالى ـ لهم هذه المأدبة الربانية، والضيافة الإلهية على يد عبده ورسوله محمد ﷺ، يتقوون بها على طاعة الله، وعلى العمل الشاق الدؤوب في حفر الخندق: «... **يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ**...».

[مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)].

ويبقى الخير البشري الذي يحس فيه العبد المؤمن بشعور رسوله ﷺ، وقد أصابه الجوع، وربط بطنه بالحجر، فيقوم بمأدبة تتناسب مع محمد ﷺ وخاصة أصحابه ليعلنها رسول الله ﷺ على الملأ كله: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ! إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ لَكُمْ سُورًا فَحَيَّهَلًا بِكُمْ**».

إنه جابر بن عبد الله ابن الشهيد العظيم عبد الله بن عمرو بن حرام، وجابر لم ينس بعد ما صنع الله تعالى له بدَيْن أبيه، وما صنع له بجَمَله، يوم بارك الله به عنده حتى عاش أربعين عامًا ينعم ببركته.

ما أسعد هذا الجيل الذي شهد هذه المعجزات، فيصبح الإيمان في قلبه مثل الجبال الرواسي، ويرتبط به مصيره بمصير قائده وحبيبه، وإن أطفال هذا الجيل هم أسعد الناس، فما تنقل لنا تفصيلات المعجزة في الخندق، وتفصيل أخبارها إلا من أطفال هذا الجيل.

فهي عن جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، وعائشة أم المؤمنين، وأمثالهم ممن كانوا ينبتون المنبت الحسن بين أحضان النبوة وعبيرها، وبنت بشير بن سعد، وابن عباس، وابن عمر، ومعظم هؤلاء أتيح لهم أن يحضروا المعركة للمرة الأولى في الخندق، ويحدثونا بذاكرتهم الوقادة بما شهدوا ويشهدون من عظمة النبوة ومعجزاتها وخيراتها.

لقد كنا صغارًا وكان يسلب لُبَّنا خطيب مفوه، أو داعية مؤثر، فيسيطر على تفكيرنا وجوارحنا، فكيف بهذا الجيل أبنائه وشبابه ونسائه، وهم يرون سيد ولد آدم ﷺ بين ظهرانيهم يعلم جاهلهم، ويطعم جائعهم، ويمدهم بنور القرآن كل يوم بما يوحي الله تعالى إليه، يعمل معهم، ويحفر معهم، ويحمل التراب على كتفه، ويربط بطنه من الجوع، ثم يدعوهم إلى تميرات فإذا هن طعام لأهل الخندق، ويدعوهم إلى عناق وصاع من شعير، فإذا هو يشبع الألف من العاملين المجاهدين في حفر الخندق، كيف يعيش هذا الجيل بهذا النبي العظيم؟ وكيف يتلقى منه؟ وكيف يقتدي به؟ وكيف يتربى على يديه؟

إننا مهما تحدثنا عن هذا الجانب أو غيره فنحن أعجز من أن نصف، وأعجز من أن نحس، وأعجز من أن نسعد.

إنما نحاول أن نلتمس وأن نعرف وهيهات هيهات:

إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ كَمَا مَثَّلَ النُّجُومَ المَاءُ».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٨-٢٩، ٣٠].

٢٤ ـ نظر وبحث في آية التأسي به ﷺ:

يقول الشيخ عرجون: «جرت أحداث هذه الغزوة الممحِّصة للإيمان في طريق منهج الرسالة الخالدة رسالة الإسلام واضعة الخطوط القيادية التي أدار بها رسول الله ﷺ الموقف في إطار السياسة الحكيمة التي كَتبت دروسها التربوية أقلام الكفاح المرير، والنضال الخطير، والصبر على ما لا يُطاق من الشدائد والأزمات، واحتمال نوازل البلاء بجَلَد لا يَعرف الاستسلام، مع العمل الدؤوب البالغ في مشقته مبلغ الاستحالة البشرية، ولكن رعاية الله وعنايته هما اللتان ألقتا في قلوبهم مغالبة الحياة وأزماتها وشدائدها، وهما اللتان أمدتاهم بالمدد الروحي الذي أذاب في بؤرة إيمانهم كل محنة، وقهر كل بلاء وكارثة، فصبروا وصابروا واحتملوا، ورأوا في رسول الله ﷺ أعظم الأسوة، وهو معهم يشاركهم مشاركة فعلية مشقة العمل وشدائد المحن، وكان ﷺ يواسيهم بنفسه، فهو يجوع أشد مما جاعوا، ويعمل أكثر مما عملوا، ينقل

التراب حتى يغمر جلدة بطنه، إذا اشتدت عليهم في حفر الخندق صخرة نزل إليها، وما يزال بها يضربها بالمعول حتى تتزايل فتصبح كثيبًا أَهْيَل، وهو عاصب بطنه بحجر من شدة الجوع.

ولهذا وغيره كانت هذه الغزوة المليئة بالآيات والمعجزات متنزلًا لآية التأسي به ﷺ، فقال تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

فهذا تحريض للمجتمع المسلم في جميع أجياله، وأزمانه وأوطانه، على التسامي بأنفسهم وأخلاقهم وقوة إيمانهم ورسوخ يقينهم إلى آفاق البطولة الروحية والمادية التي تتطلبها المكانة القيادية الإنسانية التي نيطت بهذا المجتمع المسلم.

وهو تحريض لهذا المجتمع على الاعتصام بعظائم الأمور، وإعداد أقرانها لها، مهما تكن محفوفة بمخاطر المحن وشدائد البلاء.

وهو تحريض للمجتمع المسلم أينما كان وجوده من أرض الله على أن يتخذ من الصبر وقاية يتقي بها مزالق الهزاهز أمام أحداث الحياة كيفما كانت شكولها ومضائقها.

وحظ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من هذه الأسوة أن الله أشهدهم بذواتهم أعمال رسول الله ﷺ، وهي تجري على يديه حركات دائبة في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى الإنسانية في أرجاء الحياة.

أما حظ مَنْ جاء بعدهم من أجيال المجتمع المسلم فهو حظ الحارس الأمين في الحفاظ على ما أُسندت إليه أمانة حفظه، وحراسته بمثل ما كان عليه مَنْ سلَّموا له الأمانة من العمل في الدفاع عن هذه الأمانة، وتبليغها ونشرها في الآفاق.

ولا يكون المؤمن أمينًا على القيام بحفظ أمانته إلا إذا علم قدرها، وعرف كيف يؤديها كما أُدِّيت إليه.

وأسلوب الآية الكريمة يجعل من ذات رسول الله ﷺ بوصفه رسولًا من الله نفس الأسوة لمجتمعه المسلم، فهو ﷺ بوصف أنه رسول الله ﷺ هو نفس الأسوة، فكل عمل من أعمال رسالته هو موضع للتأسي به، يجب على كل فرد من أفراد مجتمعه وأمته أن يتخذ هذا العمل أسوة له بقدر استعداده الفطري واستطاعته المكتسبة.

وهذه مبالغة قصد بها إفادة أن جميع ما يصدر عنه ﷺ إنما يصدر عنه بوصفه رسول الله، وهذا الوصف موجب لمتابعته في جميع ما يثبت عنه من الأقوال والأفعال على محاملها.

فرسالته ﷺ هي منبع التأسي به، وهذا المنبع موحد الإمداد بكل ما يكون فيه التأسي والاقتداء، وفي هذا غُنْية عن الحديث عن الخصائص البشرية التي مُنحها ﷺ فاختص بها واختصت به؛ لأن أمر هذه الخصائص خارج عن التقيُّد بوصف الرسالة إلا باعتبارها مخبرة عنه؛ لأن الأصل عموم التأسي، وهذا كالاستثناء المخصص للعموم.

نكتة بيانية في آية التأسي من متعلقات الإعجاز الأسلوبي: وفي الآية نكتة بيانية من متعلقات الإعجاز القرآني في هدايته وروعة أسلوبه، وهذه النكتة تعطي معنى التأسي به ﷺ صورة من قوة الإيمان ورسوخ اليقين في متابعته ﷺ تجعلها لباب الإيمان وزبدة الإخلاص.

وتلمح هذه النكتة في قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ بعد قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ الذي هو في مطلق معناه عين ما جاء بعده في إجمال هذا المعنى.

بيد أن قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ ربط تأسيهم بزبدة الإخلاص الذي هو مرتبة فوق مرتبة قوة الإيمان.

فإذا كان التأسي بالنسبة لصادقي الإيمان الذي صعد بهم إيمانهم إلى ذروة الإخاء كافيًا أن يقال فيه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ باعتبار عودة ضمير الخطاب إلى صادقي الإيمان، فإنه بالنسبة لعامة الأمة ممن لم يصل إيمانهم إلى درجة الإخلاص علمًا وعملًا غير كاف أن يقال فيه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ بل هو في حاجة إلى حياطته بشيء من التوثيق في داخل نفوسهم بشيء من الربط بما هو غيب لا يعرف مكان الإيمان منه، وليس ذلك إلا رجاء فضل الله ورحمته، ورجاء تفضله وإحسانه على كل مؤمن لقيه بعقيدة الإيمان، والرجاء مرتبة بين الإخلاص والإيمان.

ولهذا عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾؛ لأن كثرة ذكر الله هي العروة الوثقى في الربط بين الإيمان، ورجاء فضل الله وإحسانه في اليوم الآخر». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٩٨-٢٠٠].

٢٥ ـ خطورة المنافقين وكفرهم:

يقول الشيخ الصوياني: «هؤلاء المنافقون هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢].

أمرُ هؤلاء المنافقين محير ومزعج، لا تدري ماذا يريدون، ولا ما هو مبدأهم ولا هدفهم، ولا تستطيع تمييزهم بسهولة.

الكفر مرض والنفاق مرض، وجسد الدولة الإسلامية يستطيع الاحتياط والوقاية من مرض الكفر، لكن عندما يتسلل هذا المرض إلى الداخل، تبدأ رحلة طويلة ومريرة من العلاج وتناول الأدوية والعقاقير للقضاء عليه.

وفي غزوة الخندق كانت الدولة الإسلامية تحتاط بالخندق من الوثنيين، لكن من الصعب القضاء عليهم وهم يتظاهرون بالإيمان، لا سيما في هذا الوقت الذي انتهى ﷺ وأصحابه ﷺ من حفر الخندق، ووصل فيه أحزاب الأصنام إلى مشارف المدينة، وعسكروا أمام الخندق، وبدأ حصار قاسٍ

وشديد على المدينة، عندها بدأ المنافقون يظهرون كالبثور الكريهة المتقيِّحة على جسد المدينة، في هذه الظروف الحرجة ظهر نفاقهم وكفرهم وحقدهم على النبي ﷺ والصحابة ﷺ، ومع ذلك كله تمتَّع ﷺ وأصحابه ﷺ بأكبر قدر من ضبط النفس، وعدم التهوُّر بإيقاع أي عقوبة على أولئك المنافقين، الذين فاحت خيانتهم من خلال كلماتهم، ونظراتهم، وحركاتهم التي كانت تفتقد إلى أقل معاني الرجولة والنخوة.

تأزَّم الوضع، وبدأ المنافقون بالتململ، فقد ضاقوا مما يجري، وبدأت الأزمات تكشف عن حقيقتهم، وأحرقت نار الحرب تلك القشرة التي يختبئ كفرهم تحتها.

فضحتهم الحرب، وفضحهم الله بآيات كالسيوف على رقابهم، بدأوا يقدمون التماساتهم وأعذارهم بعدم القدرة على الصمود نظرًا للخطر الذي قد يحدث لأهلهم وبيوتهم، بعد أن رأوا السهام كالمطر على جيش المؤمنين، انسحب المنافقون الواحد تلو الآخر؛ هربًا من المعركة، كان منظرهم يجلب الإحباط والغضب لدى المؤمنين لولا ثقتهم بنصر الله ووعده، اشتدَّ الأمر على المؤمنين، وضاقت بهم السُّبل في أيام تعصف بالجوع والبرد والموت.

أعداء في الخارج أعلى المدينة، ويهود أسفلها، ومنافقون في داخلها ينسحبون كالجرذان، ويطالبون المؤمنين بالاستسلام والتسليم للوثنيين.

أولئك هم المنافقون، وتلك هي سفالتهم وانحطاطهم، مات فيهم كل شيء، حتى بقايا صفات الخير التي كان العرب في الجاهلية يتفاخرون بها، حتى تلك، ماتت داخل نفوسهم المتعفنة، خنقها عفن النفاق وأجهز عليها، وها هو العفن يتطاير في أجواء المدينة، يحاول التسلل إلى عزائم المؤمنين ليخنقها؛ ليبعثر في جنباتها الإحباط، إنهم الآن بين نسائهم يأكلون ويشربون ويبخلون بطعامهم على أولئك الصامدين أمام الخندق، وليتهم اكتفوا بذلك، إنهم يطالبون أولئك الفرسان بالانسحاب والاستسلام؛ لأن المعركة في نظرهم محسومة، وأبو سفيان سيحتل المدينة غدًا إن لم يقم بذلك اليوم.

أولئك المنافقون نسوا كل شيء، نسوا أن المدينة مدينتهم، نسوا عهدهم مع الله ورسوله، نسوا بيعتهم لله ورسوله، نسوا وعدهم بالصمود معه ﷺ وأن لا يفرُّوا من المعركة مهما كانت النتائج، هذا ما بدا للجميع من هؤلاء الأنذال.

أمَّا ما خفي فإن الله كشفه بهذه الآيات [١٠-١٩ من سورة الأحزاب] التي غرفت ما بداخلهم، ونشرته للجميع، لقد شرَّحتهم الآيات وبيَّنت للناس أي سرطان يتمدد في المدينة، فضحهم الله وبيَّن أنهم جاهزون لإعلان الكفر حالما يرون جيوشه تقتحم الخندق والمدينة، لكنهم لا يستطيعون ذلك الآن،

فالنبي ﷺ لا يزال هو القائد، وخوفهم منه وخوفهم من الموت واضح في أعينهم التي تدور كما تدور أعين الذي يعاني سكرات الموت وشدة النزع، ويشتد دوران أعينهم أكثر ما يشتد الآن، فالخوف في كل مكان، والجوع في كل مكان، والبرد في كل مكان، والقتال يشتد». [السيرة النبوية للصوياني ٣/ ٩٤- ١٠١].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد كان موقف المنافقين في هذه الغزوة موقفًا قبيحًا، يدل على مرض قلوبهم وضعف نفوسهم، وخبث طويتهم، وسوء أخلاقهم ونواياهم، وحقدهم الذي يكتمونه في صدورهم، وإذا هو يظهر على ألسنتهم في ساعات الشدة، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.

١ ـ لقد كان المنافقون يكرهون أن يشاركوا المسلمين في حفر الخندق، رغم أنهم كانوا يتظاهرون بغير ذلك، إلا أن مواقفهم كانت تفضح نواياهم، فقد كانوا يهتبلون كل فرصة للهرب من الخندق بأسلوب مزر غير كريم، أشبه بأسلوب اللصوص الذين يتسللون خفية حتى لا يراهم أحد، قال تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور].

٢ ـ وقد لا تواتي هؤلاء المنافقين فرصة التسلل الخفي؛ لرؤية النبي ﷺ لهم، ولوجود المسلمين معهم، فحينئذ يبتكرون أسلوبًا آخر في الهروب، أسلوب الكذب وانتحال الأعذار الكاذبة ليأذن لهم رسول الله ﷺ بالغياب عن الخندق، وعدم المشاركة في حفره.

ومن صور ذلك ما ذكره ابن جرير الطبري ﷺ في تفسيره عن أوس بن قيظي قوله: يا رسول الله، إن بيوتنا لعورة من العدو ـ وذلك عن ملأ من رجال قومه ـ فأْذَن لنا فلنرجع إلى دارنا».

[تفسير الطبري ٢١/ ١٣١].

وقد كشف الله ﷻ هذا وأمثاله، وفضح أسرارهم وهتك أستارهم وأظهر زيف ادعائهم، فأنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

إنهم يزعمون كذبًا وزورًا أن بيوتهم بعيدة، وبحاجة إلى حماية من العدو وهم أولى الناس بحمايتها والمرابطة فيها، هذا زعمهم، لكن الحقيقة غير هذا، إن الذي دفعهم هو الجبن والفرار من القتال إلى اتخاذ هذا الموقف، فهم جبناء أنذال قد سيطر عليهم الهلع والجزع والخوف حينما علموا بقوة الأحزاب وكثرة عددهم وعدتهم.

فهم إذن منهزمون من داخلهم، خوَّارون لا طاقة لهم بقتال عدو وملاقاته، إنهم أصحاب فتنة وكيد، قال الله ﷻ يكشف حقيقة نواياهم: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحزاب].

نعم إنهم لا همَّ لهم إلا الجري وراء الفتن وإيقاد نارها، وتشكيك أهل الحق بحقهم، إنهم يعملون جادين لانتصار أهل الشرك على أهل التوحيد، مع تظاهرهم بأنهم من أهل التوحيد، فهم لا قيمة لبيوتهم وأعراضهم عندهم في سبيل تحقيق غايتهم، وغايتهم القضاء على الإسلام وأهله.

قال أبو السعود في تفسيره: (لو كانت بيوتهم محتلة بالكلية، ودخلها كل من أراد من أهل الدعارة والفساد، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة، والرجفة الهائلة ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي الردة والرجعة إلى الكفر مكان ما سئلوا الآن من الإيمان والطاعة ﴿لَآتَوْهَا﴾ لأعطوها، غير مبالين بما دهاهم من الداهية الدهياء والغارة الشعواء، وقرئ (لأتوها) بالقصر ـ أي لفعلوها وجاؤوها، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ بالفتنة، أي: ما ألبثوها وما أخروها). [تفسير أبي السعود ٤/ ٤٠٦].

هذه الآية ترشدنا إلى أن المنافق لا يستطيع أن يخفي طبيعة النفاق عنده، وإن حاول ذلك، وموَّه متظاهرًا بحب الإسلام والطاعة للرسول ﷺ، فإنه لابد أن يكشف.

فهؤلاء قد عاهدوا الله ﷻ قبل الخندق على القتال في سبيله والثبات في الحرب، وقطعوا عهدًا على أنفسهم بذلك، على مسمع ومشهد من الرسول ﷺ والمسلمين، رياء ونفاقًا وطلبًا للجاه والسمعة، ولما جاء وقت التطبيق تولوا ونكصوا ونكسوا على رؤوسهم.

قال الله ﷻ يصف هؤلاء: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب].

ورد الله عليهم أن لا مفرَّ لهم ولا ملجأ من الموت، فهو ملاقيهم لا محالة، وإن الفرار من الموت ليس سبيلًا للنجاة منه قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب].

٣ ـ ومن صور النفاق التي حدثت في هذه الغزوة الشك في وعد الله ﷻ، ووعد رسوله ﷺ، والتشكيك فيهما، بل التكذيب، بأسلوب قبيح فيه من الاستهزاء والسخرية اللاذعة ما يدل على سوء نيتهم وخبث طويتهم، وفي هذا يحكي القرآن موقفهم بقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

لقد وقفوا هذا الموقف المشين، وفاحت ألسنتهم بهذا النتن حينما أخبر الرسول ﷺ وهو يفتت الصخرة التي اعترضت في الخندق بأن الله سينصرهم وسيفتح على أيديهم بلاد فارس والشام واليمن فقال المنافقون: (**ألا تعجبوا، يحدثكم ويمنيكم، ويمدكم الباطل، يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور**

الحيرة، ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق من الفرق، ولا تستطيعون أن تبرزوا)، فأنزل الله قوله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ الآية[الأحزاب: ١٢].

٤ـ **التثبيط عن القتال**: ولم يكتف المنافقون بالهرب من القتال، وعدم المشاركة في حفر الخندق والرباط فيه، بل أخذوا يثبطون المؤمنين عن القتال، ويشنون حربًا نفسية عليهم بأن لا قدرة لهم وهم قليلو العدد والعدة على مقاتلة جيوش الأحزاب الجرارة، فما عليهم إلا أن يستسلموا ويلقوا أسلحتهم.

وفي هذا تدمير للإسلام وللمسلمين، وهو الذي يرجونه ويسعون إليه.

هذا وقد أطلق عليهم القرآن اسمًا يناسب مقامهم وعملهم، فوصفهم بالمعوقين، قال سبحانه: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

قال قتادة: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحمًا لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا هذا الرجل فإنه هالك. [تفسير الطبري ٢١/ ١٣٩].

وروى ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره عن ابن زيد في قوله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ ﴾ إلى آخر الآية قال: هذا يوم الأحزاب، انصرف رجل من عند رسول الله ﷺ، فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ونبيذ، فقال له: أنت هاهنا في الشواء والرغيف والنبيذ، ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف؟ فقال: هلم إلى هذا، فقد بلغ بك وبصاحبك، والذي يُحلف به لا يستقبلها محمد أبدًا، فقال: كذبت والذي يُحلف به، قال: وكان أخاه من أبيه وأمه، أما والله لأخبرن النبي ﷺ أمرك، قال: وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، قال فوجده قد نزل جبرائيل عليه السلام بخبره. [تفسير الطبري ٢١/ ١٣٩]، ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾[الأحزاب].

٥ ـ ومن صفات المنافقين التي تحدثت عنها سورة الأحزاب البخل والشح، وعدم الإنفاق في سبيل الله، وإنهم لا يملكون إلا سلاطة اللسان يؤذون بها المؤمنين؛ لهذا كله فهم كفار حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[الأحزاب: ١٩].

وشُغلهم الشاغل الجري وراء الفتنة والسؤال عن أحوال المسلمين ونتائج حروبهم مع أعدائهم، لا على سبيل التعاطف والاهتمام والتوادد إنما على سبيل التوقع للمسلمين الهزيمة فيفرحون لما أساء المسلمين (الآية التي تحدثت عن هذا في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُۥنَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾[الأحزاب])، كما قال

تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة].

٦ـ والمنافقون بصفة عامة يتعاونون مع كل عدو للإسلام والمسلمين، بغض النظر عن دينه أو اعتقاده أو سلوكه أو عصبيته، إنهم يتخذون الكافرين أولياء يحبونهم ويناصرونهم على المسلمين، قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء].

ومع هذا فهم يتظاهرون بودهم للمسلمين، وحرصهم ظاهرًا على التقرب منهم حتى لا تفوتهم بعض المنافع التي يهدفون إلى تحقيقها والوصول إليها.

وما هذا إلا على سبيل المناورة وخداع المؤمنين، ولكن هذه الأساليب الخادعة لا تنطلي على المؤمنين الصادقين، الذين ينظرون بنور الله، ويستضيؤون بكتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ، ويستبصرون بسيرة رسول الله ﷺ مع هؤلاء وأمثالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٢٣-١٢٨].

٢٦ ـ ينشط النفاق في النوائب والأزمات:

يقول د/ فيض الله: «عرضتْ الفرصة للمنافقين حين ابتلي المؤمنون وزلزلوا، واشتد عليهم الكرب، واستبد بهم الهول، فأخذوا ضروبًا من الأساليب لإضعاف المسلمين، وتخذيلهم في هذه الحرب، إذ كانت حرب أعصاب:

(١) ففريق منهم، انطلقوا يتهكمون بالمسلمين، ويسخرون منهم، وعلى التخصيص بعد حديث الصخرة التي فَتَّتْها يد النبوة، والآمال التي عَلَّقَتْ بها قلوب المؤمنين، والفتوح التي وُعِدُوا بها، حتى قال أحدهم: يعدكم بكنوز قصرى وقيصر، وأحدكم لا يَأْمَنُ على نفسه أن يذهب إلى الغائط، فهؤلاء الذين عناهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

(٢) وفريق آخر حرَّض المسلمين على ترك الصفوف: فمقامهم هنا غير حميد، ورباطهم غير مفيد، والعاقبة مجهولة، وبيوتهم غير محمية، وفيها ذراريهم ونساؤهم، وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣].

(٣) وفريق ثالث، استأذن النبي ﷺ صراحةً في العودة إلى ديارهم، بحجة أنها مكشوفة، يبغون حمايتها من العدو المهاجِم، والخطر الجامح، وقد كشف القرآن خُبثهم ومكرهم بصراحة، ولما هَمَّ رسول

الله ﷺ أن يأذن لهم، قال له سعد بن معاذ ﷺ: «**يا رسول الله، لا تأذن لهم، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا**»، فلم يأذن لهم ﷺ.

وفي هذا الفريق يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وتابَعَ القرآن مواجهتهم، فوصفهم بضعف العقيدة، والاستعداد التام للرِّدة والفتنة، عند أيسر طلب، ووصفهم بنقض العهد، الذي قطعوه على أنفسهم أمام الله، أن لا يفروا من الزحف يوم أُحُد، وهم اليوم يخلفون ما عاهدوا الله عليه، ويفرون من القتل والموت، وهما من قَدَرِ الله الذي لا مفر منه، والذي لا يتقدم ولا يتأخر، ولا ينفع الفرار من القَدَر المحتوم المكتوب المحدد.

(٤) وفريق رابع لاذ بالفرار، دون استئذان من النبي ﷺ في هذا الظرف الحرج، والهول المذعر، والمؤمنون معه على هذا الأمر الجامع، فنصت عليهم آيات في آخر سورة النور، ونفت عنهم صفة المؤمنين في هذه المناسبات، وهي الاستئذان، وصرحت بأنه عليم بتسللهم، ومخالفة أمر النبوة، وأوعدتهم بالفتنة في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة.

إن هذه المواقف المريبة، في هذه الظروف العصيبة التي تنذر بالإسلام والمسلمين، وفي الشدائد المرهقة المرهبة، كانت دأب المنافقين، ولا ريب أن المؤمن لا يقف مثلها، ولا تخطر منه ببال، وكان القرآن يغض النظر عنهم، في بدء الإسلام، والمسلمون ضعاف، والدعوة في المهد، فلما قوي المسلمون، وأطلت الدعوة على الجزيرة، واكتسحت المناوئين، عمد القرآن إلى كشفهم في كل مناسبة، فقد طال الزمن، وكثرت التجارب، وعُرفت الأعذار.

فليتعرف المسلمون المنافقين من خلال مواقفهم في الشدائد، وليصنفوا أصدقاءهم الأوفياء، والمنافقين في الصداقة، عند اشتداد الأزمات، فإنها المَحَكُّ الذي يُجَلِّي الحقائق، ويميز الأوفياء من المتهزين».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٣١-٢٣٢].

٢٧ـ الشدائد والمحن تكشف عوار المنافقين:

يقول د/ الفنيسان: «لما اشتد الحصار على المؤمنين وتكالبت عليهم الأعداء من كل جانب كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب]، في هذا الموقف الضيق والحرج انطلق المنافقون بين صفوف المسلمين يَسخرون ويشمتون بالرسول ﷺ، يقولون: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدُنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا.

فهم لا يعيشون إلا في الجو الملوث والماء العكر، كالخفافيش لا تتحرك إلا في الظلام».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٢].

ويقول د/ الحميدي: «وإننا حينما نقارن بين موقف المؤمنين وموقف المنافقين في هذا الخبر نعرف كيف أن الإسلام ينتقي أزكى العناصر البشرية فيصبُّها في قالب جماعة المسلمين حيث ينتُج عنها بعد ذلك العجائب مما يذهل أصحاب الفكر المتأمل والعقل المتبصر، سواء في مجال السلم حيث تقوم بعمران الأرض على قدم وساق، وهي تُتوِّج أعمالها بنشر العدل بين الناس والرحمة بالضعفاء، أو في مجال الحرب حيث تبذل الغالي والنفيس في سبيل خدمة مبادئها السامية التي تخضع لها عقول أعدائها قبل أن تخضع لها رقابهم، وهذه الجماعة مع ذلك لا تقاوم أعداءها الذين صرحوا بعدائها فقط وإنما تقاوم أيضًا المنافقين الذين يُظهرون الولاء لها وهم يكيدون لها من داخلها بمختلف أنواع الكيد.

فهؤلاء المنافقون الذين في عهد رسول الله ﷺ يتسللون من الخدمة مع جماعة المؤمنين في أمر مهم وخطير يتوقف عليه أمن هذه الجماعة التي أظهر هؤلاء المنافقون انضمامهم لها والإيمان بمبادئها، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أن يكونوا كهؤلاء المنافقين الذين يستهينون بأمر النبي ﷺ فيجعلون نداء الرسول ﷺ إياهم وتكليفهم بالعمل كنداء بعضهم بعضًا، بيد أن أمر النبي ﷺ أمر إلهي لا خيار للمسلم فيه ولا يجوز التردد في تنفيذه». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠٩-١١٠].

ويقول د/ الزيد: «في الأمور الجدية يظهر وينكشف المنافقون، ذلك أن حفر الخندق مع شدة الجوع وإقبال العدو والخوف على الذراري أمر لا يقدم عليه إلا الصادق، أما ما عدا ذلك فيتسللون إلى أهليهم ويتركون الرسول ﷺ، والله ﷻ يقول: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]». [فقه السيرة للزيد ٥٠٠-٥٠١].

٢٨ ـ النفاق ظاهرة تتكرر في كل مجتمع:

يقول د/ أبو فارس: «ليست ظاهرة النفاق خاصة بفترة زمنية معينة، مضت وانقضت فليست محصورة مثلًا بعهد الرسول ﷺ، وانتهت بانتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وإنما هي ظاهرة تتكرر في كل مجتمع، وفي كل جماعة، وتستمر استمرار الحياة على وجه البسيطة، وتدوم دوام الصراع بين الحق والباطل، إذ الصراع يفرز أهل الحق أولياء الرحمن ويميزهم من غيرهم، أولياء الشيطان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء].

والنفاق صفة ذميمة في صاحبها يبطن في نفسه الكفر، ويتظاهر بالإيمان والإسلام ابتغاء مصلحة يريد تحقيقها، ومنفعة يرجوها، وهذا الصنف من الناس لا يتقن المواجهة، لضعف عزيمته أو خور في نفسه،

فيسلك طريقًا آخر للنيل من أهل الحق من المؤمنين، وهو طريق الطعن من الخلف مع التظاهر بالإسلام، ويحدث هذا عندما تكون الجماعة المؤمنة قوية وصرح المجتمع الإسلامي شامخًا عاليًا متماسكًا، والأمة الإسلامية خير أمة أُخرجت للناس.

ولكن هذه الخصلة لا تلبث أن تظهر بسرعة فائقة إذا ألمت بالجماعة المؤمنة محنة أو اعترضت سبيلها عقبات كأداء.

وما الابتلاء الذي يمن الله به على عباده المؤمنين إلا يهدف إلى تمحيص الصف المؤمن، وتنقيته من الأجسام الغريبة التي انضمت إليه.

هذا هو الهدف من الابتلاء، كما جاء في كثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤ ﴾ [البقرة]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٢٨-١٣٠].

٢٩ ـ الدعاء في الشدائد:

يقول د/ أبو فارس: «قوله ﷺ:

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

درس للدعاة في كل زمان ومكان أن يهرعوا إلى الله في كل وقت لاسيما وقت الشدة، ووقت القتال ومجادلة الأبطال.

إن المسلم يلح على الله في الدعاء بأن يثبت قلبه على الإيمان في وجه الشيطان، ويلح على الله بالدعاء بأن يثبت الأقدام إذا لاقى عدوه، فلا يفر فيستحق غضب الله تبارك وتعالى». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٦، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ١٠٦-١١٩].

المبحث الثاني
الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ الحكمة ضالة المؤمن:

يقول أ/ وجدي: «لما أشار سلمان الفارسي ﷺ على رسول الله ﷺ بحفر الخندق، لم يتردد في الأخذ برأيه، فأمر بحفره وساعد فيه بنفسه، فضرب أكمل الأمثال للتعاون الفعلي بين القيادة العليا والجيش، وهو عمل خطير لم يسبق إليه، وخطورته تبدو من ناحية أدبية أخرى وهو عدم التورع من الأخذ بما ثبت نفعه ولو نقلًا عن المشركين.

وهو من ناحية ثانية يسوِّغ التجديد بل يحتمه ما دامت حاجة الجماعة تستدعيه.

وقد سار أصحاب النبي ﷺ وجميع من جاؤوا بعدهم على هذا السمت، فنقلوا كل ما رأوه من الأمور النافعة في هذه الجماعات التي احتكوا بها، ولم يدعوا العلوم والفلسفة حتى ما كان منها مهجورًا في بطون الكتب الأجنبية، فكلَّفوا بها يهودًا ونصارى ومجوسًا من عرفة اللغات قاموا بترجمتها وإذاعتها؛ فكان ذلك سببًا في تخويل المسلمين زعامة العلم والمدنية في الأرض قرونًا طويلة، وفي الإكبار والإعجاب الذي يحيط به المؤرخون العالميون تاريخهم الحافل بعظائم الأمور». [السيرة المحمدية لوجدي ٢٢٢-٢٢٣].

ويقول د/ السباعي: «وفي قبوله ﷺ إشارة سلمان ﷺ بحفر الخندق، وهو أمر لم تكن تعرفه العرب من قبل، دليل على أن الإسلام لا يضيق ذرعًا بالاستفادة مما عند الأمم الأخرى من تجارب تفيد الأمة وتنفع المجتمع، فلا شك أن حفر الخندق أفاد إفادة كبرى في دفع خطر الأحزاب عن المدينة، وقبول رسول الله ﷺ هذه المشورة، دليل على مرونته ﷺ، واستعداده لقبول ما يكون عند الأمم الأخرى من أمور حسنة، وقد فعل الرسول ﷺ مثل ذلك أكثر من مرة، فلما أراد إنفاذ كتبه إلى الملوك والأمراء والرؤساء قيل له: إن من عادة الملوك ألَّا يقبلوا كتابًا إلا إذا كان مختومًا باسم مرسِله، فأمر على الفور بنقش خاتم له كتب عليه: محمد رسول الله، وصار يختم به كتبه، ولما جاءته الوفود من أنحاء العرب بعد فتح مكة تعلن إسلامها، قيل له: يا رسول الله، إن من عادة الملوك والرؤساء أن يستقبلوا الوفود بثياب جميلة فخمة، فأمر رسول الله ﷺ أن تشترى له حلة، قيل: إن ثمنها بلغ أربعمائة درهم، وقيل: أربعمائة بعير، وغدا يستقبل بها الوفود، وهذا هو صنيع الرسول ﷺ الذي أُرسل بآخر الأديان وأبقاها إلى أبد الدهر، فإن مما تحتمه مصلحة أتباعه في كل زمان وفي كل بيئة أن يأخذوا بأحسن ما عند الأمم الأخرى، مما يفيدهم، ولا يتعارض مع أحكام شريعتهم وقواعدها العامة، والامتناع عن ذلك جمود لا تقبله طبيعة الإسلام الذي يقول في دستوره الخالد: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّمَر]، ولا طبيعة رسوله الذي رأينا أمثلة عما أخذ من الأمم الأخرى، وهو القائل: «**الحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**».

[الترمذي في العلم عن رسول الله ﷺ (٢٦٨٧)، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه، وقال الشيخ الألباني: ضعيف جدًّا].

ويوم غفل المسلمون في العصور الأخيرة، وخاصة بعد عصر النهضة الأوروبية عن هذا المبدأ العظيم في الإسلام، وقاوموا كل إصلاح مأخوذ عن غيرهم مما هم في أشد الحاجة إليه، أصيبوا بالانهيار، وتأخروا من حيث تقدم غيرهم ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[الحج]. [السيرة النبوية للسباعي ١٠٩-١١٠].

ويقول د/ رزق الله: «إن حفر الخندق يدخل في مفهوم المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فينبغي على المسلمين اتخاذ وسائل القوة المتاحة مهما كان مصدرها؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها». [السيرة النبوية لرزق الله ٤٥٦].

ويقول د/ الزيد: «من قصة حفر الخندق نأخذ الاستفادة مما لدى الغير مما لا يتعارض مع ديننا، فقد أخذ الرسول ﷺ فكرة حفر الخندق من سلمان الفارسي ﷺ الذي نقلها عن الفرس حيث قال: (**إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الْخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا**)، فالاستفادة مما لدى الغير مطلوبة بشرط أن لا يقبل المسلم شيئًا يتعارض مع مبادئ دينه». [فقه السيرة للزيد ٤٩٩].

ويقول د/ البوطي: «لقد كان من جملة الوسائل الحربية التي استعملها المسلمون في هذه الغزوة حفر الخندق، ولقد كانت غزوة الأحزاب أول غزوة في التاريخ العربي والإسلامي يُحفر فيها الخنادق، إذ هو مما كان متعارفًا بين الأعاجم فقط، ولقد رأيتَ أن الذي اقترح ذلك في غزوة الأحزاب إنما هو سلمان الفارسي ﷺ، وقد رأيتَ أن النبي ﷺ أُعجب بهذه الوسيلة الحربية وسرعان ما دعا أصحابه إلى القيام بتحقيقها.

وهذا من جملة الأدلة الكثيرة التي تدل على أن الحكمة هي ضالة المؤمن فحيثما وجدها التقطها، بل هو أولى بها من غيره، وأن الشريعة الإسلامية بمقدار ما تكره للمسلمين إتباع غيرهم وتقليدهم على غير بصيرة، تحب لهم أن يجمعوا لأنفسهم أطراف الخير كله والمبادئ المفيدة جميعها، أينما لاح لهم ذلك، وحيثما وُجد، فالقاعدة الإسلامية العامة في هذا الصدد، هي أن لا يعطل المسلم عقله الحر وتفكيره الدقيق في سلوكه وعامة شؤونه وأحواله، وإذا كان المسلم كذلك، فهو ولا ريب، لا يمكن أن يربط في عنقه زمامًا يسلم طرفه للآخرين فيقودوه حيثما أرادوا بدون وعي ولا بصيرة، وهو أيضًا لا يمكن أن يتجاهل أي مبدأ أو عمل أو نظام يسلِّم به العقل النيِّر والفكر الحر وينسجم مع مبادئ الشريعة الإسلامية، ليتجاوزه ولا يتعب نفسه بأخذه والاستفادة منه.

وهذا السلوك الذي شرعه الله للمسلم، إنما ينبع من أصل أساسي هو الكرامة التي فطر الله الإنسان عليها إذا اقتضت مشيئته أن يكون هو سيد المخلوقات، وما ممارسة العبودية لله تعالى والتزام أحكام شريعته إلا ضمان لحفظ هذه الكرامة والسيادة». [فقه السيرة للبوطي ٢٣٠-٢٣١].

٢ ـ تكريم القيادة للصالحين وذوي الكفاءات وتقريبهم:

يقول د/ الحميدي: «في قول رسول الله ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**» ما يُشعر بأن سلمان ﷺ من المهاجرين لأن أهل البيت من المهاجرين، ولكنه عبَّر بطريقة بارعة رفع فيها من شأن سلمان، وأشعر الفريقين بأن هناك فريقًا ثالثًا أعلى شأنًا من الفريقين، وإن كان ينتمي إلى أحدهما، فلا خصومة في سلمان ﷺ؛ لأن شأنه أكبر من ذلك فإنه قد فاز باللحاق بالفريق الأعلى، وإنا لنجد في هذا التعبير العالي لمسات سامية أقنعت الفريقين، وأعلت من شأن رجل كان في قمة الشرف والرفعة في بلده الأول، ثم تقلب به الزمن حتى صار موئل المهانة والذل في عبودية رجل يهودي إلى أن تحرر منه، فكان في كلمة النبي ﷺ رد اعتبار له ومكافأة سخية على ما تخلى عنه من حياة الشرف والرفعة إلى حياة المهانة والذل من أجل أن يظفر بالإيمان بالنبي ﷺ وصحبته، فما أعظمك يا رسول الله ﷺ مربيًا وهاديًا!». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠٨].

ويقول د/ أبو خليل: «لقد حسم رسول الله ﷺ الأمر، فلم يقبل له نسبًا إلى المهاجرين القرشيين، ولا إلى الأنصار من أوس وخزرج، فجعل نسبه إلى عقيدته، **فسَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**، أي منا، من المسلمين، وكفى بذلك نسبًا.

وبالمقابل، ليس كل من اتصل برسول الله ﷺ بنسب قربى شُرِّف، وكان من (أهل البيت)، كعمه أبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد].

يقول الشاعر محمد إقبال:

الشَّـــاعِرُ الهِنْــدِيُّ يَهْمِــسُ فِي أَدَبِ ... إِنْ لَمْ يَسُـؤْكُم يَـا سَـلاطِينَ العَـرَبْ
أَيُّ الشُّـعُوبِ تَعَلَّمَـتْ مِـنْ قَـبْلِكُمْ ... سِرًّا مَلِيئًـا بِالطَّرَافَــةِ وَالعَجَــبْ
إِنَّ التَّـــوَلِّيَ لِلنَّبِـــيِّ بَــــرَاءَةٌ ... مِنْ عَمِّهِ الدَّانِي القَرِيبِ أَبِي لَـهَبْ
وَالعَالَـمُ العَرَبِيُّ [١] شَعْبٌ جَاءَ مِـنْ ... فَـوْقِ الأُبُـوَّةِ وَالبُنُـوَّةِ وَالحَسَـبْ
وَامْتَــدَّ فِي مَعْنَــى النَّبِــيِّ مُحَمَّــدٍ ... لا فِي الحُدُودِ وَلا الثُّغُورِ وَلا النَّسَبْ

---

(١) بعد أن أكرمه الله ﷻ برسوله ﷺ.

ومما يذكر هنا أيضًا، أن بعض السادات رأى عبد الله بن المبارك [١] في عزة ورفعة مع جماعة، فقال: **انظروا إلى حال آل محمد وعزة ابن المبارك!**

فقال ابن المبارك: **إن سيدنا لما لم يراع سنة جده ذل، وابن المبارك لما أطاع النبي ﷺ وسار سيرته، أعطاه الله عزًّا وشرفًا، واعلم أن عزة فرعون وشرفه انقلبا ذلًّا وهوانًا بسبب تكذيب موسى عليه السلام وإعراضه عن قبول دعوته، وهامان وإن كان سببًا صوريًّا في امتناعه عن القبول ونكوله عن الانقياد، لكن لم يكن في أصل جبلته** (طبيعته وأصله وما بني عليه) **استعداد لقبول الحق، فلا يغرنكم عزة الدنيا مع عدم الطاعة لأنه ينقلب يومًا ذلًّا وخسرانًا، وكثيرًا ما وقع في الدنيا، ورأيناه، فاقبل النصيحة مع مداومة حب العلم، وإلا فعند ظهور الحق ووجود الاستعداد والقابلية لا يبقى غير الاستسلام، وإن منعه العالم بأسرهم عن ذلك.**

[روح البيان ٥/ ٣٩٣، ط ١٣٣١ هـ].

«**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**» شرف عظيم لسلمان رضي الله عنه، وبذلك يمكن لكل مسلم أن يكون شريفًا مرموقًا بغض النظر عن نسبه وقومه، قال ﷺ: «**أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ وَأَصْحَابُ اللَّيْلِ**». [رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبيهقي في شعب الإيمان، وفي سند الحديث ضعف، راجع: فيض القدير للمناوي ١/ ٥٥٢].

حملة القرآن علمًا وتطبيقًا وسلوكًا، وأصحاب الليل هم عشاق الله عز وجل، تجافت جنوبهم عن المضاجع، فقاموا لمناجاة ربهم وذكره، فهم أهل القرب والمحبة». [غزوة الخندق لأبي خليل ٨٦-٨٨].

٣ ـ رعاية الموهوبين:

يقول د/ الغضبان: «انضمت الطاقات والكفاءات العربية إلى الصف الإسلامي، ولا شك أن دور سلمان الفارسي رضي الله عنه في الإشارة بحفر الخندق، ودور نُعيم بن مسعود رضي الله عنه في تخذيل الأحزاب، وأثر هذه العبقريات الضخمة في تغيير مسار المعركة، لم يكن ليبرز لولا التربية النبوية العظيمة، فسلمان رضي الله عنه يرعاه رسول الله ﷺ، ويهيئ له الخلاص من الرق، ويقود المئات من المسلمين لعونه في المال والعمل، ولندع لسلمان رضي الله عنه وصف هذه المعونة: ثم قال رسول الله ﷺ: «**كاتِبْ يا سلمان**»، فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير (بالحفر أو المكان السهل يحفر فيه)، وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ: «**أعينوا أخاكم**» فأعانوني بالنخل بثلاثين ودية (جمع ودي، صغار الفسيل من النخل)، والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة حتى اجتمعت ثلاثمائة ودية، فقال: «**اذهب يا سلمان ففقِّر لها، فإذا فرغت فائتني أكون أنا أضعهم بيدي**»، ففقرت لها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت منها جئته وأخبرته، فخرج معي إليها نقرب له الودي ويضعه بيده فو الذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي عليَّ

(١) عبد الله بن المبارك: ١١٨-١٨١ هـ عاش حتى أيام الرشيد، عالم المشرق والمغرب لما جمع في أعماله من فَهْم رائع سليم للشريعة.

المال، فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب في بعض المغازي فقال: ما فعل الفارسي المكاتب؟ فدعيت له فقال: «**خذها فأدِّ بها ما عليك**»، قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليَّ، قال: «**خذها فسيؤدي الله عنك**»، فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية، وأوفيتهم حقهم وعُتقت، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرًّا، ثم لم يفتني معه مشهد.

[سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٥١١ وقال المحقق فيه: «رجاله ثقات وإسناده قوي»].

فهو قبل الخندق عبد من العبيد، وقد كان من الممكن أن يُمضي عمره، رقيقًا مع الرقيق، لولا جاءت تلك الرعاية النبوية فحررته من هذا العالم المنكور والبئيس.

وسخرت طاقات المسلمين جميعًا لإنقاذه، بالجهد العضلي، والجهد المالي، والتبرع السخي بفسائل النخل، ولم ينسه رسول الله ﷺ، فكان أول ما ورد له بمقدار بيضة الذهب من الغنائم قال: «**أين الغلام الفارسي؟**» أو: «**ما فعل الفارسي المكاتب؟**»، فقد كان كل همه منصبًّا عليه ليخلصه من تلك العبودية من الغنائم فإذا به يشهد الخندق حرًّا، وإذا به يقلب الموازين كلها، حتى لتصعق قريش من فعلته، وتتحطم خططها كلها على أعتاب الخندق قائلين: هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها، قالوا: إن معه رجلًا فارسيًّا، فهو الذي أشار عليه بهذا، قالوا: فمن هناك إذًا.

هذا ولم يقدم خبرته الحربية فقط، بل قدم خبرته الفنية المختصة في حفر الخندق كما في رواية الواقدي: وتنافس الناس يومئذ في سلمان الفارسي ﷺ، فقال المهاجرون: سلمان منا! وكان قويًّا عارفًا بحفر الخندق.

وقالت الأنصار: هو منا ونحن أحق به، فبلغ رسول الله ﷺ قولهم فقال: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**»، ولقد كان يومئذ يعمل عمل عشرة رجال. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٦، ٤٤٧].

وفي رواية الطبري: (فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي ﷺ، وكان رجلًا قويًّا، فقالت الأنصار: سلمان منا، وقال المهاجرون: سلمان منا، فقال النبي ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**».

[جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري ١٠/ ٥٨ هذا وإن كان في الروايتين ضعف، فقد ورد عن علي ﷺ قوله عن سلمان ﷺ: أدرك العلم الأول والعلم الآخر بحر لا يدرك مقره، وهو منا أهل البيت. وقال المحقق فيه: «رجاله ثقات». ينظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٥٤١]. [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٥٤-٥٥].

٤ ـ توزيع العمل الميداني ووحدة المسؤولية:

يقول د/ الفنيسان: «لما خط رسول الله ﷺ الخندق، قسَّم أصحابه إلى عدة [حظائر] عشرة عشرة، وجعل على كل عشرة عريفًا، وأعطى لكل عشرة ٢٠ ذراعًا طولًا بعمق ٧ أذرع وعرض ١٢ ذراعًا، وإذا عرفتَ أن عدد المسلمين ثلاثة آلاف جندي لا غير، وقد حفروا الخندق بهذه المواصفات في مدة ستة أيام كما يقول ابن سعد، إذا عرفت ذلك بان لك أي جهد بذلوه فيه». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٠].

ويقول د/ أبو فارس: «نلاحظ أن رسول الله ﷺ قد قسم الخندق بين أصحابه إذ جعل لكل عشرة واجبًا أن يحفروا أربعين ذرعًا، ويمكننا أن ندرك أن العمل مهما كان عظيمًا شاقًا مضنيًا إذا قُسِّم إلى وحدات صغيرة وأقسام قليلة يصبح سهلًا على النفوس، ويهون عليها هذا العمل الضخم بتجزئته؛ ذلك لأن النفس حين تنهي جزءًا من العمل تستهين ببقيته أو على الأقل تتحمس لإنهائه.

وعن طريق تقسيم العمل يقبل الناس على التنافس في الخير، ويتسابقون في العمل، ويسارعون في بذل أقصى طاقاتهم لإتمامه وفيه يشعر كل إنسان بما أنتج.

والتقسيم أيضًا يدل على عقلية الرسول ﷺ المنظمة لكل الطاقات البشرية التي تحت يده.

فلا غرو إذن أن نعلم أن الخندق قد بلغ طوله خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع وعمقه سبعة أذرع، قد حفره المسلمون في جو بارد ممطر شديد الريح في مدة لم تبلغ شهرًا بل أقل من ذلك».

[الرسول العربي وفن الحرب ص ١٩٤]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٣-١٠٤].

٥ ـ القائد قدوة لمجتمعه يجوع معه ويشبع معه ويألم لألمه ويفرح لفرحه:

يقول د/ أبو فارس: «إن الرسول ﷺ لم يقف موقف المتفرج من الصحابة، وهم يحفرون الخندق في البرد الشديد والريح الشديد، ولم يقف موقف المشجِّع على الحفر بالكلام المعسول أو الأمر الصارم من برج عاجي، كما يفعل بعض الزعماء في هذا العصر، بل انطلق يشاركهم النصب والتعب، بحفرهم طوال أيام الخندق، يده مع أيديهم، حتى غطى التراب بطنه الشريف ﷺ». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٢].

ويقول د/ الحميدي: «لقد شارك رسول الله ﷺ أصحابه في حفر الخندق، فلقد كان قائدًا لأصحابه حتى في هذا العمل الشاق، ولقد بذل جهدًا كبيرًا في ذلك حتى كسى التراب جسده الشريف.

ويداهمه النوم ﷺ من شدة الإعياء والسهر، فينام مستندًا على حجر، ويشفق عليه صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصرفان عنه الناس ليستغرق في نومه، ولكنه يتنبه من دبيب أقدام حوله فيلوم أصحابه على تركه نائمًا خشية أن يتأخر العمل في حفر الخندق، ولقد كان ﷺ كما سبق في غزوة أحد إذا جد الجد لا يشبهه أحد.

ونجده ﷺ يحرِّض أصحابه على الجد في العمل فيذكِّرهم بنعيم الآخرة ليجتهدوا في العمل الصالح الموصل إلى ذلك النعيم فيقول لهم وهم يحفرون الخندق:

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ

فيجيبونه بلسان المؤمن الواثق:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وكان ﷺ وهو ينقل التراب يرتجز بشعر ابن رواحة المذكور في الخبر، وذلك ليشد من عزائم المسلمين.

لقد كان بإمكانه ﷺ أن يبقى في حصن منيع وأن يتخذ لنفسه حرسًا، وما أكثر الذين يفدونه بأرواحهم من أصحابه، ولو فعل ذلك لم يعترض عليه أحد، ولرأى الصحابة أن ذلك من حقه وأن من واجبهم أن يقوموا بحمايته، وأن يتولوا حماية المدينة بحفر الخندق، ولكنه ﷺ قدوة عليا لأمته فهو دائمًا يسابق أصحابه إلى البذل والتضحية ولا يوفر نفسه من الأعمال الشاقة.

إن مشاركة النبي ﷺ بنفسه في حفر الخندق مع أنه زعيم المسلمين وإمامهم وبين قوم يفدونه بأرواحهم لمن أقوى الأدلة على صفاته التربوية العالية وخلود عظمته عبر الأجيال، فلم يجعل من نفسه زعيمًا دنيويًّا يصدر الأوامر والنواهي وهو في معزل من عامة الناس بل شاركهم في السراء والضراء، يشبع إذا شبعوا ويجوع إذا جاعوا، ويعمل في المصالح العامة كما يعملون، وما هذا إلا مثل من أمثلة كثيرة لتواضعه وسلوكه التربوي العالي ﷺ». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠٦-١٠٧].

ويقول د/ الغضبان: «وما كان يمكن أن يتم الحفر بهذه السرعة، وبهذه الإمكانيات الهائلة، لو لم يكن القائد الحبيب ﷺ الركن الأساسي في التنفيذ، ليس تشريف الحضور فقط، وليس قطع الشريط فقط، وليس المرور على العمال فقط، بل هو سيد العمال ﷺ.

أي تربية في البناء تفوق هذه التربية، فلا داعي أن يتكلم أو يصدر الأوامر، ويلح ويهدد ويتوعد من ينكل عن العمل بالسجن أو الموت، أو اتهامه بالخيانة العظمى لإعدامه، حيث سهَّل دخول العدو للمدينة، إنما كان يكفي سيد ولد آدم ﷺ أن يكون بين الغبار والحجارة يحمل ويحفر ويقطع وينشر مع صحبه، وحين يرى من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان رسوله الحبيب ﷺ، وقد أغبر بطنه وعلاه التراب، يغرف بالمسحاة التراب، ويضرب مرة بالمعول، ومرة يحمل التراب في المكتل، هل يمكن أن يتردد لحظة، أو يتلكأ لحظة عن العمل إلا أن يكون منافقًا، مغمومًا في النفاق.

إن كثيرًا من الأمم قد اندثرت عندما جاءها مثل هذا الغزو، ولم تعد له عدته، واستبيحت بيضتها، وسُبي نساؤها، وقُتل رجالها، وإن عظمة القادة لتبرز في أمثال هذه المحن، فتواجه الأعاصير بأعاصير أعظم، وتحيط الهجوم منذ لحظاته الأولى». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٣، ٢٤-٢٥].

ويقول الشيخ عرجون: «هذا رشح من غيث النبوة في قيادة النبي ﷺ لمجتمعه المسلم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وهو ﷺ أكرم خلق الله على الله، وأعزهم عنده، وأحبهم إليه يشارك أصحابه وجند كتائبه في حمل تراب الخندق حتى يواري التراب جلد بطنه، ويجوع معهم، ويبقى على الجوع كما بقوا أيامًا ولياليَ لا يذوقون فيها ذواقًا ولا يطعمون شيئًا، ولا يقدرون على شيء يقيم أصلابهم.

ويشتد به ﷺ الجوع حتى تلتصق بطنه بظهره، ويخشى أن يُعجزه ذلك عن العمل كما يعمل أصحابه فيشد على بطنه الحجر ليقيم به صلبه، ويرى ما عليه أصحابه من المسغبة وشدة الجوع وقسوة البرد، وهم يعملون في حفر الخندق بأنفسهم في غداة باردة، فيعللهم بالأناشيد الباعثة على حب العمل واحتمال مشقته والدأب عليه كما تعلل الأم الرؤوم فلذة كبدها وهي تراه يتلوى من الجوع وقد قلص ثديها وجف عن مَذقة ترضعه إياها، وأصحابه ﷺ ينسون ما بهم من آلام فيجاذبونه النشيد ويجيبونه بقولهم:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

ليقروا عينه ويشعروه ﷺ أنهم شروا أنفسهم في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وأنهم بايعوه ﷺ على الجهاد ما بقوا على ظهر الأرض تنبض قلوبهم بالحياة». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥٢].

٦ ـ العدالة والمساواة في المجتمع الإسلامي:

يقول د/ البوطي: «وفيما استعرضناه من مشهد عمل الصحابة مع رسول الله ﷺ في حفر الخندق، عبر بالغة كبرى، توضح لك حقيقة المساواة التي يرسيها المجتمع الإسلامي بين جميع أفراده المسلمين، وتكشف لك عن أن العدالة والمساواة، ليستا في الاعتبار الإسلامي مجرد شعارات يُزين بها ظاهر المجتمع، أو يُوضع منه في إطار لامع براق، وإنما العدالة والمساواة هما الأساس الواقعي الذي تنبثق منه عامة القيم والمبادئ الإسلامية ظاهرًا وباطنًا.

فأنت تجد أن رسول الله ﷺ لم يندب المسلمين إلى حفر الخندق، ثم ذهب يراقبهم في قصر منيف له مستريحًا هادئًا، ولا أقبل إليهم في احتفال صاخب رنان ليمسك معول أحدهم بأطراف أصابعه، فيضرب به ضربة واحدة في الأرض إيذانًا ببدء العمل وتخييلًا لهم أنه قد شاركهم في ذلك، ثم يلقي المعول ويدير ظهره إليهم، ينفض عن حلته ما قد علق بها من ذرات غبار.

ولكن رسول الله ﷺ انخرط في العمل كأي واحد من أصحابه، حتى لبس ثوبًا من الأتربة والغبار على جسمه، فما تُفرقّه عن أي عامل آخر من صحبه وإخوانه، يرتجزون لينشط بعضهم بعضًا، فيرتجز معهم، ويتعبون ويجوعون فيكون أولهم تعبًا وجوعًا، وتلك هي حقيقة ما أقامته الشريعة الإسلامية من مساواة بين الحاكم والمحكوم، والغنى والفقير، والصعلوك والأمير، وأنت لا تجد فرعًا من فروع الشريعة وأحكامها إلا قائمًا على هذا الأساس ضامنًا لهذا الحق.

وأعيذك أن تخطئ فتسمى هذه ديمقراطية في السلوك والحكم، فشتان ما بينهما من الفرق.

مصدر هذه العدالة والمساواة في الدين الإسلامي، هو العبودية لله تعالى، وهي صفة عامة شاملة للناس كلهم، تضعهم في صف واحد من المكانة والاعتبار، ومصدر ما يسمونه بالديمقراطية، تحكيم رأي الأكثرية أي تأليه رأي الأكثرية على الآخرين، مهما كانت طبيعة ذلك الرأي ومرماه.

من أجل هذا، لا تعوج الشريعة الإسلامية على شيء مما يسمى بالامتيازات لأي طبقة أو فئة من الناس، ولا تخص جماعة منهم بحصانة ما مهما كانت الدوافع والأسباب؛ لأن صفة العبودية لله تعالى من شأنها أن تُذيب كل ذلك وتلغيه من الاعتبار». [فقه السيرة للبوطي ٢٣١].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد تمثلت المساواة بين جميع المسلمين، وتحققت بشكل واضح في حفر الخندق، فلم يترفع أحد عن العمل، لقد شارك في الخندق الغني والفقير، والقائد والجندي، لم يتأخر أحد، ولم يؤذن لأحد بالتخلف إلا إذا كان منافقًا مخادعًا جبانًا صاحب فتنة، أما المسلمون فقد شاركوا في الخندق سواء.

إن هذا الدين لا يعرف التمييز العنصري، ولا يعرف المحاباة، فلا يحابي الأغنياء على الفقراء، ولا يعرف الصراع الطبقي فيؤيد طبقة على طبقة، إنه يوجب على أتباعه كلهم غنيهم وفقيرهم أن يكونوا كالجسد الواحد متعاونين متكافلين متضامنين، وهم أمام القانون سواء قولًا وعملًا.

هذا ما تحقق فعلًا في غزوة الأحزاب وفي حفر الخندق بالذات». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٨].

ويقول الشيخ عرجون: «هذا الموقف الإنساني النبيل وهذا الفعل الكريم من النبي ﷺ وأصحابه المجاهدين يضع هذا المجتمع المسلم في مكان حجر الزاوية من بناء كتائب الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، ويجعل من قيادته العظمى ممثلة في رسول الله ﷺ أفقها المتسامي الذي تتطلبه حياة مجتمع نيط به نشر رسالة الحق والخير والهدى والنور، وإقامة موازين العدل والتراحم بين عامة الناس وخاصتهم على أساس أقصى ما يتحمل الإنسان من الصبر على البأساء والضراء، ويجعله قائمًا على أرفع منازل التواسي بالخير بين القيادة وجنودها في العسر واليسر والمنشط والمكره، والشدة والرخاء؛ ليعلم الناس أن رسالة الإسلام لا تبيح للقادة والرؤساء والحكام والزعماء المتولِّين أمور قيادة الشعوب والأمم أن يستأثروا بالعيش الرغد الرخي الهني، والحياة المترفة المتنعمة، وهم يديرون شؤون أممهم من وراء جدران القصور، يتثاءبون من الكظة، ويتجشؤون من البِطْنة، وهم يعلمون أن شعوبهم المسلمة تعيش على شظف العيش وقفار اللقمة إن وجدوها وقدروا عليها، ويعيشون على عُرْي العورات في حمَّارة القيظ وقرقرة الصقيع.

وحسب هؤلاء القادة عند أنفسهم أن يسلطوا على شعوبهم شراذم المرتزقة من المتفيهقين أصحاب اللَّسَن الخادع المنافق الكذوب ليقولوا عن السواد المظلم في حياة هذه الشعوب إنه بياض مضيء، وعن صُفرة الجوع إنها نضرة النعيم، وحسب هؤلاء القادة عند أنفسهم وعند المنتفعين بما في أيديهم من لعاعات الدنيا إذا جد الجد وطالبتهم الحياة قَسْرًا أن يقوموا بأداء واجباتهم إزاء شعوبهم، ويقفوا إلى جانبهم في دفع الظلم أن يتواروا وراء أسجاف من الخداع الكذوب في بيانات إذاعية تُكتب لهم بأقلام

النفاق، يتحدثون فيها عن الإسلام وهدايته، أو في احتفالات ألصقوها بالدين افتراء على الله وعلى دينه، وهم يعلمون أن هذه الاحتفالات التي تطنطن بها الإذاعات ودور الإعلام المأجورة ما أنزل الله بها من سلطان، وهم الممكَّنون في الأرض بما ملَّكهم الله من سلطان القيادة، وبما وضع في أيديهم من ثروات هائلة، هي في الحقيقة ملك لهذه الشعوب الجائعة العارية أخرجتها لهم أرضهم وسواعدهم، وسقتها دموعهم وعرقهم، وغذاها دمهم، وهؤلاء القادة الحاكمون مستخلفون فيها لإنفاقها فيما يحفظ على الشعوب حرية دينها وعقيدتها وشرف وطنها، ويتيح لها انطلاق حركاتها في هذا الوطن بما يكفل لها القيام بواجباتها في حماية الحق والعدل، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم]».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥١-١٥٢].

ويقول د/ فيض الله: «رأينا في حفر الخندق، كيف أن النبي ﷺ شارك في الحفر مشاركة فعلية لا رمزية ـ كما يصنع بعض الحاكمين المتزعمين ـ حتى علا بطنه الغبار، ومسه الجوع، وتصبب منه العرق، وتعب كما تعب أصحابه، مع أنه سيد الخلق ﷺ، وصاحب الشرع، وهو الذي لو أمر أُطيع، ولو دعا أُجيب، ولو أشار هفت لإشارته قلوب وهام...

لكنه ﷺ كان رأسًا في الوحي، وفردًا من الناس فيما سواه، وعلى التخصيص في الأمر الجد الذي يحيق بالجماعة، فيقتضيها بذلًا أو عملًا أو جهدًا أو تحركًا، فقد كان أسبقهم فيه، وأكثرهم تحملًا لمسؤوليته، يُعرف ذلك من خلال سيرته، في أسفاره وغزواته، كهذه التي نحن بصددها، وفي رحلاته، أَوَ لم يقل ﷺ مرة لأصحابه ـ لما هموا أن يسقوه مما في بيوتهم، فقال: «**لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، اسْقُونِي مِمَّا يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ**».

[مسند أحمد ٣/ ٣٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما رقم ١٨٤١، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح. ونصه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَافَ بِالبَيْتِ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَاسْتَلَمَ الحَجَرَ بِمِحْجَنٍ كَانَ مَعَهُ، قَالَ: وَأَتَى السِّقَايَةَ فَقَالَ: «اسْقُونِي»، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا يَخُوضُهُ النَّاسُ، وَلَكِنَّا نَأْتِيكَ بِهِ مِنْ البَيْتِ، فَقَالَ ﷺ: «لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، اسْقُونِي مِمَّا يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ»].

بل يروي الأئمة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُ المَرِيضَ، وَيَشْهَدُ الجَنَازَةَ، وَيَرْكَبُ الحِمَارَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ العَبْدِ، وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لِيفٍ، عَلَيْهِ إِكَافٌ (برذعة) لِيفٍ**». [الترمذي في الجنائز (١٠١٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٨)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

فهذان وذاك وغيرُها من أمثلة المساواة في الإسلام، كان النبي ﷺ يطبقها على نفسه فعلًا، قبل أن يصدرها للناس شرعًا وحكمًا، ولا يرى لنفسه ميزة على سواه إلا بالوحي، الذي يجعله أكثرهم مسؤولية، واضطلاعًا بالتَّبعات الجِسَام، لا أن يعفيه من الواجبات، أو أن يستثنيه من التشريعات، إلا ما خصه به رب العالمين.

ومن ثم نهى عن إطْرائه، كما فعلت النصارى بالمسيح عليه السلام وقال ﷺ: «**لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** عليه السلام، **إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**». [وتمامه: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ بُسْرٍ رضي الله عنه: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَصْعَةٌ يُقَالُ لَهَا الْغَرَّاءُ، يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى أُتِيَ بِتِلْكَ الْقَصْعَةِ ـ يَعْنِي وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا ـ فَالْتَفُّوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَا هَذِهِ الْجِلْسَةُ؟! قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:...». البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥)، وفي الحدود (٦٨٣٠)، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٤)، وأحمد عن عمر رضي الله عنه رقم ١٥٥، ١٦٥، ٣٣٣، ٣٩٣، واللفظ لأحمد].

فهو رسول الله، لا يشاركه في هذه الصفة أحد بعده، وهو عبد الله، والعبودية صفة مشتركة بينه وبين سائر العباد، في التكليف والالتزام، ومع ما فيها من معاني الذل والخضوع والتطامن، فإن العبودية لله وحده رفعة وتشريف، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن].

ولما خُيِّرَ ﷺ بين أن يكون نبيًّا ملكًا، وبين أن يكون نبيًّا عبدًا، اختار أن يكون نبيًّا عبدًا، واعتز بهذه العبودية فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا عَنِيدًا**».

[أبو داود في الأطعمة (٣٧٧٣)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٦٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

إن تحققه ﷺ بوصف العبودية هذا كاملًا، مع الرسالة، جعله الإنسان الكامل في إنسانيته؛ لا جرم كان لهذا قدوة الناس، وسيد العالمين ﷺ.

ومع ذلك، فليس لنا أن نُنْزِلَ بمقامه هذا، فنسويه بنا ـ ونقول: إنه عبد وبشر ـ يعبد الله مثلنا، ويفكر مثلنا، ويدبر مثلنا... تأدبًا؛ لأن عبوديته لا تُناغى (أي لا تُدَانَى)، ولا تُغَالَب، وبشريته ـ بكمالها ـ في القمة والذروة بالنسبة إلى سائر الخلق ﷺ». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٢٨-٢٢٩].

٧ ـ إعطاء المسؤول القدوة في تقدم فريق العمل:

يقول الشيخ الغزالي: «إن الدفاع عن الإسلام ومخافة الفتنة لو انتصر المشركون، جعلت الرسول ﷺ وصحابته يعالجون هذا العمل الثقيل ونفوسهم راضية مغتبطة مع ما يلقَون فيه من عناء وصعوبة.

ولا تحسبنَّ عمل رسول الله ﷺ في تعميق الخندق وقذف أتربته من قبيل التمثيل الذي يحسنه بعض الزعماء في عصرنا. كلا. كلا.

إن الرجولة الكادحة الجادة في أنبل صورها كانت تقتبس من مسلك الرسول ﷺ في هذه المعركة.

يقول البراء: وَارَى عَنِّي الْغُبَارُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ.

أجل إنه استغرق في العمل مع أصحابه، فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثيل».

[فقه السيرة للغزالي ٣٠٦].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد لاحظنا رسول الله ﷺ يشارك في حفر الخندق وهو في سن الشيخوخة بل ويتفوق على الشباب، فتكل سواعدهم ولا يكل وتضعف عزيمتهم وهو لا يضعف وقد شارف على إنهاء العقد السادس من عمره ﷺ، إذ كانت سنه ثمانية وخمسين عامًا.

لقد كان يختار أشق الأعمال وأصعبها في الخندق، بل كان الشباب يستعينون به إذا اعترضت سبيلهم كدية.

لقد كانت مشاركته حقيقية يحمل التراب ويحطم الصخور، مشاركة بعيدة عن الشكليات التي يسلكها كثير من الزعماء اليوم، إن كثيرًا من الحكام الجاهليين في جاهلية القرن العشرين يتكلف التواضع ويتظاهر بمشاركة العاملين عملهم فيضع حجر الأساس أو يغرس الشجرة تشجيعًا للناس على الزراعة، وتقوم أجهزة الإعلام بالدعاية العريضة، علمًا بأن أناسًا يحملون له الحجر أو الشجرة وآخرين يحفرون له الحفرة، ويقوم هو بوضع الحجر أو بغرس الشجرة بلباسه الأنيق دون أن يتغبر حذاؤه.

لا إن هذا الصنيع لا يدل على همة عالية من فاعله، ولا على تواضع جم من صاحبه، إنه التزييف والتزوير الذي تضحك منه الجماهير ولا تخدع به ولا تنطلي عليها الحيلة أبدًا.

إن التواضع الجم والهمة العالية تكون بمشاركة الناس فعلًا كما كان رسول الله ﷺ يفعل في الخندق وفي غير الخندق، بل كان يختار أشق الأعمال في سفره عند تجهيز الطعام، فإن اختار أحد أصحابه ذبح الشاة والآخر سلخها والثالث طبخها فقد اختار ﷺ جمع الحطب وهو أشق الأعمال كما ترى، لم يختر هذا مجاملة حتى يكفيه أصحابه، بل اختار هذا فعلًا وأصر على القيام به، وقد عرض أصحابه عليه أن يكفوه». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٢-١٠٣].

٨ ـ التواضع:

يقول د/ المدخلي: «مبدأ شرعي من مبادئ هذا الدين الحنيف وخلق كريم، ولقد وقف النبي ﷺ يوم عرفة في حجته التي تسمى حجة الوداع وقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ**». الحديث. [مسند الإمام أحمد ٣٨/ ٤٧٤ رقم ٢٣٤٨٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح، وقد جاء في صحيح مسلم ٤/ ٢١٩٩: **إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**. الحديث].

من هذا المنطلق يتبين أن التواضع من الرئيس لمرؤوسيه؛ ومن الكبير للصغير، بل التواضع من كل أحد مما دعا إليه الإسلام، وقد فعل ذلك ﷺ وطبق بنفسه هذا المبدأ العظيم.

حيث باشر بنفسه في هذه الغزوة حفر الخندق، ونقل التراب، وقد روى البراء بن عازب ﷺ أنه ﷺ فعل ذلك حتى اغبر بطنه.

وما ذلك إلا لمعرفته بالله، وتواضعه لمن شرح صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره، حيث لا يُذكر الله ﷻ إلا ويذكر ﷺ.

وتواضعه ﷺ يتجلى دائمًا بين أصحابه سواء في الحرب أو في السلم وسنته مليئة بمثل ذلك».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤].

ويقول د/ أبو فارس: «التواضع الذي لاحظناه من رسول الله ﷺ وهو يكسر الخبز ويصب عليه المرق ويجعل عليه اللحم ويقربه إلى أصحابه حتى شبعوا.

أقول: لو كان قادة جيوشنا اليوم يفعلون لجنودهم ما كان يفعله الرسول ﷺ لجنده لتغير وجه التاريخ، وحققوا المعجزات في حبهم وإخلاصهم وتضحيتهم، بخلاف ما هم عليه من التدابر والتباغض والتشاحن والحقد، لما يراه الجندي من تكبر قائده عليه واتخاذه إياه خادمًا، وما يراه الضابط الصغير من تكبر الضابط الكبير عليه وتحقيره». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٢٠].

ويقول د/ الحميدي: «وفي خبر جابر ﷺ بيان لشيء من أخلاق النبي ﷺ العالية، حيث كان يتولى تقديم الطعام لأصحابه ﷺ حتى شبعوا، وفي هذا دلالة على تواضعه العظيم، والتواضع يعتبر من أعظم صفات الكمال في الإنسان». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١١٤].

٩ ـ كان صبر رسول الله ﷺ واحتماله فوق مستوى المحن في غزوة الأحزاب حتى جاء نصر الله:

يقول الشيخ عرجون: «كانت هذه الغزوة مليئة بالأحداث والوقائع التي كانت تمثل كثيرًا من معالم منهج الرسالة الخالدة في شدائدها وأزماتها ومحنها، والتي قابلها رسول الله ﷺ وهو القائد الأعظم بأعظم الصبر وقوة الاحتمال، فكان لأصحابه المجاهدين تحت لوائه أجلّ قدوة وأعظم أسوة فيما تطلبته أحداث الغزوة من مواقف تعتمد على العزائم الصادقة والإيمان الراسخ واليقين الذي لا تزلزله كوارث البلاء والمحن.

هذه إلى جانب ما كان في أحداثها من معالم الغيب الإلهي الذي يمثل فضل الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى أصحابه في تفريج المضايق والنوازل والبلايا التي كانت تمحيصًا لهم وإظهارًا لقوة عزائمهم وإخلاصهم، وليكون فضل الله في تفريج النوازل والمحن تضميدًا لجراحهم، وبشرى لهم في مستقبل حياة مجتمعهم، وشحذًا لفضائلهم الإنسانية النبيلة، التي رباهم عليها قائدهم الأعظم ﷺ، ولتكون هذه الفضائل هي سلاحهم المعنوي في تحمل لأواء الحياة بصبر صبور، ونضال لا تُفَلُّ قناته، ولا تخضد شوكته، ولا تغمز كرامته، ولا يطمع في النَّيْل منه الطامعون، وتزداد قوتهم الروحية، التي تستمد عناصرها من إيمانهم بالله الذي يَرد بها كيد الكائدين، ويهبها من قوة العزيمة ما تتحدى به قوى أعدائها المادية، ومن قوة الإرادة ما تقهر به قوى حشودهم مهما تكاثرت وتكاثفت عددًا وعدة».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٣٦-١٣٧].

١٠ ـ محبة الراعي للرعية والشفقة عليهم:

يقول د/ البوطي: «وفيما استعرضناه من مشهد عمل الصحابة مع رسول الله ﷺ في حفر الخندق عظة وعبرة أخرى تكشف لك عن مظهر النبوة في شخصية النبي ﷺ، وتضعك أمام مدى ما كانت تمتلئ به نفسه من محبة أصحابه والشفقة عليهم، وتعطيك مثالًا آخر للخوارق والمعجزات التي أكرم الله بها نبيه ﷺ.

فأما ما يتجلى من شخصيته النبوية في هذا المشهد، فذلك يبدو في مكابدته ﷺ للجوع الشديد أثناء عمله مع أصحابه، حتى إنه ليشد الحجر على بطنه، يتقي بذلك ما يجده الجائع من ألم الفراغ في معدته، ترى ما الذي يمكن أن يحمله على المعاناة لمثل هذه المشقة والجهد؟ أهو التطلع للزعامة؟ أم هي الرغبة في المال والملك؟ أم هو الطموح إلى أن يجد من حوله شيعة وأتباعًا؟... كل هذه المطامع، تناقض مناقضة صارخة هذا الذي يكابده ويعانيه، وما أبعد الرجل الذي يطمع في جاه أو ملك أو سلطان عن الصبر على تحمل مثل هذه الآلام.

إن الذي يحمله على تحمل كل ذلك إنما هو مسؤولية الرسالة والأمانة التي كُلِّف بتبليغها والسير بها إلى الناس في طريق هذه طبيعتها، فهذه الشخصية النبوية التي تتجلى في عمله ﷺ مع أصحابه في حفر الخندق.

وأما ما يبدو خلال ذلك من محبته الشديدة لأصحابه والشفقة عليهم، فإنك لتجده واضحًا في موقفه ﷺ من دعوة جابر ﷺ له إلى طعامه القليل، ذلك الذي صنعه له.

لقد كان الذي دفع جابر ﷺ إلى دعوته ﷺ، ما اكتشفه من شدة جوعه ﷺ حينما رأى الحجر المربوط على بطنه الشريف، ولم يكن في بيته من الطعام إلا ما يكفي لبضعة أشخاص، فاضطر إلى أن يجعل الدعوة على قدر ما عنده من طعام.

ولكن كيف يُتصور أن يترك النبي ﷺ أصحابه في غمرة العمل وهم يتضورون مثله جوعًا، لينفرد عنهم مع ثلاثة أو أربعة من أصحابه يستريحون ويأكلون، وإنه لأشفق على أصحابه من شفقة الأم على أولادها؟!

أما جابر ﷺ فقد كان مضطرًّا إلى ما فعل، وكان ذلك منه طبيعيًّا، إذ أنه ـ كأي مفكر عادي من الناس ـ لم يكن يملك أن يتصرف إلا حسب ما لديه من الأسباب المادية، والطعام الذي لديه لا يكفي فيما يُجمع عليه عُرف البشر إلا لهذا العدد اليسير، فليختص به إذًا رسول الله ﷺ ومن يشاء من بعض أصحابه في حدود ضيقة.

ولكنه ﷺ لم يكن من شانه أن يتأثر بنظرة جابر ﷺ إليه، فهو أولًا لا يمكن أن يتميز عن أصحابه بشيء من النعمة أو الراحة، وهو ثانيًا لا يمكن أن يأسر نفسه تحت سلطان الأسباب المادية وحدودها

التي أَلِفها البشر، فالله وحده مسبب الأسباب وخالقها، ومن اليسير عليه سبحانه أن يجعل من الطعام اليسير كثيرًا، وأن يبارك في القليل منه حتى يكفي القوم كلهم.

ومهما يكن، فقد رأى رسول الله ﷺ أنه وأصحابه متضامنون متكافلون يتقاسمون النعمة بينهم مهما قلَّت كما يتقاسمون بينهم المحنة مهما عظمت وكثرت...! فمن أجل ذلك أرسل جابرًا ﷺ ـ بعد أن أبلغه بما عنده ـ إلى داره ليهيئ لهم الطعام، وانفتل هو إلى عامة القوم يناديهم أن يُقبلوا جميعًا إلى صنيعة كبرى لهم في دار جابر ﷺ». [فقه السيرة للبوطي ٢٣١-٢٣٣].

١١ـ لا حد لاهتمام النبي ﷺ بأمر أصحابه ﷺ، وامتزاجه بهم إحساسًا وشعورًا:

يقول د/ فيض الله: «لم يكن الأمر مقصورًا على مشاركة النبي ﷺ أصحابه فعلًا في حفر الخندق، بل كان كأحدهم: مَسَّه الجوع كما مَسَّهم، فلم يذق طعامًا خلال ثلاثة أيام، كما لم يذوقوا هم ذواقًا، بل شوهد وهو يهوي بالمعول، وبطنه معصوب بحجر، من شدة الجوع.

وما كان لرسول الله ﷺ وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، أن يفعل غير ذلك، ولا أن يستأثر بطعام من دونهم.

كان له من الغنائم الخمس، وكان يرده فيهم، فكيف يتميز عنهم في المخمصة؟

فهل سمعتِ الدنيا بمثل هذه المساواة العملية؟ وهل وصلت المساواة في قُطر من الأقطار، أو إقليم من الأقاليم في الشرق والغرب إلى هذا المستوى الإنساني الرفيع؟ لا، لا يكون هذا، ولن يكون إلا لنبي مرسل، أو ولي مقرَّب، أو مُتَّبِعٍ للرسل والأنبياء بحق.

إن هذه المصابرة المجاهدة الجماعية للجوع، إنما كانت في سبيل الله، فلهذا أكرم الله تعالى نبيه ﷺ فأطعمهم من جوع، حتى شبعوا جميعًا، بفضله ورحمته، حدث ذلك مرتين في هذه الغزوة، كما رأينا في حديث أخت النعمان بن بشير ﷺ، وحديث جابر ﷺ.

فهذا الأحاديث، وغيرها كثير في الصحاح، من دلائل النبوة، ومن المعجزات التي أيد الله تعالى بها نبيه ﷺ وأكرمه بها؛ ليزداد بها المؤمنون إيمانًا، وليُفتن بها الكافرون، ومرضى القلوب، وضعاف اليقين، وعجاف المسلمين.

وهو أيضًا يشير إلى مبلغ حفاوة النبي ﷺ بأصحابه وحبه لهم، ورأفته بهم، واضطلاعه بمسؤوليته عنهم، في دينهم ودنياهم، وأحوالهم الخاصة، وكل ما يجري في حياتهم، فيؤلمهم أو يحزنهم أو يسوؤهم، أو يؤذيهم، وهي مسؤولية لا يحمل مثلها إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام.

أرأيت كيف اكتشف جابر ﷺ جوع النبي ﷺ إذ رآه يحفر مع صحابته في الخندق، وهو جائع، يعصب بطنه بالحجر، يغالب به الجوع، فلم يطق لذلك المنظر صبرًا، فهرع إلى أهله ليجد ما يسد به جوعته، فلم يجد إلا ما يكفي بضعة أشخاص، فقصر الدعوة عليهم.

وما كان لرسول الله ﷺ أن يستأثر بالطعام والخير من دون الصحابة، والطعام في ظاهره لا يكفيهم جميعًا؛ لكن قدرة الله على تكثير القليل، ومباركة اليسير، فوق الظواهر الطبيعية، وأكبر من الأسباب والمسببات المادية، فالتمسها النبي ﷺ في هذا المقام، فكان له ما أراد، معجزة خارقة، شاة واحدة، بل شويهة أو سلخة، تكفي أهل الخندق الجياع، وهم في حدود الثلاثة آلاف ـ كما رأينا عدتهم في صدر الغزوة ـ وقد ناداهم النبي الرؤوف الرحيم ﷺ: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ! إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيَّهَلًا بِكُمْ**».

إنها عناية الله تعالى برسوله وبمن معه، جاءت في موضعها المناسب، حفروا الخندق، وبذلوا كل طوقهم في الإعداد للقوى الكافرة الغادرة الشرسة وهم جياع، يعملون في سبيل الله، ولنُصرة دينه، فأكرمهم بقدرته إكرامًا، ومسهم بجناح من رحمته، أحوج ما كانوا إليها، وكانوا بها جديرين».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٣٣-٢٣٥].

١٢ ـ في ارتجاز النبي ﷺ وأصحابه للأبيات من الشعر:

يقول د/ أبو فارس: «في ارتجاز النبي ﷺ وأصحابه للأبيات من الشعر يمكننا أن نستنبط ما يلي:

لو تأملنا البيت الذي كان يرتجزه الصحابة:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

علام يدل ذلك؟

إنهم يدركون حقيقة البيعة، ويستشعرون خطورتها، إنها بيعة طوقت أعناقهم أعطوها للرسول ﷺ، إن وفوا بها كانت لهم الجنة، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

الظرف عسير، والبرد شديد، والريح عاصفة، والأحزاب زاحفة، كل شيء يخيف، إن النفس لتطير شعاعًا لهول هذا الموقف، وإن الأبصار لتزيغ والقلوب لتكاد تبلغ الحناجر، ولكنها حين تذكر أن في عنقها بيعة وهذه البيعة تقتضي الوفاء مهما ادلهمت الخطوب وأحلولكت الليالي، سكنت هذه النفس، وهدأ من روعها؛ لهذا كانوا ينشدون (**نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا**) ولا بأس بأن يكرروا هذا، وأن يكرر معهم كل مؤمن ومؤمنة قد بايعوا الله على الإسلام والجهاد في سبيله والثبات على ذلك حتى يلاقوا الله على ذلك ولم يبدلوا تبديلًا.

نسأله جلت قدرته، وعزت عظمته، وتباركت أسماؤه أن يتقبل منا، وأن يثبتنا على الحق حتى نلقاه، وأن يتوفانا مؤمنين ويجعلنا من ورثة جنة النعيم، ويمن علينا بالشهادة مع الشاهدين».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٤-١٠٥].

١٣ـ في أبيات الشعر التي كان رسول الله ﷺ يرتجزها:

يقول د/ أبو فارس: «من أبيات الشعر التي كان رسول الله ﷺ يرتجزها نلاحظ ما يلي:

(أ) حرص النبي ﷺ على أن يذكِّر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بنعمة الله عليهم أن هداهم للإيمان، وشرح صدورهم له، ووفقهم للصدقة والصلاة، وما كانوا ليهتدوا لهذا لولا أن هداهم الله.

وحين يذكر المسلم نعم الله عليه في هذه الظروف الحالكة يستشعر الحنان والود والفضل من الله فيستحي من مخالفة أمره والفرار من القتال.

(ب) **الدين محرر الشعوب لا أفيون الشعوب:** حرص النبي ﷺ على تكرار بيت الشعر التالي:

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

يدل على أن الإسلام يأبى الظلم، ولا يرضى لأهله أن يُظلموا، وهو في نفس الوقت لا يشن حروبه من أجل ظلم الناس بل من أجل جلب الخير لهم وإنقاذهم من الضلالة إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور، بل إنه يفرض على أتباعه أن يحاربوا الظلم والظالمين، مهما كلفتهم هذه الحروب من أموال وأنفس.

وكأني برسول الله ﷺ قد أراد أن يعمق في نفوس الصحابة أن الأحزاب جاؤوا لظلمهم، ولابد أن يشعر المظلوم أنه مظلوم أولًا، فإذا ما شعر بذلك هب بكل ما لديه من قوة ليعصف بالظلم والظالمين، ويصليهم نارًا تلظى، نعم إن الإسلام يحرر الشعوب من الظلم.

(ج) هذا البيت الذي يقوله رسول الله ﷺ:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَهْ فَأَكْرِمْ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

يذكِّر بقيمة الحياة الدنيا وقيمة الحياة الآخرة، وأن العمل ينبغي أن ينصبَّ للحياة الآخرة؛ لأنها الحياة الخالدة الأبدية، والحياة الدنيا بالنسبة للآخرة ليست بشيء يُذكر ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد].

وتكرار هذا البيت يحمس الصحابة ويشجعهم على بذل الجهد في الحفر والتصدي للأحزاب، فإن انتصروا فقد أنعم الله عليهم بالأجر والنصر، وإن استشهدوا كانت الحياة الآخرة والعيشة الهانئة السعيدة، وهم يعملون لها، ينبغي أن يكون الهدف للمسلم التعلق بالآخرة، والرغبة فيما عند الله من النعيم المقيم، والثواب العميم، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

ونحسب والله ﷻ أعلم أن الرسول ﷺ وهو يتلو على مسامع الأنصار والمهاجرين هذا البيت ويكرره أنه لم يكن خبط عشواء، بل كان اختياره لهذا البيت اختيارًا له مغزاه وهدفه، إنه يهدف إلى رفع معنويات

الصحابة القتالية، بأن يبصرهم بأن الحياة التي ينبغي أن يجاهد المسلم من أجلها هي الآخرة، حيث النعيم المقيم، والرضوان العميم، لا يركن للدنيا، بل يفزع للآخرة قائلًا:

رَكْضًا إِلَى اللهِ بِغَيْرِ زَادِ

وإذا تفاعل مع هذه الحقيقة ثبت في قتاله ثبوت الشُّمِّ الرواسي، لا يتزحزح قيد أنملة.

إنها التربية الإيمانية التي يربيها رسول الله ﷺ لأتباعه، فأثمرت وأينعت خير أمة أُخرجت للناس في كل مجالات الحياة وشتى ينابيع المعرفة والتربية والعلوم». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٥-١٠٨].

١٤ ـ تعاون الجميع إذا هوجمت البلاد:

يقول د/ المدخلي: «وفي ذلك حديث سهل بن سعد الساعدي وحديث أنس رضي الله عنهما وكلاهما في الحفر، وما دار فيه، ففيهما من العبر والدروس الشيء الكثير منها:

(١) أنهم باعوا أنفسهم لله ﷻ وحرصوا على كل خير يقربهم إليه، وكان الرسول ﷺ هو القدوة في ذلك.

(٢) مباشرة الرسول ﷺ الحفر بنفسه تحريضًا للمسلمين على العمل ليتأسوا به في ذلك، وحتى يبتعدوا عن الاتكالية وما يعقبها من تبعات.

(٣) فيهما إشارة إلى تحقير عيش الدنيا مهما بلغ لما يعرض له من التكدير وسرعة الفناء ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى].

(٤) ترديده ﷺ بعض الكلمات إجابة لأصحابه لما كانوا يقولونه أثناء الحفر؛ وذلك مما ينشط حيث إن الإنسان إذا اشتغل في عمل جسماني شاق فالسكوت يشق عليه ويتعب بسرعة أكثر مما لو كان يتكلم حيث ينسيه الكلام التعب، وهذا مُجَرَّب.

(٥) ملاطفته ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم وهو الموصوف بقول ربه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، حيث كان أصحابه يرتجزون أثناء الحفر وهو ﷺ يردد معهم».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٤٠-٤٤١].

١٥ ـ التعاون والتكافل بين المجتمع المسلم:

يقول د/ الزيد: «يدلنا حديث جابر رضي الله عنه، ودعوته للرسول ﷺ للطعام، ثم دعوة الرسول ﷺ لأهل الخندق بكاملهم، مدى ما كان عليه أولئك القوم من التعاون، وأنه كان لا ينفرد أحدهم بطعام عن الباقين [ينظر: أبو زهرة، خاتم النبيين ﷺ ٢/ ٩٢٧]، بل تعاون وتعاضد فيما بينهم وإيثار وشفقه، وهذا شأن المجتمع المسلم الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى». [فقه السيرة للزيد ٥٠٣].

ويقول د/ أبو فارس: «من سيرة الصحابة في حفر الخندق تجد التعاون بين الصحابة ﷺ بعد أن يقوموا بواجباتهم، فكانت كل مجموعة تنهي ما قسم لها رسول الله ﷺ من الخندق لا تخلد للراحة بل تسارع على الفوز لتساعد المجموعة التي لم تفزع من عملها».

[ينظر: تفسير القرطبي ١٤/ ١٣٠]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٨-١٠٩].

١٦ ـ الحرص على الوقت وخيرات الطبيعة:

يقول د/ أبو فارس: «مما يلفت النظر أن الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا ينقلون التراب بالمكاتل وفي ثيابهم إلى جبل سلع ثم يعودون ومكاتلهم وثيابهم قد ملئت حجارة، علام يدل هذا؟

إنه الاستفادة من الوقت واستغلاله استغلالًا تامًّا، لا تهدر لحظة من اللحظات في غير فائدة، إنهم لم يضيعوا شيئًا من الوقت في الذهاب والإياب، بل استثمروه ليحقق مصالحهم وليدرأ الأخطار عنهم.

لقد استفادوا أيضًا من طبيعة الأرض وسخَّروها لخدمة المسلمين في المعركة، الحجارة المدببة والمحددة سلاح يؤثر على العدو إذا رماه به، وهذا السلاح مبذول لا يكلف شيئًا، يمكن الحصول عليه بسهولة.

لقد فطن المسلمون لاستغلال طبيعة الأرض في حين أن غيرهم لم يستفد منها شيئًا، بل تغير طبيعة الأرض الذي فاجأه أبطل خطته وكل حيلة عنده». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٩].

١٧ ـ في الخطر المحدق، القائد يبث الثقة، ويرسخ اليقين، ويعلق القلوب بالأمل:

يقول الشيخ الغزالي: «وكان الفصل شتاء، والجو باردًا، وهناك أزمة في الأقوات تعانيها المدينة التي توشك أن تتعرض لحصار عنيف، وليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس، فلو تعرَّض المحصور لسَوْراته القابضة فمزالق الاستسلام الذليل أمامه تنجرُّ به إلى الحضيض؛ لذلك اجتهد النبي ﷺ في تدعيم القوى المعنوية لرجاله، حتى يوقنوا بأن الضائقة التي تواجههم سحابة صيف عن قليل تنقشع.

ثم يستأنف الإسلام مسيره بعد، فيدخل الناس فيه أفواجًا، وتندكُّ أمامه معاقل الظلم، فلا يصدر عنها كيد ولا تخشى منها فتنة.

ومن أحكام السياسة أن يقارن هذا الأمل الواسع مراحل الجهد المضني».

[فقه السيرة للغزالي ٣٠٦-٣٠٧].

ويقول د/ فيض الله: «كان النبي ﷺ مستوثقًا من النصر، رغم الخطر الذي طَوَّقَ المدينة، يستشرفه من خلف السُّهُوبِ (الواسعة من الأرض)، ومن وراء السهول، ومن فوق السحاب، كان يتوقعه في كل تحرك له، حتى إنه لما أخذ المِعْوَلَ، فضرب به تلك الصخرة العاتية، التي استعصت على الصحابة، فالتمعت لها أطراف يثرب، أبصر النصر في وميض الالتماعات، لا النصر في وقعة الأحزاب التي تغشتهم بشرها المستطير، وجَمْعها المحتشد، بل في المستقبل القريب والبعيد، في الشرق والغرب، استيقن أن دعوته وفتوحه ستبلغ بلاد الشام، ومدائن العراق، وأبواب صنعاء.

ولا يكاد الفكر يتصور مبلغ وقع هذا القول من الصادق المصدوق ﷺ، في مثل هذه الشدة الخانقة في قلوب الصحابة رضي الله عنهم، بل لا يكاد يُتصور مقدار القوة والطاقة التي تشحن بها نفوسهم، والعزم الماضي المصمم الذي ينبث في هممهم، وكذلك كان شأن الرسول ﷺ، كما هو القاعدة في الإسلام: لا يحرز النصر إلا بعد الابتلاء البين، وبذل منتهى الطوق، ومكابدة المشاق، ومعاندة اليأس، ومصابرة اليقين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف].

«وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا». [وتمامه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا غُلاَمُ ـ أَوْ يَا غُلَيِّمُ ـ أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ»، فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، قَدْ جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا». مسند أحمد ٥/ ١٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما رقم ٢٨٠٣ وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح].

وغني عن البيان، أن إصدار هذه البشائر في هذا الظرف العصيب الرهيب، من معجزات النبوة الخارقة، التي يكرم الله تعالى بها رسله، ويثبت بها فؤادهم، وأفئدة المؤمنين الذين يتبعونهم.

إلى أنها تنطوي على دروس لنا عظيمة، وعِبَر قيمة، وهي أنه ينبغي أن يقارع المؤمن الخطوب، ويغالب اليأس ويدافعه، حتى لا يجد إلى نفسه سبيلًا، ولو كان في متهاوى السيوف، وملتقى الأسنة، فلا يجتمع في قلبه إيمان ويأس: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٢٩-٢٣٠].

١٨ ـ الالتزام الكامل والطاعة المطلقة للقيادة:

يقول د/ الحميدي: «لقد ظهرت طاعة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وتفانيهم في تنفيذ أوامره، فقد بذلوا جهدًا مكثفًا في حفر الخندق، حتى استطاعوا ـ على طوله ـ أن ينجزوه في أيام معدودة، وأن ينجحوا في سبق الكفار وتحصين المدينة قبل مجيئهم». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠٧].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد ظهر هذا ـ أيضًا ـ حينما اعترضت تلك الصخرة في الخندق فكسرت معاول الذين يحفرون في هذه الناحية، وخطر على بالهم العدول عنها وتركها، إلا أن هذا الخاطر لم يُترك له العنان، وكان إحساسهم مرهفًا، إنهم لا يَقدمون على شيء ولا يذرون شيئًا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ، فإن أذن لهم تركوها وإلا فلا، فهو ﷺ أقدر على تقدير الموقف منهم، فإذا قضى أمرًا فليس لهم الخيرة من أمرهم». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٩].

١٩ ـ الفائدة في ربط الحجر على البطن عند الجوع:

يقول د/ أبو فارس: «لقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يوم الخندق كان يربط على بطنه حجرًا من شدة الجوع، فهل لهذا الفعل فائدة؟

نعم إن ربط الحجارة على المعدة الخالية والأمعاء الخالية يخفف من حدة ألم الجوع، قال ابن حجر رحمه الله في فتح الباري [٨/ ٣٩٩]: «وَفَائِدَةُ رَبْطِ الحَجَرِ عَلَى البَطْنِ أَنَّهَا تُضْمِرُ مِنَ الجُوعِ، فَيُخْشَى عَلَى انْحِنَاءِ الصُّلبِ بِوَاسِطَةِ ذَلِكَ، فَإِذَا وَضَعَ فَوْقَهَا الحَجَرَ وَشَدَّ عَلَيْهَا العِصَابَةَ اسْتَقَامَ الظَّهْرُ، وَقَالَ الكَرْمَانِيُّ: لَعَلَّهُ لِتَسْكِينِ حَرَارَةِ الجُوعِ بِبَرْدِ الحَجَرِ؛ وَلِأَنَّهَا حِجَارَةٌ رِقَاقٌ قَدْرُ البَطْنِ تَشُدُّ الأَمْعَاءَ، فَلَا يَتَحَلَّلُ شَيْءٌ مِمَّا فِي البَطْنِ، فَلَا يَحْصُلُ ضَعْفٌ زَائِدٌ بِسَبَبِ التَّحَلُّلِ». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٧-١١٨].

٢٠ ـ الكرم:

يقول د/ أبو فارس: «إن موقف جابر رضي الله عنه يدل على طيب نفسه، وكرم أصله إذ قدم ما يملك ولو كان قليلًا، إنه صاع من شعير وسخلة صغيرة، إنه لا يرهق نفسه ولا يتكلف في الأمر، وهكذا ينبغي أن تكون حياة الدعاة بسيطة في المأكل والمشرب والملبس، حتى يُعلِّموا الناس البساطة والكرم دون تكلف أو تحرج». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٩].

٢١ ـ طيب نفس زوجة جابر رضي الله عنها ووفور عقلها:

يقول د/ أبو فارس: «ظهر هذا حينما دخل جابر رضي الله عنه عليها وقد دعا رسول الله ﷺ أهل الخندق، وقد غلب عليه الحياء لقلة الطعام الذي صنعته امرأته، وشكا لها الأمر بقوله: افتضحتُ، فَقَالَتْ: هَل كَانَ سَأَلَكَ كَمْ طَعَامُكَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَتِ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَدْ أَخْبَرْنَاهُ مَا عِنْدَنَا، قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: فَكَشَفَتْ عَنِّي غَمًّا شَدِيدًا.

لقد أدركتْ زوج جابر رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قد دعا القوم على طعام قليل، ولا يكفي هذا الطعام في الأحوال العادية لعُشر معشارهم، أما وقد دعاهم رسول الله ﷺ فستكون البركة وستكون المعجزة.

إن هذا الفهم والإدراك منها يدل على وفور عقلها وكمال فضلها كما قال ابن حجر رحمه الله في الفتح [٨/ ٤٠١]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٩].

٢٢ ـ الابتلاء طريق النصر:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما أكده القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ووقائع الأحداث مع كل الرسل وخاتمهم محمد ﷺ، وعلى الجماعة المؤمنة التي تترسم خطى الأنبياء أن تعد نفسها لهذا، وألا تضجر من هذه الابتلاءات فهي بمثابة إعداد وتربية للنفوس المؤمنة وتمحيص للصف المؤمن، إذ لابد للنفل أن يسقط وإن كان عاليًا على الشجرة وفي قمتها، ولابد للثمرة الطيبة وإن كانت ملتصقة بالأرض أن تثبت أمام الرياح الهوج حتى تنضج وينتفع بها الناس.

نعم إن الابتلاء هو سنة الله في الدعوات، ولا تبديل لسنة الله». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٣٠].

لقد بذل المسلمون كل ما استطاعوا من أجل أن ينشروا الدين الذي نعتنقه الآن، ولو لم يفعلوا ذلك لقضى الأحزاب على دولة الإسلام في مهدها، وأحسب أن المسلمين الآن الذين يناصرون الإسلام لن ينتصروا على أحزاب العصر الحديث الذين يريدون القضاء على نور الله إلا إذا جدوا وشمروا عن ساعدهم وزجروا نائمهم، ورضوا بحمل التراب على أكتافهم وجلابيبهم كما فعل رسول الله ﷺ وأصحابه.

والابتلاء يدل على المحبة: يقول د/ أبو فارس: «والابتلاء بحد ذاته منحة من الله ﷻ لعباده المؤمنين، والمبتلون هم أحباء الله، ذلك لأن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، ويُبتلى الرجل على قدر دينه، فإن وجد في دينه صلابة زِيد له في البلاء.

ولعل قائلًا يقول ويتساءل مستغربًا: وهل الابتلاء يدل على المحبة فعلًا؟ وكيف يكون ذلك؟ وما أمارته؟

هل حين يوضع الرجل في غياهب السجون والمعتقلات التي لم تدخلها الشمس منذ أن بُنيت ويذوق خلالها من صنوف التعذيب وأهواله ما لا يخطر على قلب بشر، حيث يُكوى بالنار، ويُضرب بسياط الكهرباء، وتُقلع أظافره، ويُضرب على مواطن العفة بقسوة ووحشية، ويُذاب في الأحماض بعضه أو كله، هل هذا كله يدل على حب الله ﷻ للمؤمنين؟!

نعم كل هذا يدل على حب الله للمؤمنين وإلا كيف نفسر ما يلي ونجيب عليه؟!

ألم يؤذ رسل الله جميعًا من الكفار؟!

ألم يدخل يوسف عليه السلام السجن ظلمًا وبهتانًا؟!

ألم يُبَعْ يوسف عليه السلام ويعيش حياة الخدم في قصر عزيز مصر؟!

ألم يُطارد موسى عليه السلام من فرعون الطاغية، الذي أصر على قتله والذين آمنوا معه؟!

ألم يُقتل يحيى عليه السلام إرضاء لبغي من بغايا بني إسرائيل؟!

ألم يُقتل والده زكريا عليه السلام من بني إسرائيل لثباته على الحق؟!

ألم يُطارد اليهود عيسى عليه السلام ويصمموا على قتله إلا أن الله نجاه منهم؟!

ألم يُحكم على خليل الله إبراهيم عليه السلام بالموت حرقًا؟!

ألم يُؤذ نوح عليه السلام من قومه؟!

ألم يعتد أهل مكة على رسولنا محمد ﷺ؟!

ألم يعتد سفهاء أهل الطائف عليه فأدموا جسمه الشريف ﷺ؟!

ألم تتآمر قريش على قتله ﷺ؟!

وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال].

ألم يحاول يهود بني النضير قتله ﷺ غيلة وغدرًا؟!

ألم تضع امرأة يهودية في خيبر السم له ﷺ في الطعام؟!

نعم فما من رسول من رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إلا ابتلي وأوذي من قومه، بل وحاولوا قتله، قال تعالى يقرر هذه الحقيقة: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾[غافر: ٥].

إن الأنبياء أشد الناس بلاء كما قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». [مسند أحمد ٤٥/ ١٠ عن فاطمة عمة أبي عبيدة وأخت حذيفة رقم ٢٧٠٧٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح لغيره وهذا إسناد حسن، ورواه الحاكم ـ صحيح الجامع الصغير: ١٥٦٢، وفي رواية الطبراني في المعجم الكبير: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ**» صحيح الجامع الصغير ٩٩٤ و ٩٩٦، وينظر: صحيح الجامع الصغير رقم ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٥].

وإذا كان كل هذا حدث فماذا يعني؟

إنه الحب من الله كما جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلاهُ لِيَسْمَعَ صَوْتَهُ**».

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ١٤٥، رقم ٩٧٨٨].

تعال معي لنحلل هذا المشهد: والد شديد الحب لولده الصغير ولفرط حبه له يضمه إلى صدره ضمة شديدة لو استطاع أن يدخله ضلوعه لفعل، هذا حال الوالد، فما حال الولد؟ إنه يصرخ متضايقًا باكيًا شاكيًا هذا الأذى.

إن الطفل بفهمه القاصر، وعقله الناقص، وشعوره البدائي البسيط يغضب من أبيه ويظن أنه أراد خنقه وقتله، وربما غضب لهذا بعض الوقت، ونظر إلى أبيه على أنه المعتدي الظالم له.

أقول: هل كان الوالد يريد شرًّا بولده؟!

وهل فَهْمُ الولد يُعَدُّ سليمًا في نظر العقلاء؟!

لاشك أن من عنده أثارة من عقل أو فهم لا يخطر بباله أن الوالد يريد قتل ولده، نعم حصلت المضايقة، لكنها نتيجة حب في صدر الأب.

ولله المثل الأعلى، إن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه.

إن الذين يتضجرون من الابتلاء هم أطفال في تفكيرهم، أطفال في شعورهم، أطفال في تقديرهم للأمور، ينبغي أن يدركوا حقيقة الابتلاء ومغزاه، وأن يتصرفوا بناء على ذلك.

ينبغي أن يستعذبوا كل ما يلاقونه في سبيل الله، ويستقبلوه بنفوس رضية، وقلوب مطمئنة مستسلمة لله رب العالمين.

وختامًا نسأل الله تبارك وتعالى مقلب القلوب والأبصار ومثبتها على ما يختار أن يثبت أقدامنا إن لاقيناه، وأن يثبت قلوبنا على دينه، وإذا أراد بقوم فتنة أن يقبضنا إليه غير فاتنين ولا مفتونين».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٣٠-١٣٣].

٢٣ ـ التحلي بآداب الاستئذان:

يقول د/ الفنيسان: «وجه ذلك أن عددًا من المنافقين كانوا يخرجون من معسكر الرسول ﷺ ويعودون إلى المدينة دون أن يأذن لهم رسول الله ﷺ، فتراهم يحضرون في بعض فترات النهار ليشاهدهم الناس، ويتخلفون عنهم بالليل حيث لا يراهم أحد، وقد ذمهم الله سبحانه على تسللهم وعدم استئذانهم، ومدح في المقابل المؤمنين على ملازمتهم للرسول ﷺ ومرابطتهم في الخندق، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[النور]». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٧-٢٢٨].

٢٤ ـ كانت المشابه بين (أُحُد) و(الأحزاب) دروسًا تربوية للمجتمع المسلم:

يقول الشيخ عرجون: «كانت المشابه التي وصلت هذه الغزوة بغزوة (أُحُد) في أزماتها المستحكمة واستحكام شدائدها الضارية، وقسوتها الشرسة دروسًا تربوية كامنة في أحداث (أحد) ولا سيما في أسبابها، وتجمع لفائف الشرك المزري بالعقول، والوثنية المنحطة من هنا وهناك، وتأهبهم لمهاجمة المجتمع المسلم تأهبًا بلغ أقصى ما يستطاع التأهب به من رجال وأسلحة ومؤن ليستأصلوه ويستأصلوا دعوته إلى توحيد الله وإقامة منائر العدل على طريق الإنسانية في مسيرتها المقدورة لحياتها، ويقفوا مد انتشار الدعوة إلى الله التي حمل لواءها بعد الهجرة مجتمع جديد في تكوينه الروحي والمادي مما أغصَّهم وكشف أغشية قلوبهم وأحرق أكبادهم، وألبسهم لباس الذل والهوان.

بيد أن شدائد (أحد) التي تفتقت عنها وقائعها وأحداثها كانت شدائد تربوية وضعت للمجتمع المسلم ركائز جديدة أقام عليها بناء منهج الرسالة في مستقبل الحياة لتخليص المجتمع المسلم من رواسب التراث الجاهلي الذي كانت آثاره لا تزال قائمة في النفوس، هذا التراث الجاهلي القريب من أنفسهم مما كانت تعتمد عليه الجاهلية في حروبها، وكان هذا التراث يعتمد على القوة المادية وحدها، ولا يعرف غيرها، وهي قوة حشد التجمعات من الرجال، وكثرة السلاح ووفرة المؤن.

وقد كان مظهر هذه القوة المادية التي تصبغ بصبغتها التراث الجاهلي المترسب في حنايا النفوس ماثلًا في غزوة (بدر) و(أحد)، وقد عبَّرت عنه في (بدر) الكتائب المجاهدة بالتعجُّل لإنهاء المعركة قبل أن تبلغ مداها من النصر المؤزر الذي يقضي على قوة العدو قضاء مبرمًا لا تقوم له بعده قائمة، كما كان ماثلًا في الإسراع إلى جمع الغنائم وأخذ الأسرى في (بدر)، وفي عدم الوقوف عند أوامر القائد الأعظم ﷺ، والتسليم المطلق لمتابعة أوامره ووصاياه في (أحد) في سبيل نصر طائر غير مستقر على أرض صلبة لا تسوخ فيها أقدام المجاهدين في مستقبل الحياة وهم يحملون لواء دعوة الحق التي يقوم بناء صرحها على دعائم التوحيد وهدم صروح الشرك والوثنية، وخاصة إذا كان هذا القائد الأعظم هو رسول الله ﷺ المؤيَّد بالوحي، المسدَّد بتوفيق الله، العليم بمنادح الغيب الذي تجب متابعته في جميع أوامره، ووصاياه، متابعة لا ترتد قط إلى شيء من رواسب الجاهلية، تلك الرواسب التي كان من أهداف رسالة الإسلام العمل على تقويضها وتخليص المجتمع المسلم من شوائبها، وتركيبه في عناصره الجديد تركيبًا لا يجعل لتلك الشوائب المادية المظلمة الجاهلية أدنى سلطان في توجيه الوقائع والأحداث التي تتعرض لها رسالة الإسلام في مسيرتها الخالدة.

تذكير ببعض المشابه بين أحد والأحزاب: ولهذا ظهر شيء من التناقض الغريب في مسلك المجتمع المسلم في غزوة (أحد)، وأول ذلك ـ كما قدَّمنا ـ كان في عدم متابعة ما رآه رسول الله ﷺ من البقاء في المدينة، ومقاتلة أعدائه في طرقاتها وأسطح منازلها، حتى استكره المتحمسون للخروج رسول الله ﷺ ليخرج بهم لملاقاة عدوهم خارجها، فكان لهذه المخالفة التي حملت ذِرْوًا من ترسبات التراث الجاهلي، تمثَّل في حماسة الشباب الذين فاتهم فضل (بدر) ـ أكبر الأثر في سير الأحداث التي انتهت بأقسى محنة عرفتها غزوات الإسلام.

ثم جاءت مخالفة جمهور الرماة الذين وضعهم رسول الله ﷺ في أماكنهم ليحموا ظهر الجيش، فإنهم لم يكادوا يلمحون النصر يلوح في ميدان المعركة حتى تركوا أماكنهم وأسرعوا لجمع الغنائم مع المحاربين، ففتحوا بذلك ثغرة للعدو كرَّ منها على كتائب الإسلام، فانفرط عقدهم وشاعت بينهم الفوضى، حتى كان بعضهم يقتل بعضًا بغير علم من شدة ما اعتراهم من الدهش والمفاجأة، ثم فروا عن رسول الله ﷺ وتركوه في ميدان المعركة وحيدًا، وهو يرامي العدو بقوسه، حتى تشظَّت ونفدت سهامها وجعل يرميهم بالحجارة، وهو ثابت في مقامه ما يزول عنه قط.

فكانت هذه المخالفة لأوامر رسول الله ﷺ سببًا آخر في وقوع المحنة التي انتهت بالهزيمة، ثم جاءت المخالفة الثانية، وكانت ممثلة في التزيد في الحب العاطفي لرسول الله ﷺ الذي غطَّى على الحب الإيماني

المرتبط أوثق ارتباط بالمتابعة الصادقة والتسليم لأمر القيادة العظمى الفريدة في تاريخ البشرية، حتى انفلقت شغاف قلوبهم عن أقسى الجزع وأشد الهلع المذهل إثر إرجافة الشيطان وصرخته بأن محمدًا ﷺ قُتل، فلم يملك أحد منهم أن يتماسك ويثبت ويتثبت، ولكنهم أُخذوا عن أنفسهم، وأطلقوا سوقهم مع ريح الهرب لا يلوون على شيء، ورسول الله ﷺ في أخراهم يدعوهم (إليَّ، إليَّ) ليردهم إلى مواقفهم من المعركة، ثم تتابعت الحوادث الممحِّصة في أزماتها وشدائدها ومحنها بسرعة مذهلة لم تترك نَفَسًا يتردد، ولا سلامة إدراك لعقل يفكر، ولا لبطولة شجاع تظهر، ولا لبأس بئيس يفرِّج هذه الضوائق التي نزلت بكوارثها على كتائب الإسلام.

وقد نزل برسول الله ﷺ من البلاء والجراحات ما لم ينزل بأحد، فكان عبء هذه المعركة القاسية بأحداثها ووقائعها المريرة بآثارها على كاهله وحده ﷺ، حتى فاءت إليه فئة من ذوي البأس وصدق الإيمان بعد أن فاءت إليهم أنفسهم وذهب عنهم بعض ما عانوه من الهول المفزع، فأقبلوا إليه ﷺ الواحد تلو الواحد، ووقفوا يذودون عنه ﷺ حتى انصرف العدو عن ميدان القتال، ثم انصرف المسلمون إلى رحالهم ومنازلهم يكمدون جراحهم ويلتقطون أنفاسهم، وعادت إليهم نفحات الإيمان وعادت إليهم قوة عزائمهم، ووقر الدرس التربوي في نفوسهم حتى كان مسيرهم إلى حمراء الأسد وجراحهم تقطر دمًا، وكان هذا المسير مجدِّدًا لحياتهم وميلادًا جديدًا لهم.

وهكذا كانت دروس (أحد) في مرارة أزماتها لونًا من التربية البطولية التي لم تهزها أعاصير الهزيمة، فأفاد منها المجتمع المسلم ما كان له قوة جددت عزائم أفراده، ورفعت شأو إيمانه برسالته ودعوته إلى الحق والخير، وأخرجته نضيج الشخصية راسخ اليقين من أتون الرواسب الجاهلية التي ورثها فيما ورث من تراث هذه الجاهلية التي لم تكن ترى قوة في الحياة يقع بها التغالب سوى القوة المادية، وعلَّمته أن كتائب الإيمان لا تحارب أعداءها من فُجَّار الكفر بالقوة المادية وحدها، وإنما تحاربهم بقوة الإيمان بعقيدتها وحب التضحية بما تملك من نفس ومال في سبيل إقامة صرحها الذي يعتمد على ركائز المبادئ الإنسانية الرفيعة.

وهذا المعنى التربوي في منهج الرسالة هو الذي رسخه درس (أحد) في نفوس أفراد المجتمع المسلم، وهو الذي كان عدة هذا المجتمع في غزوة (الأحزاب).

كانت غزوة الأحزاب مدرسة تربية لا تنزل في مستواها التربوي عن مستوى مدرسة (أحد)، لكن دروس غزوة (الأحزاب) كانت دروسًا من لون آخر غير ألوان دروس (أُحُد)؛ لأن دروس (أحد) كانت

لتربية روح اليقظة البطولية الصابرة على بأساء الحرب وعض السيوف ومشارفة الموت في سبيل نشر الرسالة والدعوة إلى الله، والركون إلى صدق المتابعة لأوامر القيادة العظمى، والتحذير الزاجر من مخالفة أوامر هذه القيادة، ومحبتها محبة إيمانية لا تتزيد بثوران العواطف البشرية التي مسها طائف من الإرجاف المتكذِّب فخفَّ ثقلها في ميزان الصبر على لأواء المحن وكوارث البلاء، وانقلبت انتصاراتها هزائم، وباءت بالفشل ناكصة على أعقابها فرارًا من الموت، ولم تثبت فيها إلا قدم رسول الله ﷺ.

كانت دروس الأحزاب تربية نفسية للمجتمع المسلم في مستقبل حياته:

أما دروس (الأحزاب) فكانت تربية نفسية، تستهدف الصبر المرير على المحن النفسية من الجوع المُقعد، وفقدان الزاد الموئس، والدأب على أشق الأعمال في حصار مضروب مستحكم من العدو، يملك على كتائب المجاهدين منافذ الحياة، مع مكايد المنافقين ودسائسهم الخبيثة وتسللهم لِواذًا متعللين بالأكاذيب الفاجرة، إلى جانب حماية النساء والعجزة والأطفال، وهم من وراء المجاهدين في آطام المدينة وحصون المنازل، خوفًا عليهم من غدر اليهود وخياناتهم.

وقد كان لهذه الدروس القاسية أعظم الأثر في موقف المجتمع المسلم أمام أعدائه في قوتهم المادية الهائلة التي أعدوها لمهاجمة المجتمع المسلم في داره ومدينته». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٣٧-١٤١].

وفاء خزاعة لرسول الله ﷺ وإشارة سلمان ﷺ بحفر الخندق:

يقول الشيخ عرجون: «ولما استكمل الأحزاب تجمعهم، وأعدوا للسير عدته سبقهم ركب من خزاعة ـ وكانوا عَيْبة رسول الله ﷺ وأصحاب سرِّه، لا يخفون عليه شيئًا يتعلق بموقفه وموقف أعدائه إلا أعلموه به ـ فخرج هذا الركب إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ فيخبره القوم، وأغذ الركب الخزاعي السير كأنما يطوي الأرض طيًّا، فوصل إلى المدينة في أربعة أيام، فأخبروه بما علموا من علم القوم الذي تحزبوا عليه وعلى مجتمعه، فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الأمر: أيبرز من المدينة خارجها أم يبقى فيها يحارب أعداءه في مداخلها وطرقاتها وأسطح منازلها؟ فأشار سلمان ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فأعجب ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وأجابوا مغتبطين، وأحبوا الثبات في مدينتهم ليلقوا عدوهم في مداخلها، وأمرهم رسول الله ﷺ بالجد في حفر الخندق، والجد في حرب العدو الذين تحزبوا لقتالهم، وجاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ووعدهم رسول الله ﷺ بالنصر ـ إن هم صبروا، واستعانوا بالله في جهادهم لإعلاء كلمة الله.

هذا موقف من مواقف المشابهة التي كانت بين (أحد) وأحداثها، وبين (الأحزاب) ووقائعها، وهو موقف يمثل أصدق تمثيل ما أفاده الصحابة من أول درس في غزوة (أحد)، إذ فريق منهم خالفوا رأي

رسول الله ﷺ في بقائه في المدينة ومقاتلة عدوه في مداخلها وطرقاتها، وهم الذين لم يدركوا فضل الجهاد في (بدر)، وكان أكثرهم شبابًا تغلب عليه الحماسة، فأبوا البقاء في المدينة، وتهيؤوا للخروج لملاقاة العدو خارجها خشية أن يُزَنُّوا بالجبن والخوف من مجابهة عدوهم، فيُعَيَّروا بذلك من أعدائهم، واستكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج بهم لملاقاة عدوهم خارج المدينة، فكانت هذه المخالفة عنصرًا من عناصر أسباب ما أصابهم من المحن والبلاء في غزوة (أحد).

إفادة المجاهدين في غزوة الأحزاب من موقفهم في (أحد):

ولكن هذا الموقف بعينه يتجدد في غزوة (الأحزاب) فيشاور رسول الله ﷺ أصحابه المجاهدين هل يخرج بهم إلى عدوهم لملاقاته خارج المدينة؟ أو يبقى في طرقاتها وأسطح منازلها؟ وبهذا يتيح فرصة لكل مسلم كبير أو صغير، رجل أو امرأة أن يكون له نصيب في جهاد القتال، فالرجال المحاربون يقاتلون المهاجمين من الأعداء في طرقات المدينة وأزقتها ومداخلها، والنساء والأطفال يقذفونهم بالحجارة من فوق أسطح المنازل ومنافذ البيوت.

وهنا يتغير الموقف، ويتذكَّر الذين كانوا خالفوا رسول الله ﷺ في غزوة (أحد) وصمموا على الخروج لملاقاة عدوهم خارج مدينتهم، ويتذكروا ـ أيضًا ـ ما كان من آثار ضارة لحقت بالمجتمع المسلم من جراء موقفهم المخالف لرأي رسول الله ﷺ في (أحد)، فيرغبوا في البقاء في المدينة وملاقاة عدوهم في مداخلها وطرقاتها، وزادهم غبطة بهذا الموقف وتمسكًا به أن سلمان الفارسي ﷺ أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فأعجبوا بالفكرة وأحبوا الثبات بالمدينة.

وجَدُّوا في حفر الخندق، وبذلوا فيه جهدًا مضاعفًا حتى أكملوه قبل أن يصل إليهم العدو بحشوده، فلما وصل ورأى الخندق وقف دَهِشًا مذهولًا، ولم يستطع الوصول إلى مجابهتهم والاشتباك معهم في قتال ميداني، واكتفى بالحصار يشتد فيه ويحيك حلقاته، فاحتمله المجاهدون بصبر وقوة عزيمة أرغموا بها العدو على الرحيل بعد طول انتظار أجهده دون أن ينال منهم نَيْلًا، بل كانوا هم الذين نالوا منه ما أدمى قلوبهم بقتل بعض صناديدهم وفرسانهم الذين أقحموا خيولهم، وأجالوها في بعض مواضعه، فنزل إليهم أبطال الإسلام علي والزبير وغيرهما فجندلوهم وقضوا عليهم، فقتل عليٌّ ﷺ عمرو بن عبد ود، وقتل الزبير ﷺ نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي.

هذا درس من دروس (أحد) أفاد منه المجاهدون في (الأحزاب) إذ كان في (أحد) سببًا من أسباب ما نزل بالمجاهدين من البلاء والمحن، وكان في (الأحزاب) عنصرًا من عناصر النصر الذي أيد الله به رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو درس خرج منه المجاهدون أصفى معدنًا وأقوى عزيمة وأرسخ إيمانًا وأهدى

سبيلًا؛ لأنهم صدقوا في متابعتهم لرسول الله ﷺ فنصرهم الله نصرًا عزيزًا أدال لهم به من أعدائهم».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٤٦-١٤٨].

ويقول د/ أبو خليل: «ومن الملاحظ أن الجو العام قبيل غزوة الخندق وأثناءها، يختلف اختلافًا كليًّا عن أجواء غزوة أُحُد، فهنا ـ في الخندق ـ التفاؤل والبِشر والحديث عن النصر الأكيد، رغم الخطر المحدق، وهناك ـ في أُحُد، الحذر والتنبيه والتركيز على عدم العصيان والمخالفة.

في الخندق، النصر الأكيد يلوح في الأفق، وانهزام الأحزاب أمر قرَّره رسول الله ﷺ مسبقًا وكأنه واقع ملموس:

(١) أمر ﷺ المسلمين بالجد، ووعدهم النصر إن هم صبروا.

(٢) «**أعطيت مفاتيح اليمن، أعطيت مفاتيح الشام والمغرب، أعطيت مفاتيح فارس، هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان، أخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا**». فاستبشر المسلمون.

(٣) «**أبشروا بعون الله ونصره إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح، وليهلكن كسرى وقيصر، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده**».

(٤) «**والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة**».

(٥) حتى وبعد نقض بني قريظة عهدهم مع المسلمين: «**أبشروا يا معشر المسلمين نصرة الله تعالى وعونه**»، «**أبشروا بفتح الله ونصره**».

(٦) «**إن الله يرسل عليهم ريحًا وجنودًا، شكرًا.. شكرًا!**» وعرف السرور في وجهه الكريم ﷺ.

وأتبع ﷺ كل هذه البشائر بنبوءة حققها الله ﷻ عام ثمانية من الهجرة عند فتح مكة: «**لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**». [السيرة الحلبية ٢/ ٣٥١، السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٣١، الكامل في التاريخ ٢/ ١٢٦]. [غزوة الخندق لأبي خليل ١٥٥-١٥٦].

٢٥ ـ أهمية التربية التجريبية الواقعية:

يقول أ/ سيد قطب: «في معترك الحياة ومصطرع الأحداث كانت الشخصية المسلمة تُصاغ، ويومًا بعد يوم وحدثًا بعد حدث كانت هذه الشخصية تنضج وتنمو، وتتضح سماتها، وكانت الجماعة المسلمة التي تتكون من تلك الشخصيات تبرز إلى الوجود بمقوماتها الخاصة، وقيمها الخاصة، وطابعها المميز بين سائر الجماعات.

وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى لتبلغ أحيانًا درجة الفتنة، وكانت فتنة كفتنة الذهب، تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها، فلا تعود خليطًا مجهول القيم.

وكان القرآن الكريم يتنزل في إبان الابتلاء أو بعد انقضائه، يصور الأحداث، ويلقي الأضواء على منحنياته وزواياه، فتنكشف المواقف والمشاعر، والنوايا والضمائر، ثم يخاطب القلوب وهي مكشوفة في النور، عارية من كل رداء وستار، ويلمس فيها مواضع التأثر والاستجابة، ويربيها يومًا بعد يوم، وحادثًا بعد حادث، ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد.

ولم يترك المسلمون لهذا القرآن، يتنزل بالأوامر والنواهي، وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة، إنما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات، والفتن والامتحانات، فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لا تُصاغ صياغة سليمة، ولا تنضج نضجًا صحيحًا، ولا تصح وتستقيم على منهج إلا بذلك النوع من التربية التجريبية الواقعية، التي تحفر في القلوب، وتنقش في الأعصاب، وتأخذ من النفوس وتعطي في معترك الحياة ومصطرع الأحداث.

أما القرآن فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع ودلالته، وليوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة، ساخنة بحرارة الابتلاء، قابلة للطَّرْق، مطاوعة للصياغة!

ولقد كانت فترة عجيبة حقًّا تلك التي قضاها المسلمون في حياة الرسول ﷺ فترة اتصال السماء بالأرض اتصالًا مباشرًا ظاهرًا، مبلورًا في أحداث وكلمات، ذلك حين كان يبيت كلُّ مسلم وهو يشعر أن عين الله عليه، وأن سمع الله إليه، وأن كل كلمة منه وكل حركة، بل كل خاطر وكل نية، قد يصبح مكشوفًا للناس، يتنزل في شأنه قرآن على رسول الله ﷺ.

وحين كان كل مسلم يحس الصلة المباشرة بينه وبين ربه، فإذا حَزَبه أمر، أو واجهته معضلة، انتظر أن تُفتح أبواب السماء غدًا أو بعد غد ليتنزل منها حل لمعضلته، وفتوى في أمره، وقضاء في شأنه.

وحين كان الله سبحانه بذاته العلية، يقول: أنت يا فلان بذاتك قلت كذا، وعملت كذا، وأضمرت كذا، وأعلنت كذا، وكن كذا، ولا تكن كذا.. ويا له من أمر هائل عجيب! يا له من أمر هائل عجيب أن يوجه الله خطابه المعين إلى شخص معين.. هو وكل من على هذه الأرض، وكل ما في هذه الأرض، وكل هذه الأرض ذرة صغيرة في ملك الله الكبير!

لقد كانت فترة عجيبة حقًّا، يتملاها الإنسان اليوم، ويتصور حوادثها ومواقفها، وهو لا يكاد يدرك كيف كان ذلك الواقع، الأضخم من كل خيال!

ولكن الله لم يدع المسلمين لهذه المشاعر وحدها تربيهم، وتنضج شخصيتهم المسلمة، بل أخذهم بالتجارب الواقعية، والابتلاءات التي تأخذ منهم وتعطي، وكل ذلك لحكمة يعلمها، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

هذه الحكمة تستحق أن نقف أمامها طويلًا، ندركها ونتدبرها، ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبير.

وهذا المقطع من سورة الأحزاب يتولى تشريح حدث من الأحداث الضخمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وفي تاريخ الجماعة المسلمة، ويصف موقفًا من مواقف الامتحان العسيرة، وهو غزوة الأحزاب، في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة، الامتحان لهذه الجماعة الناشئة، ولكل قيمها وتصوراتها.

ومن تدبر هذا النص القرآني، وطريقة عرضه للحادث، وأسلوبه في الوصف والتعقيب، ووقوفه أمام بعض المشاهد والحوادث، والحركات والخوالج، وإبرازه للقيم والسنن، من ذلك كله ندرك كيف كان الله يربي هذه الأمة بالأحداث والقرآن في آن.

إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص، وأعيان الذوات؛ ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع، ويُغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع؛ ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية، هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص، ولا تنقضي بانقضاء الملابسات، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلًا لكل جيل ولكل قبيل.

ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير.

ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها، وشهدوا أحداثها، فإنه كان يزيدهم بها خُبرًا، ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها! ويلقي الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر، ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة في أعماق الصدور.

ذلك إلى جمال التصوير، وقوته، وحرارته، مع التهكم القاصم، والتصوير الساخر للجبن والخوف والنفاق والتواء الطباع! ومع الجلال الرائع والتصوير الموحي للإيمان والشجاعة والصبر والثقة في نفوس المؤمنين.

إن النص القرآني مُعَدٌّ للعمل ـ لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب، ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي كل تاريخ، مُعَدٌّ للعمل في النفس البشرية إطلاقًا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة، والبيئات المنوعة، بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولى.

ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التي واجهتها أول مرة، هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة، وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات، وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها، تنتفض خلائق حية، موحية، دافعة، دافقة، تعمل في واقع الحياة، وتدفع بها إلى حركة حقيقية، في عالم الواقع وعالم الضمير.

إن القرآن ليس كتابًا للتلاوة ولا للثقافة.. وكفى.. إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة، وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة، متى وَجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب!

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات، ثم يقف الموقف، أو يواجه الحادث، فإذا النص القرآني جديد، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط، ويجيب على السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه، وإلى الاطمئنان العميق.

وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث». [في ظلال القرآن لقطب ٥/ ٢٨٣١-٢٨٣٢، ٢٨٣٥-٢٨٣٦].

المبحث الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ حكم مشاورة الإمام لأهل الحل والعقد:

وكان ذلك في مشاورته ﷺ للصحابة ﷺ في كيفية صد المشركين بعد علمه باستعداداتهم.

وقد سبق تفصيلها في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى، وغيرها.

٢ ـ جواز الأخذ عن غير المسلمين فيما ليس من الدين:

يقول د/ أبو فارس: «لقد علمنا أن فكرة حفر الخنادق حول المدن فكرة فارسية كما صرح بذلك سلمان ﷺ لرسول الله ﷺ، وأخذ بها ﷺ مع علمه بذلك، وهذا دليل على مشروعية الأخذ عن غير المسلمين في وسائل الحرب وخططها، ما دامت هذه الوسائل والخطط في صالح المسلمين، والأخذ بها يعجل في النصر». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٧].

ويقول د/ بربر: «لا يوجد مانع من الاستفادة من غير المسلمين في الخبرات العسكرية إذا كانت لديهم خبرات يمكن الاستفادة منها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**».

[الترمذي في العلم عن رسول الله ﷺ (٢٦٨٧)، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه، وقال الشيخ الألباني: ضعيف جدًّا].

والوسائل إن استخدمت في باطل فلها حكمه، وإن استخدمت في حق فلها حكمه، تضبطها قاعدة شرعية: للوسائل حكم المقاصد. [الفروق للقرافي ٣/ ٤].

وفقه الوسائل من أسباب التمكين المبني على السنن، ولن تجد لسنة الله تبديلًا ولا تحويلًا.

والحكم على الوسيلة باعتبار غلبة المصلحة أو المفسدة.

[قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام ١/ ٤٦].

وقد وردت مواقف تدل على مشروعية الاستفادة من وسائل غير المسلمين وتجاربهم، وخبراتهم العسكرية في الحروب، والأخذ بالأسباب المادية الجالبة للنصر.

ففي غزوة الأحزاب استفاد النبي ﷺ من تجربة الفرس في حفر الخنادق، لما ذكرها الصحابي الجليل سلمان الفارسي ﷺ.

فحفر الخنادق خبرة عسكرية فارسية، جاء بها سلمان ﷺ، فرضي بها النبي ﷺ؛ لما يتحقق بها من مصلحة للمسلمين.

فلا مانع من الاستفادة من تقنيات الأمم الأخرى وخبراتهم، بشرط ألا تخل باستقلالية الأمة وتميزها، فالميدان في هذه المعارف والتقنيات مفتوح للمنافسة، وكل أمة تبدأ من حيث انتهى مَنْ سبقها، وتبني دراساتها على تجارب غيرها.

وقد أخذ عمر بن الخطاب ﷺ ترتيب دواوين الجند من الفرس؛ لأن فيه مصلحة للمسلمين.

قال الماوردي: « والديوان: موضع لحفظ ما يتعلّق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمّال. [الديوان: هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء، وأوّل من دوّن الدواوين عمر وهو فارسيّ معرَّب. النهاية ٢/ ١٥٠].

وأول من وضع الديوان في الإسلام عمر بن الخطاب ﷺ.

واختلف الناس في سبب وضعه له، فقال قوم: سببه أن أبا هريرة ﷺ قدِمَ عليه بمال من البحرين، فقال له عمر: ماذا جئت به؟ فقال: خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر فقال له: أتدري ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألفٍ خمس مرات، فقال عمر: أطيب هو؟ فقال: لا أدري، فصعد عمر ﷺ المنبر، فحمد الله تعالى وأثني عليه، ثم قال: أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلًا، وإن شئتم عددنا لكم عدًّا، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانًا لهم، فدوّن أنت لنا ديوانًا.

وقال آخرون: بل سببه أن عمر ﷺ بعث بعثًا، وكان عنده الهرمز، فقال لعمر ﷺ: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلَّف منهم رجل وآجل بمكانيه، فمن أين يعلم صاحبك به، فأثبت لهم ديوانًا، فسأله عن الديوان حتى فسَّره لهم.

[ينظر: مصنَّف ابن أبي شيبة (٣٢٨٦٤)، والسنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣٤٩].

وروى عابد بن يحيى عن الحارث بن نفيل أن عمر ﷺ استشار المسلمين في تدوين الديوان، فقال له عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من المال، ولا تمسك منه شيئًا.

وقال عثمان بن عفان ﷺ: أرى مالًا كثيرًا يتبع الناس، فإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر.

فقال خالد بن الوليد ﷺ: قد كنت بالشام فرأيت ملوكها قد دوَّنوا ديوانًا، وجنَّدوا جنودًا، فدوَّن ديوانًا وجنِّد جنودًا، فأخذ بقوله، ودعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وكانوا من شباب قريش وقال: اكتبوا الناس على منازلهم...». [الأحكام السلطانية للماوردي ٢٩٧-٢٩٨].

وقال الشيخ رشيد رضا: «وأما أخذ العلوم والفنون وأصول الصنائع عنهم فلا محذور وراءه، ولا محظور أمامه، ومن هي في أيديهم الآن من أهل المغرب أخذوها منا، فهذبوا ونقحوا واستنبطوا، وكنا

أخذناها من غيرنا فهذبناها ونقحنا، نعم لم نصل إلى مداهم وغايتهم التي انتهوا إليها الآن في استثمارها، واستدرار ضروع أنعامها، ولا نيأس من روح الله في السبق عند الكرة الأخرى ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولا التفات لسفهاء الأحلام، المستغرقين في أودية الأحلام حيث يغمزون الناظرين في تلك الفنون ويلمزونهم، ولا شبهة لهم إلا أن من تُنقل عنهم ليسوا من المسلمين ...

فإن شرعًا أساسه الحكمة، ودعامته الفضيلة، وغايته سعادة الدارين والظفر بالحسنيين، يأمر بسلوك الجادة، وعدم الاستنكاف عن الاستفادة». [مجلة المنار ١/ ٥٥٢-٥٥٣].

الأمة الإسلامية في هذا العصر، وقعت بين فريقين متناقضين في الحكم على ما جاء من وسائل من الأمم الأخرى، فريق مغالٍ يرفض كل ما جاء من الأمم الأخرى، ليس له شيء إلا أنه جاء منهم، حتى لو لم يخالف شيئاً من عقيدتنا وشريعتنا، وفريق آخر مفرط يدعو للأخذ بكل ما جاء عنهم، حتى لو خالف عقيدتنا وشريعتنا، وكلاهما على غير الصواب، والقليل النادر هو من يزن ما جاء من تلك الأمم بميزان الشريعة، فما خالفها رُدَّ ولا كرامة، وما استطعنا تهذيبه حتى يصبح غير مخالف للشريعة هُذب وشُذب وعملنا به، وما لم يخالفها أخذناه وانتفعنا به، وهذا هو الموقف الوسط والصحيح، والله أعلم».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٤٩-٢٥١، وينظر درس: الحكمة ضالة المؤمن، من الدروس التربوية والأخلاقية، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٩٢-٣٠١].

٣ ـ جواز التجسس على الأعداء، وهو من قبيل الأخذ بالأسباب:

سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

[وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٥٢-٢٥٥].

٤ ـ جواز استعارة السلاح ولوازمه من غير المسلم:

يقول د/ الفنيسان: «استعار رسول الله ﷺ يوم الخندق من يهود بني قريظة ـ قبل أن ينقضوا عهدهم ـ عددًا من المساحي والمكاتل لاستخدامها في الحفر، كما ثبت في السنة أيضًا، أن النبي ﷺ استعار من صفوان بن أمية أدرعًا في غير هذه الغزوة (حُنَيْن)». [ينظر: مسند أحمد ٣/ ٤٠١] [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢١٩].

٥ ـ جواز التحالف مع غير المسلمين إن أمنوا جانبهم:

سبق تفصيله في الدروس المستفادة من غزوة الأبواء ٢ هـ.

٦ ـ يستحب البدء بالبسملة:

يقول د/ أبو فارس: «ويستفاد من حديث ضربة المعول أمر هو استحباب البدء بالبسملة عند أي عمل؛ ذلك لأن البسملة تُبارك في العمل، فكل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر أو أجذم.

أُخذ هذا الحكم من ذكر النبي ﷺ اسم الله قبل أن يضرب الصخرة بالمعول».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٠].

٧ ـ مشروعية تغيير الأسماء القبيحة بأسماء حسنة:

يقول د/ الفنيسان: «وذلك أن رجلًا من الصحابة يُدعى «جعيل بن سراقة» وقد أبدى نشاطًا في حفر الخندق، وكان ﷺ قصيرًا دميم الخِلقة، فسماه رسول الله ﷺ «عمرو»، فجعل الصحابة يرتجزون بهذا كما سبق بيانه. [ينظر: الإصابة ١/ ٢٣٩، وسيرة ابن هشام ٢/ ٢١٧]. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢١٩].

ويقول د/ بربر: «فيسن أن تغير الأسماء القبيحة إلى أسماء حسنة.

[المجموع للنووي ٨/ ٣٢٨، والمهذب للشيرازي ١/ ٢٤٢، ومغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٩٤].

وقد غير ﷺ أسماء رجال ونساء كانت أسماؤهم قبيحة.

وقد بين النبي ﷺ أن العلة في تغيير الأسماء هي: التزكية، أو خوف التطير.

[تحفة الأحوذي للمباركفوري ٨/ ١٠٣].

وتغيير الاسم إلى غيره تدور عليه الأحكام الخمسة :

فيكون التغيير واجبًا: في حق من تَسَمَّى باسم ينافي عقيدة الإسلام : كعبد العزى، وعبد هبل، وعبد الكعبة، وغيرها. [ينظر: الفروع لابن مفلح ٣/ ٤٠٩].

قال ابن حزم : «اتفقوا على استحسان الأسماء المضافة إلى الله، كعبد الله وعبد الرحمن وما أشبه ذلك، واتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد العزى وعبد هبل وعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب». [ينظر: الفروع لابن مفلح ٣/ ٤٠٩].

ويكون التغيير مستحبًّا : إذا كان في الاسم تزكية، أو كان يحصل بالاسم تشاؤم.

ويباح التغيير: كتغيير الاسم إلى مثله، كتغيير عبد الرحمن إلى عبد الله، ونحو ذلك.

ويُكره التغيير: كتغيير اسم حسن إلى اسم مكروه، كتغيير سعيد إلى رباح، ونحو ذلك.

ويحرم التغيير: كتغيير اسم جائز ولو مع كراهة إلى اسم محرم، كتغيير رباح إلى عبد المسيح، ونحو ذلك». [الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٠١-٢٠٣].

ونظرًا لأهمية هذه المسألة، ولاستهتار الناس بهذا الأمر، فقد اهتم العلماء قديمًا وحديثًا بقضية اختيار الأسماء وتغييرها، وقد استفاض الإمام ابن القيم في عرض هذه المسألة، فأعرضها كاملة لأهميتها في حياتنا المعاصرة.

يقول الإمام ابن القيم: « **فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي الْأَسْمَاءِ وَالْكُنَى:**

ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللهُ**».

وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةُ**».

وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تُسَمِّيَنَّ غُلَامَكَ يَسَارًا وَلَا رَبَاحًا وَلَا نَجِيحًا وَلَا أَفْلَحَ؛ فَإِنَّكَ تَقُولُ: أَثَمَّتَ هُوَ؟ فَلَا يَكُونُ، فَيُقَالُ: لَا**».

وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ «غَيَّرَ اسْمَ عَاصِيَةَ، وَقَالَ: أَنْتِ جَمِيلَةٌ»، وَكَانَ اسْمُ جويرية بَرَّةَ، فَغَيَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِاسْمِ جويرية، وَقَالَتْ زينب بنت أم سلمة: نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُسَمَّى بِهَذَا الِاسْمِ، فَقَالَ: «**لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمُ اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ**»، «وَغَيَّرَ اسْمَ أَصْرَمَ بِزُرْعَةَ»، «وَغَيَّرَ اسْمَ أَبِي الْحَكَمِ بِأَبِي شُرَيْحٍ»، «وَغَيَّرَ اسْمَ حَزْنٍ جَدِّ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَجَعَلَهُ سَهْلًا، فَأَبَى وَقَالَ: السَّهْلُ يُوطَأُ وَيُمْتَهَنُ.

قَالَ أبو داود: «وَغَيَّرَ النَّبِيُّ ﷺ اسْمَ الْعَاصِ وَعَزِيزٍ وَعَتَلَةَ وَشَيْطَانٍ وَالْحَكَمِ وَغُرَابٍ وَحُبَابٍ وَشِهَابٍ، فَسَمَّاهُ هِشَامًا، وَسَمَّى حَرْبًا سِلْمًا، وَسَمَّى الْمُضْطَجِعَ الْمُنْبَعِثَ وَأَرْضًا تُسَمَّى عَفْرَةَ سَمَّاهَا خَضِرَةً، وَشِعْبَ الضَّلَالَةِ سَمَّاهُ شِعْبَ الْهُدَى، وَبَنُو الزِّنْيَةِ سَمَّاهُمْ بَنِي الرِّشْدَةِ، وَسَمَّى بَنِي مُغْوِيَةَ بَنِي رِشْدَةَ».

اخْتِيَارُ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَةِ لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ قَوَالِبُ لِلْمَعَانِي: فَصْلٌ فِي فِقْهِ هَذَا الْبَابِ:

لَمَّا كَانَتِ الْأَسْمَاءُ قَوَالِبَ لِلْمَعَانِي، وَدَالَّةً عَلَيْهَا، اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا ارْتِبَاطٌ وَتَنَاسُبٌ، وَأَنْ لَا يَكُونَ الْمَعْنَى مَعَهَا بِمَنْزِلَةِ الْأَجْنَبِيِّ الْمَحْضِ الَّذِي لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِهَا، فَإِنَّ حِكْمَةَ الْحَكِيمِ تَأْبَى ذَلِكَ، وَالْوَاقِعُ يَشْهَدُ بِخِلَافِهِ، بَلْ لِلْأَسْمَاءِ تَأْثِيرٌ فِي الْمُسَمَّيَاتِ، وَلِلْمُسَمَّيَاتِ تَأَثُّرٌ عَنْ أَسْمَائِهَا فِي الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، وَالْخِفَّةِ وَالثِّقَلِ، وَاللَّطَافَةِ وَالْكَثَافَةِ كَمَا قِيلَ:

وَقَلَّمَا أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ ... إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِهْ

«وَكَانَ ﷺ يَسْتَحِبُّ الِاسْمَ الْحَسَنَ، وَأَمَرَ إِذَا أَبْرَدُوا إِلَيْهِ بَرِيدًا أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الِاسْمِ حَسَنَ الْوَجْهِ».

وَكَانَ ﷺ يَأْخُذُ الْمَعَانِيَ مِنْ أَسْمَائِهَا فِي الْمَنَامِ وَالْيَقَظَةِ كَمَا «رَأَى أَنَّهُ وَأَصْحَابَهُ فِي دَارِ عُقْبَةَ بْنِ رَافِعٍ، فَأُتُوا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابَ، فَأَوَّلَهُ بِأَنَّ لَهُمُ الرِّفْعَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَاقِبَةَ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ الدِّينَ الَّذِي قَدِ اخْتَارَهُ اللهُ لَهُمْ قَدْ أَرْطَبَ وَطَابَ، وَتَأَوَّلَ سُهُولَةَ أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ مِنْ مَجِيءِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو إِلَيْهِ».

«وَنَدَبَ جَمَاعَةً إِلَى حَلْبِ شَاةٍ، فَقَامَ رَجُلٌ يَحْلُبُهَا، فَقَالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**» قَالَ: مرة، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَقَامَ آخَرُ، فَقَالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**» قَالَ: أَظُنُّهُ حرب، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَقَامَ آخَرُ، فَقَالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**»، فَقَالَ: يعيش، فَقَالَ: «احْلُبْهَا».

وَكَانَ يَكْرَهُ الْأَمْكِنَةَ الْمُنْكَرَةَ الْأَسْمَاءِ وَيَكْرَهُ الْعُبُورَ فِيهَا، كَمَا مَرَّ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَسَأَلَ عَنِ اسْمَيْهِمَا، فَقَالُوا: فَاضِحٌ وَمُخْزٍ، فَعَدَلَ عَنْهُمَا، وَلَمْ يَجُزْ بَيْنَهُمَا.

وَلَمَّا كَانَ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ وَالْمُسَمَّيَاتِ مِنَ الِارْتِبَاطِ وَالتَّنَاسُبِ وَالْقَرَابَةِ مَا بَيْنَ قَوَالِبِ الْأَشْيَاءِ وَحَقَائِقِهَا، وَمَا بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ عَبَرَ الْعَقْلُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا إِلَى الْآخَرِ كَمَا كَانَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ وَغَيْرُهُ يَرَى الشَّخْصَ، فَيَقُولُ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اسْمُهُ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَلَا يَكَادُ يُخْطِئُ، وَضِدُّ هَذَا الْعُبُورُ مِنَ الِاسْمِ إِلَى مُسَمَّاهُ كَمَا سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ رَجُلًا عَنِ اسْمِهِ، فَقَالَ: جمرة، فَقَالَ: وَاسْمُ أَبِيكَ؟ قَالَ: شهاب، قَالَ:

مِمَّنْ؟ قَالَ: مِنَ الْحُرَقَةِ، قَالَ: فَمَنْزِلُكَ؟ قَالَ: بِحَرَّةِ النَّارِ، قَالَ: فَأَيْنَ مَسْكَنُكَ؟ قَالَ: بِذَاتِ لَظَى، قَالَ: اذْهَبْ فَقَدِ احْتَرَقَ مَسْكَنُكَ، فَذَهَبَ فَوَجَدَ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، فَعَبَرَ عمر مِنَ الْأَلْفَاظِ إِلَى أَرْوَاحِهَا وَمَعَانِيهَا، كَمَا عَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اسْمِ سُهَيْلٍ إِلَى سُهُولَةِ أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، فَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ بِتَحْسِينِ أَسْمَائِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهَا، وَفِي هَذَا ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ تَنْبِيهٌ عَلَى تَحْسِينِ الْأَفْعَالِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَحْسِينِ الْأَسْمَاءِ؛ لِتَكُونَ الدَّعْوَةُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ بِالِاسْمِ الْحَسَنِ، وَالْوَصْفِ الْمُنَاسِبِ لَهُ.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ اشْتُقَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَصْفِهِ اسْمَانِ مُطَابِقَانِ لِمَعْنَاهُ، وَهُمَا أَحْمَدُ وَمُحَمَّدٌ، فَهُوَ لِكَثْرَةِ مَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مُحَمَّدٌ، وَلِشَرَفِهَا وَفَضْلِهَا عَلَى صِفَاتِ غَيْرِهِ أَحْمَدُ، فَارْتَبَطَ الِاسْمُ بِالْمُسَمَّى ارْتِبَاطَ الرُّوحِ بِالْجَسَدِ، وَكَذَلِكَ تَكْنِيَتُهُ ﷺ لأبي الحكم بن هشام بأبي جهل، كُنْيَةٌ مُطَابِقَةٌ لِوَصْفِهِ وَمَعْنَاهُ، وَهُوَ أَحَقُّ الْخَلْقِ بِهَذِهِ الْكُنْيَةِ، وَكَذَلِكَ تَكْنِيَةُ الله ﷻ لعبد العزى بأبي لهب؛ لَـمَّا كَانَ مَصِيرُهُ إِلَى نَارٍ ذَاتِ لَهَبٍ كَانَتْ هَذِهِ الْكُنْيَةُ أَلْيَقَ بِهِ وَأَوْفَقَ، وَهُوَ بِهَا أَحَقُّ وَأَخْلَقُ.

وَلَـمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَاسْمُهَا يَثْرِبُ لَا تُعْرَفُ بِغَيْرِ هَذَا الِاسْمِ غَيَّرَهُ بِطَيْبَةَ؛ لَـمَّا زَالَ عَنْهَا مَا فِي لَفْظِ يَثْرِبَ مِنَ التَّثْرِيبِ بِمَا فِي مَعْنَى طَيْبَةَ مِنَ الطِّيبِ، اسْتَحَقَّتْ هَذَا الِاسْمَ، وَازْدَادَتْ بِهِ طِيبًا آخَرَ، فَأَثَّرَ طِيبُهَا فِي اسْتِحْقَاقِ الِاسْمِ، وَزَادَهَا طِيبًا إِلَى طِيبِهَا.

وَلَـمَّا كَانَ الِاسْمُ الْحَسَنُ يَقْتَضِي مُسَمَّاهُ وَيَسْتَدْعِيهِ مِنْ قُرْبٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِبَعْضِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله وَتَوْحِيدِهِ: «**يَا بَنِي عَبْدِ الله إِنَّ الله قَدْ حَسَّنَ اسْمَكُمْ وَاسْمَ أَبِيكُمْ**»، فَانْظُرْ كَيْفَ دَعَاهُمْ إِلَى عُبُودِيَّةِ الله بِحُسْنِ اسْمِ أَبِيهِمْ.

وَبِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْمُقْتَضِي لِلدَّعْوَةِ، وَتَأَمَّلْ أَسْمَاءَ السِّتَّةِ الْمُتَبَارِزِينَ يَوْمَ بَدْرٍ كَيْفَ اقْتَضَى الْقَدَرُ مُطَابَقَةَ أَسْمَائِهِمْ لِأَحْوَالِهِمْ يَوْمَئِذٍ، فَكَانَ الْكُفَّارُ : شيبة، وعتبة، والوليد، ثَلَاثَةُ أَسْمَاءٍ مِنَ الضَّعْفِ، فالوليد لَهُ بِدَايَةُ الضَّعْفِ، وشيبة لَهُ نِهَايَةُ الضَّعْفِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم: ٥٤]، وعتبة مِنَ الْعَتَبِ، فَدَلَّتْ أَسْمَاؤُهُمْ عَلَى عَتَبٍ يَحِلُّ بِهِمْ، وَضَعْفٍ يَنَالُهُمْ، وَكَانَ أَقْرَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : علي، وعبيدة، والحارث ﭫ، ثَلَاثَةُ أَسْمَاءٍ تُنَاسِبُ أَوْصَافَهُمْ وَهِيَ الْعُلُوُّ، وَالْعُبُودِيَّةُ، وَالسَّعْيُ الَّذِي هُوَ الْحَرْثُ، فَعَلَوْا عَلَيْهِمْ بِعُبُودِيَّتِهِمْ وَسَعْيِهِمْ فِي حَرْثِ الْآخِرَةِ.

وَلَـمَّا كَانَ الِاسْمُ مُقْتَضِيًا لِمُسَمَّاهُ وَمُؤَثِّرًا فِيهِ كَانَ أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى الله مَا اقْتَضَى أَحَبَّ الْأَوْصَافِ إِلَيْهِ كَعَبْدِ الله، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ إِضَافَةُ الْعُبُودِيَّةِ إِلَى اسْمِ الله وَاسْمِ الرَّحْمَنِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ إِضَافَتِهَا إِلَى غَيْرِهِمَا، كَالْقَاهِرِ وَالْقَادِرِ، فَعَبْدُ الرَّحْمَنِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ الْقَادِرِ، وَعَبْدُ الله أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ رَبِّهِ؛ وَهَذَا لِأَنَّ التَّعَلُّقَ الَّذِي بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الله إِنَّمَا هُوَ الْعُبُودِيَّةُ الْمَحْضَةُ، وَالتَّعَلُّقَ الَّذِي بَيْنَ الله وَبَيْنَ الْعَبْدِ بِالرَّحْمَةِ

المَحْضَةِ، فَبِرَحْمَتِهِ كَانَ وُجُودُهُ وَكَمَالُ وُجُودِهِ، وَالْغَايَةُ الَّتِي أَوْجَدَهُ لِأَجْلِهَا أَنْ يَتَأَلَّهَ لَهُ وَحْدَهُ مَحَبَّةً وَخَوْفًا، وَرَجَاءً وَإِجْلَالًا وَتَعْظِيمًا، فَيَكُونُ عَبْدًا لله، وَقَدْ عَبَدَهُ لِمَا فِي اسْمِ الله مِنْ مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ، وَلَـمَّا غَلَبَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ وَكَانَتِ الرَّحْمَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْغَضَبِ، كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ الْقَاهِرِ.

وَلَـمَّا كَانَ كُلُّ عَبْدٍ مُتَحَرِّكًا بِالْإِرَادَةِ، وَالْهَمُّ مَبْدَأُ الْإِرَادَةِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى إِرَادَتِهِ حَرَكَتُهُ، وَكَسْبُهُ، كَانَ أَصْدَقَ الْأَسْمَاءِ اسْمُ هَمَّامٍ وَاسْمُ حَارِثٍ؛ إِذْ لَا يَنْفَكُّ مُسَمَّاهُمَا عَنْ حَقِيقَةِ مَعْنَاهُمَا، وَلَـمَّا كَانَ الْمُلْكُ الْحَقُّ لله وَحْدَهُ، وَلَا مَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ سِوَاهُ كَانَ أَخْنَعَ اسْمٍ، وَأَوْضَعَهُ عِنْدَ الله، وَأَغْضَبَهُ لَهُ اسْمُ «شَاهَانْ شَاهْ» أَيْ: مَلِكُ الْمُلُوكِ وَسُلْطَانُ السَّلَاطِينِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الله فَتَسْمِيَةُ غَيْرِهِ بِهَذَا مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ، وَالله لَا يُحِبُّ الْبَاطِلَ.

وَقَدْ أَحْقَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهَذَا «قَاضِي الْقُضَاةِ»، وَقَالَ: لَيْسَ قَاضِي الْقُضَاةِ إِلَّا مَنْ يَقْضِي الْحَقَّ، وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ الَّذِي إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ.

وَيَلِي هَذَا الِاسْمَ فِي الْكَرَاهَةِ وَالْقُبْحِ وَالْكَذِبِ سَيِّدُ النَّاسِ، وَسَيِّدُ الْكُلِّ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً كَمَا قَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ**»، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ قَطُّ أَنْ يَقُولَ عَنْ غَيْرِهِ: إِنَّهُ سَيِّدُ النَّاسِ، وَسَيِّدُ الْكُلِّ، كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ.

وَلَـمَّا كَانَ مُسَمَّى الْحَرْبِ وَالْمُرَّةِ أَكْرَهَ شَيْءٍ لِلنُّفُوسِ، وَأَقْبَحَهَا عِنْدَهَا، كَانَ أَقْبَحُ الْأَسْمَاءِ حَرْبًا، وَمُرَّةَ، وَعَلَى قِيَاسِ هَذَا حَنْظَلَةُ وَحَزْنٌ، وَمَا أَشْبَهَهُمَا، وَمَا أَجْدَرَ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ بِتَأْثِيرِهَا فِي مُسَمَّيَاتِهَا، كَمَا أَثَّرَ اسْمُ «حَزْنٍ» الْحُزُونَةَ فِي سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ.

وَلَـمَّا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ سَادَاتِ بَنِي آدَمَ، وَأَخْلَاقُهُمْ أَشْرَفَ الْأَخْلَاقِ، وَأَعْمَالُهُمْ أَصَحَّ الْأَعْمَالِ، كَانَتْ أَسَمَاؤُهُمْ أَشْرَفَ الْأَسْمَاءِ، فَنَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَى التَّسَمِّي بِأَسْمَائِهِمْ، كَمَا فِي سُنَنِ أَبِي داود، وَالنَّسَائِيِّ عَنْهُ ﷺ: «**تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ**»، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ إِلَّا أَنَّ الِاسْمَ يُذْكَرُ بِمُسَمَّاهُ وَيَقْتَضِي التَّعَلُّقَ بِمَعْنَاهُ لَكَفَى بِهِ مَصْلَحَةً، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ حِفْظِ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَذِكْرِهَا، وَأَنْ لَا تُنْسَى، وَأَنْ تُذْكَرَ أَسَمَاؤُهُمْ بِأَوْصَافِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

فَصْلٌ عِلَّةُ النَّهْيِ عَنِ التَّسْمِيَةِ بِيَسَارٍ وَأَفْلَحَ وَنَجِيحٍ وَرَبَاحٍ:

وَأَمَّا النَّهْيُ عَنْ تَسْمِيَةِ الْغُلَامِ بِـ: يَسَارٍ وَأَفْلَحَ وَنَجِيحٍ وَرَبَاحٍ، فَهَذَا لِمَعْنًى آخَرَ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي الْحَدِيثِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «**فَإِنَّكَ تَقُولُ: أَثَمَّ هُوَ؟ فَيُقَالُ: لَا**» ـ وَالله أَعْلَمُ ـ هَلْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ مِنْ تَمَامِ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ أَوْ مُدْرَجَةٌ مِنْ قَوْلِ الصَّحَابِيِّ؟ وَبِكُلِّ حَالٍ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ لَـمَّا كَانَتْ قَدْ تُوجِبُ تَطَيُّرًا تَكْرَهُهُ النُّفُوسُ، وَيَصُدُّهَا عَمَّا هِيَ بِصَدَدِهِ كَمَا إِذَا قُلْتَ لِرَجُلٍ: أَعِنْدَكَ يَسَارٌ أَوْ رَبَاحٌ أَوْ أَفْلَحُ؟ قَالَ: لَا، تَطَيَّرْتَ أَنْتَ وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَعُ الطِّيَرَةُ لَا سِيَّمَا عَلَى الْمُتَطَيِّرِينَ، فَقَلَّ مَنْ تَطَيَّرَ إِلَّا وَوَقَعَتْ بِهِ طِيَرَتُهُ، وَأَصَابَهُ طَائِرُهُ كَمَا قِيلَ:

تَعَلَّمْ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا عَلَى مُتَطَيِّرٍ فَهُوَ الثُّبُورُ

اقْتَضَتْ حِكْمَةُ الشَّارِعِ الرَّؤُوفِ بِأُمَّتِهِ الرَّحِيمِ بِهِمْ أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِنْ أَسْبَابٍ تُوجِبُ لَهُمْ سَمَاعَ الْمَكْرُوهِ أَوْ وُقُوعَهُ، وَأَنْ يَعْدِلَ عَنْهَا إِلَى أَسْمَاءٍ تُحَصِّلُ الْمَقْصُودَ مِنْ غَيْرِ مَفْسَدَةٍ، هَذَا أَوْلَى، مَعَ مَا يَنْضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَعْلِيقِ ضِدِّ الِاسْمِ عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَمَّى يَسَارًا مَنْ هُوَ مِنْ أَعْسَرِ النَّاسِ، وَنَجِيحًا مَنْ لَا نَجَاحَ عِنْدَهُ، وَرَبَاحًا مَنْ هُوَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَيَكُونُ قَدْ وَقَعَ فِي الْكَذِبِ عَلَيْهِ وَعَلَى اللهِ.

وَأَمْرٌ آخَرُ أَيْضًا، وَهُوَ أَنْ يُطَالَبَ الْمُسَمَّى بِمُقْتَضَى اسْمِهِ فَلَا يُوجَدُ عِنْدَهُ فَيُجْعَلُ ذَلِكَ سَبَبًا لِذَمِّهِ وَسَبِّهِ كَمَا قِيلَ:

سَمَّوْكَ مِنْ جَهْلِهِمْ سَدِيدًا وَاللهِ مَا فِيكَ مِنْ سَدَادِ
أَنْتَ الَّذِي كَوْنُهُ فَسَادًا فِي عَالَمِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ

فَتَوَصَّلَ الشَّاعِرُ بِهَذَا الِاسْمِ إِلَى ذَمِّ الْمُسَمَّى بِهِ، وَلِي مِنْ أَبْيَاتٍ:

وَسَمَّيْتُهُ صَالِحًا فَاغْتَدَى بِضِدِّ اسْمِهِ فِي الْوَرَى سَائِرًا
وَظَنَّ بِأَنَّ اسْمَهُ سَاتِرٌ لِأَوْصَافِهِ فَغَدَا شَاهِرًا

وَهَذَا كَمَا أَنَّ مِنَ الْمَدْحِ مَا يَكُونُ ذَمًّا وَمُوجِبًا لِسُقُوطِ مَرْتَبَةِ الْمَمْدُوحِ عِنْدَ النَّاسِ فَإِنَّهُ يُمْدَحُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَتُطَالِبُهُ النُّفُوسُ بِمَا مُدِحَ بِهِ وَتَظُنُّهُ عِنْدَهُ فَلَا تَجِدُهُ كَذَلِكَ فَتَنْقَلِبُ ذَمًّا، وَلَوْ تُرِكَ بِغَيْرِ مَدْحٍ لَمْ تُحَصِّلْ لَهُ هَذِهِ الْمَفْسَدَةُ وَيُشْبِهُ حَالُهُ حَالَ مَنْ وَلِيَ وِلَايَةً سَيِّئَةً، ثُمَّ عُزِلَ عَنْهَا، فَإِنَّهُ تَنْقُصُ مَرْتَبَتُهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْوِلَايَةِ، وَيَنْقُصُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَهَا، وَفِي هَذَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ امْرَأً لِامْرِئٍ فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَاقْصِدْ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ الظُّنُونُ فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ الْأَبْعَدِ
فَيَنْقُصُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ لِفَضْلِ الْمَغِيبِ عَنِ الْمَشْهَدِ

وَأَمْرٌ آخَرُ: وَهُوَ ظَنُّ الْمُسَمَّى وَاعْتِقَادُهُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ كَذَلِكَ فَيَقَعُ فِي تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ وَتَعْظِيمِهَا، وَتَرَفُّعِهَا عَلَى غَيْرِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي نَهَى النَّبِيُّ ﷺ لِأَجْلِهِ أَنْ تُسَمَّى «بَرَّةً»، وَقَالَ: «**لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمُ اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ**»، وَعَلَى هَذَا فَتُكْرَهُ التَّسْمِيَةُ بِـ: التَّقِيِّ وَالْمُتَّقِي، وَالْمُطِيعِ وَالطَّائِعِ وَالرَّاضِي، وَالْمُحْسِنِ وَالْمُخْلِصِ وَالْمُنِيبِ وَالرَّشِيدِ وَالسَّدِيدِ.

وَأَمَّا تَسْمِيَةُ الْكُفَّارِ بِذَلِكَ فَلَا يَجُوزُ التَّمْكِينُ مِنْهُ وَلَا دُعَاؤُهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَلَا الْإِخْبَارُ عَنْهُمْ بِهَا، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَغْضَبُ مِنْ تَسْمِيَتِهِمْ بِذَلِكَ.

الْكُنْيَةُ: وَأَمَّا الْكُنْيَةُ فَهِيَ نَوْعُ تَكْرِيمٍ لِلْمَكْنِيِّ، وَتَنْوِيهٌ بِهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَكْنِيهِ حِينَ أُنَادِيهِ لِأُكْرِمَهُ وَلَا أُلَقِّبُهُ وَالسَّوْءَةُ اللَّقَبُ

«وَكَنَّى النَّبِيُّ ﷺ صُهَيْبًا بِأَبِي يَحْيَى، وَكَنَّى عَلِيًّا ﷺ بِأَبِي تُرَابٍ إِلَى كُنْيَتِهِ بِأَبِي الْحَسَنِ، وَكَانَتْ أَحَبَّ كُنْيَتِهِ إِلَيْهِ، وَكَنَّى أَخَا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَكَانَ صَغِيرًا دُونَ الْبُلُوغِ بِأَبِي عُمَيْرٍ».

وَكَانَ هَدْيُهُ ﷺ تَكْنِيَةَ مَنْ لَهُ وَلَدٌ، وَمَنْ لَا وَلَدَ لَهُ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ أَنَّهُ نَهَى عَنْ كُنْيَةٍ إِلَّا الْكُنْيَةَ بِأَبِي الْقَاسِمِ، فَصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «**تَسَمَّوْا بِاسْمِي، وَلَا تَكَنَّوْا بِكُنْيَتِي**»، فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّكَنِّي بِكُنْيَتِهِ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ أَفْرَدَهَا عَنِ اسْمِهِ أَوْ قَرَنَهَا بِهِ، وَسَوَاءٌ مَحْيَاهُ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، وَعُمْدَتُهُمْ عُمُومُ هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَإِطْلَاقُهُ، وَحَكَى الْبَيْهَقِي ذَلِكَ عَنِ الشَّافِعِيِّ، قَالُوا: لِأَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا كَانَ لِأَنَّ مَعْنَى هَذِهِ الْكُنْيَةِ وَالتَّسْمِيَةِ مُخْتَصَّةٌ بِهِ ﷺ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**وَاللهِ لَا أُعْطِي أَحَدًا، وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ**»، قَالُوا: وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ لَيْسَتْ عَلَى الْكَمَالِ لِغَيْرِهِ.

وَاخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي جَوَازِ تَسْمِيَةِ الْمَوْلُودِ بِقَاسِمٍ، فَأَجَازَهُ طَائِفَةٌ وَمَنَعَهُ آخَرُونَ، وَالْمُجِيزُونَ نَظَرُوا إِلَى أَنَّ الْعِلَّةَ عَدَمُ مُشَارَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْكُنْيَةِ، وَهَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الِاسْمِ، وَالْمَانِعُونَ نَظَرُوا إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي نَهَى عَنْهُ فِي الْكُنْيَةِ مَوْجُودٌ مِثْلُهُ هُنَا فِي الِاسْمِ سَوَاءٌ، أَوْ هُوَ أَوْلَى بِالْمَنْعِ، قَالُوا: وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ**» إِشْعَارٌ بِهَذَا الِاخْتِصَاصِ.

الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَ اسْمِهِ وَكُنْيَتِهِ، فَإِذَا أُفْرِدَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ، فَلَا بَأْسَ.

قَالَ أبو داود: بَابٌ: مَنْ رَأَى أَنْ لَا يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي الزبير عَنْ جابر ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَسَمَّى بِاسْمِي فَلَا يَتَكَنَّ بِكُنْيَتِي، وَمَنْ تَكَنَّى بِكُنْيَتِي فَلَا يَتَسَمَّ بِاسْمِي**»، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَلَفْظُهُ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَجْمَعَ أَحَدٌ بَيْنَ اسْمِهِ وَكُنْيَتِهِ»، وَيُسَمِّي مُحَمَّدًا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ: فَهَذَا مُقَيِّدٌ مُفَسِّرٌ لِمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ نَهْيِهِ عَنِ التَّكَنِّي بِكُنْيَتِهِ قَالُوا: وَلِأَنَّ فِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا مُشَارَكَةٌ فِي الِاخْتِصَاصِ بِالِاسْمِ وَالْكُنْيَةِ، فَإِذَا أُفْرِدَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ زَالَ الِاخْتِصَاصُ.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: جَوَازُ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا، وَهُوَ الْمَنْقُولُ عَنْ مالك، وَاحْتَجَّ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ بِمَا رَوَاهُ أبو داود وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، عَنْ علي ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ وُلِدَ لِي وَلَدٌ مِنْ بَعْدِكَ أُسَمِّيهِ بِاسْمِكَ وَأُكَنِّيهِ بِكُنْيَتِكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَفِي سُنَنِ أبي داود عَنْ عائشة ﷺ قَالَتْ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، إِنِّي وَلَدْتُ غُلَامًا فَسَمَّيْتُهُ مُحَمَّدًا وَكَنَّيْتُهُ أَبَا الْقَاسِمِ فَذُكِرَ لِي أَنَّكَ تَكْرَهُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**مَا الَّذِي أَحَلَّ اسْمِي وَحَرَّمَ كُنْيَتِي**»، أَوْ «**مَا الَّذِي حَرَّمَ كُنْيَتِي وَأَحَلَّ اسْمِي**»، قَالَ هَؤُلَاءِ: وَأَحَادِيثُ الْمَنْعِ مَنْسُوخَةٌ بِهَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ.

الْقَوْلُ الرَّابِعُ: إِنَّ التَّكَنِّيَ بِأَبِي الْقَاسِمِ كَانَ مَمْنُوعًا مِنْهُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ جَائِزٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ، قَالُوا: وَسَبَبُ النَّهْيِ إِنَّمَا كَانَ مُخْتَصًّا بِحَيَاتِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أنس ﷺ قَالَ: «نَادَى رَجُلٌ

بِالْبَقِيعِ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَمْ أَعْنِكَ إِنَّمَا دَعَوْتُ فُلَانًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكَنَّوْا بِكُنْيَتِي**»، قَالُوا: وَحَدِيثُ عَلِيٍّ ﷺ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ إِنْ وُلِدَ لِي مِنْ بَعْدِكَ وَلَدٌ، وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَمَّنْ يُولَدُ لَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَلَكِنْ قَالَ عَلِيٌّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «وَكَانَتْ رُخْصَةً لِي».

وَقَدْ شَذَّ مَنْ لَا يُؤْبَهُ لِقَوْلِهِ، فَمَنَعَ التَّسْمِيَةَ بِاسْمِهِ ﷺ قِيَاسًا عَلَى النَّهْيِ عَنِ التَّكَنِّي بِكُنْيَتِهِ، وَالصَّوَابُ أَنَّ التَّسَمِّيَ بِاسْمِهِ جَائِزٌ، وَالتَّكَنِّي بِكُنْيَتِهِ مَمْنُوعٌ مِنْهُ، وَالْمَنْعُ فِي حَيَاتِهِ أَشَدُّ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا مَمْنُوعٌ مِنْهُ، وَحَدِيثُ عائشة ﵂ غَرِيبٌ لَا يُعَارَضُ بِمِثْلِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ، وَحَدِيثُ علي ﷺ فِي صِحَّتِهِ نَظَرٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِيهِ نَوْعُ تَسَاهُلٍ فِي التَّصْحِيحِ، وَقَدْ قَالَ علي ﷺ: إِنَّهَا رُخْصَةٌ لَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى بَقَاءِ الْمَنْعِ لِمَنْ سِوَاهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

التَّكَنِّي بِأَبِي عِيسَى: وَقَدْ كَرِهَ قَوْمٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ الْكُنْيَةَ بِأَبِي عِيسَى، وَأَجَازَهَا آخَرُونَ، فَرَوَى أبو داود عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ ضَرَبَ ابْنًا لَهُ يُكْنَى أبا عيسى، وَأَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ تَكَنَّى بأبي عيسى، فَقَالَ لَهُ عمر: أَمَا يَكْفِيكَ أَنْ تُكْنَى بأبي عبد الله؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَنَّانِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَإِنَّا لَفِي جَلْجَتِنَا، فَلَمْ يَزَلْ يُكَنَّى بأبي عبد الله حَتَّى هَلَكَ».

وَقَدْ «كَنَّى ﷺ عائشة ﵂ بأم عبدِ الله»، وَكَانَ لِنِسَائِهِ أَيْضًا كُنًى كأم حبيبة وأم سلمة ﵄.

[زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٣٠٥-٣١٩].

مصادر ومراجع للاستزادة:

(١) **تسمية المولود** ـ د/ بكر عبد الله أبو زيد ـ ط٣ دار العاصمة ـ الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ـ ٧٢ص.

(٢) **حكمة النبي ﷺ في تغيير أسماء أصحابه** ﵃ ـ الشيخ عبد الحفيظ فرغلي القرني ـ هدية مجلة الأزهر ـ القاهرة ـ ربيع الأول ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م ـ ٩٥ص.

(٣) **الصحابة الذين غيَّر النبي ﷺ أسماءهم** ـ أ/ عبد الله البراهيم ـ مطبعة أضواء البيان ـ الرياض ١٤٢١هـ ـ ٩٦ ص.

(٤) **فضائل التسمية بأحمد ومحمد** ـ الإمام حسين بن أحمد بن عبد الله بن بكير (٣٨٨ هـ) ـ تح أ/ مجدي فتحي السيد ـ دار الصحابة ـ طنطا ـ مصر ١٤١١ هـ/ ١٩٩٠م ـ ٤٨ص.

(٥) **نهاية المرام في معرفة من سماه خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام** ـ الإمام يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي (٩٠٩هـ) ـ حققه وقدم له وعلق عليه أ/ صالح بن محمد بن عبد الفتاح بن عبد الخالق ـ إصدارات مجلة الوعي الإسلامي (٨٢) ـ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م ـ ٩٠ ص.

٨ ـ لا يجوز ترويع المسلم:

يقول د/ الفنيسان: «دليل ذلك: أن زيد بن ثابت ﷺ كان في الخندق ينقل التراب وأصابه التعب، فاستند إلى حجارة، فغلبته عينه فنام، فمر به أحد الصحابة، فأخذ سلاحه وهو نائم، فلما قام فزع، فقال له رسول الله ﷺ: (**يَا أَبَا رُقَادٍ!** ـ يريد ممازحته ـ «**نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلاحُك!**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ لَهُ عِلمٌ بِسِلاحِ هَذَا الغُلام؟**» فَقَالَ عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ ﷺ: أَنَا يَا رَسُولَ الله! وَهُوَ عِنْدِي، فَقَالَ: «**فَرُدَّهُ عَلَيْهِ**»، وَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُرَوَّعَ الْمُسْلِمُ أَوْ يُؤْخَذَ مَتَاعُهُ لاعِبًا جَادًّا (لا يأخذه على سبيل الهزل ثم يحبسه فيصير ذلك جدًّا)». [ينظر: جامع الترمذي ٤/ ٤٦٣، ومسند أحمد ٥/ ٣٦٢]. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٠].

٩ ـ جواز خروج النساء في رفقة الغزاة:

يقول د/ الفنيسان: «كان رسول الله ﷺ إذا خرج في سفر أقرع بين نسائه، وفي غزوة الخندق ضُربت له خيمة من أدم، فكانت عائشة تمكث عنده أيامًا، ثم تعقبها أم سلمة، ثم زينب وهكذا...».

[ينظر: فتح الباري ٥/ ٢٧٠]. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٠، وقد سبق تفصيل الحديث في هذا في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة أُحُد].

١٠ ـ عِلاجُ المُصَابِ بِالعَيْنِ [(١)]:

يقول د/ الفنيسان: «أبدى سلمان الفارسي ﷺ في الخندق نشاطًا ملحوظًا أكثر من غيره، فعانه ـ أي أصابه بالعين ـ قيس بن صعصعة، فقال ﷺ: «**مُرُوهُ** ـ يقصد العائن ـ **فَلْيَتَوَضَّأْ لَهُ، وَلْيَغْتَسِلْ بِهِ، وَيُكْفِئْ الإِنَاءَ خَلْفَهُ**»، وفي رواية: «**فَلْيَتَوَضَّأْ أَوْ يَغْتَسِلْ وَيَجْمَعْ وُضُوءَهُ فِي ظَرْفٍ، وَيَغْتَسِلُ بِهِ المَرِيضُ**»، ففعل ذلك، فقام من ساعته كأنما نشط من عقال. [السيرة الحلبية ٢/ ٣١٣].

---

(١) للتفصيل في موضوع الحسد ينظر ما يلي:

١- **إعجاز القرآن في علاج أمراض الجان: المس، السحر، الحسد، السرطان** ـ أ/ ناصر المنشاوي ـ دار الفجر للتراث ـ القاهرة ٢٠٠٠م ـ ١٧٠ ص.

٢- **الحسد وكيف نتقيه** ـ أ/ إبراهيم محمد الجمل ـ مكتبة القرآن ـ مصر ١٩٨٢م ـ ١٥١ص.

٣- **السحر والحسد** ـ الشيخ محمد متولي الشعراوي ـ مؤسسة أخبار اليوم ـ مصر ١٩٩٠م ـ ١٣٤ ص.

٤- **العين حق** ـ أ/ محمد بن سنجاب الأثاري ـ دار التقوى ـ شبرا الخيمة ـ القاهرة د.ت ـ ١٢٨ ص.

٥- **فتح المغيث في السحر والحسد ومس إبليس** ـ الشيخ أبو عبيدة ماهر بن صالح آل مبارك ـ دار علوم السنة للنشر ـ الرياض ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ـ ٢٢٤ ص.

٦- **فقه الحسد** ـ الشيخ أبو عبد الله مصطفى العدوي ـ دار السنة ـ الخبر ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ـ ٩٦ ص.

٧- **القول المعين في مرتكزات معالجين الصرع والسحر والعين** ـ أ/ أسامة بن ياسين المعاني ـ دار المعالي ـ عمان ـ الأردن ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ـ ٤٢٠ص.

٨- **المنهل المعين في إثبات الحسد والعين** ـ أ/ أسامة بن ياسين المعاني ـ دار المعالي ـ عمان ـ الأردن ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ـ ٣٤٢ص.

وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما أن النبي ﷺ قال: «**العَيْنُ حَقٌّ** ـ زاد مسلم ـ **وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ القَدَرَ سَبَقَتْهُ العَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**». وكذلك رواها الترمذي وأبو داود والإمام مالك في الموطأ، وقد بحثها ابن القيم الجوزية وأطال فيها». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٠-٢٢١].

ولأهمية هذا الموضوع ننقل بعضًا من كلام ابن القيم ﷺ في الموضوع، حيث يقول تحت عنوان «**هَدْيُهِ ﷺ فِي عِلاجِ المُصَابِ بِالعَيْنِ**»: «رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**العَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ القَدَرَ لَسَبَقَتْهُ العَيْنُ**».

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ ﷺ: **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَخَّصَ فِي الرُّقْيَةِ مِنْ الـحُمَةِ** (هي إبرة العقرب ونحوه من ذوات السموم، أو السم نفسه) **وَالعَيْنِ وَالنَّمْلَةِ**.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**العَيْنُ حَقٌّ**».

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: كَانَ يُؤْمَرُ العَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ الـمَعِينُ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ ـ أَوْ أَمَرَ ـ أَنْ نَسْتَرْقِيَ مِنَ العَيْنِ.

وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ: أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ بَنِي جَعْفَرٍ تُصِيبُهُمْ العَيْنُ، أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ القَضَاءَ لَسَبَقَتْهُ العَيْنُ**». قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى مَالِكٌ ﷺ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ﷺ قَالَ: رَأَى عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ يَغْتَسِلُ فَقَالَ: وَالله مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ وَلَا جِلدَ مُخَبَّأَةٍ، قَالَ: فَلُبِطَ سَهْلٌ، فَأَتَى رَسُولُ الله ﷺ عَامِرًا، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، أَلَا برَّكْتَ، اغْتَسِلْ لَهُ**»، فَغَسَلَ لَهُ عَامِرٌ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَمِرْفَقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهِ، فَرَاحَ مَعَ النَّاسِ.

وَرَوَى مَالِكٌ ﷺ أَيْضًا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ عَنْ أَبِيهِ هَـذَا الحَدِيثَ، وَقَالَ فِيهِ: «**إِنَّ العَيْنَ حَقٌّ، تَوَضَّأْ لَهُ**»، فَتَوَضَّأَ لَهُ.

وَذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ طَاوُوسٍ عَنْ أَبِيهِ مَرْفُوعًا: «**العَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ القَدَرَ لَسَبَقَتْهُ العَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِل**»، وَوَصْلُهُ صَحِيحٌ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: يُؤْمَرُ الرَّجُلُ العَائِنُ بِقَدَحٍ فَيُدْخِلُ كَفَّهُ فِيهِ، فَيَتَمَضْمَضُ، ثُـمَّ يُمَجُّهُ فِي القَـدَحِ، وَيَغْسِـلُ وَجْهَهُ فِي القَدَحِ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ اليُسْرَى فَيَصُبُّ عَلَى رُكْبَتِهِ اليُمْنَى فِي القَدَحِ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ اليُمْنَى فَيَصُبُّ عَلَى رُكْبَتِهِ اليُسْرَى، ثُمَّ يَغْسِلُ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَلَا يُوضَعُ القَـدَحُ فِي الأَرْضِ، ثُـمَّ يُصَـبُّ عَـلَى رَأْسِ الرَّجُـلِ الَّذِي تُصِيبُهُ العَيْنُ مِنْ خَلْفِهِ صَبَّةً وَاحِدَةً.

وَالعَيْنُ عَيْنَانِ: عَيْنٌ إِنْسِيَّةٌ، وَعَيْنٌ جِنِّيَّةٌ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ، فَقَالَ: «**اسْتَرْقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ**».

قَالَ الحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ الفَرَّاءُ: وَقَوْلُهُ: سَفْعَةٌ، أَيْ: نَظْرَةٌ، يَعْنِي: مِنَ الجِنِّ، يَقُولُ: بِهَا عَيْنٌ أَصَابَتْهَا مِنْ نَظَرِ الجِنِّ أَنْفَذُ مِنْ أَسِنَّةِ الرِّمَاحِ.

وَيُذْكَرُ عَنْ جَابِرٍ يَرْفَعُهُ: «**إِنَّ العَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ القَبْرَ، وَالجَمَلَ القِدْرَ**».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ، وَمِنْ عَيْنِ الإِنْسَانِ.

قَوْلُ مَنْ أَبْطَلَ الإِصَابَةَ بِالعَيْنِ: فَأَبْطَلَتْ طَائِفَةٌ مِمَّنْ قَلَّ نَصِيبُهُمْ مِنَ السَّمْعِ وَالعَقْلِ أَمْرَ العَيْنِ، وَقَالُوا: إِنَّمَا ذَلِكَ أَوْهَامٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِالسَّمْعِ وَالعَقْلِ، وَمِنْ أَغْلَظِهِمْ حِجَابًا، وَأَكْثَفِهِمْ طِبَاعًا، وَأَبْعَدِهِمْ مَعْرِفَةً عَنِ الأَرْوَاحِ وَالنُّفُوسِ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا وَتَأْثِيرَاتِهَا، وَعُقَلَاءُ الأُمَمِ عَلَى اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَنِحَلِهِمْ لَا تَدْفَعُ أَمْرَ العَيْنِ، وَلَا تُنْكِرُهُ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي سَبَبِ وَجِهَةِ تَأْثِيرِ العَيْنِ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّ العَائِنَ إِذَا تَكَيَّفَتْ نَفْسُهُ بِالكَيْفِيَّةِ الرَّدِيئَةِ انْبَعَثَ مِنْ عَيْنِهِ قُوَّةٌ سُمِّيَّةٌ تَتَّصِلُ بِالمَعِينِ فَيَتَضَرَّرُ.

قَالُوا: وَلَا يُسْتَنْكَرُ هَذَا، كَمَا لَا يُسْتَنْكَرُ انْبِعَاثُ قُوَّةٍ سُمِّيَّةٍ مِنَ الأَفْعَى تَتَّصِلُ بِالإِنْسَانِ فَيَهْلَكُ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ اشْتُهِرَ عَنْ نَوْعٍ مِنَ الأَفَاعِي أَنَّهَا إِذَا وَقَعَ بَصَرُهَا عَلَى الإِنْسَانِ هَلَكَ، فَكَذَلِكَ العَائِنُ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى: لَا يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَنْبَعِثَ مِنْ عَيْنِ بَعْضِ النَّاسِ جَوَاهِرُ لَطِيفَةٌ غَيْرُ مَرْئِيَّةٍ، فَتَتَّصِلُ بِالمَعِينِ وَتَتَخَلَّلُ مَسَامَّ جِسْمِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ الضَّرَرُ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى: قَدْ أَجْرَى اللهُ العَادَةَ بِخَلْقِ مَا يَشَاءُ مِنَ الضَّرَرِ عِنْدَ مُقَابَلَةِ عَيْنِ العَائِنِ لِمَنْ يَعِينُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ قُوَّةٌ وَلَا سَبَبٌ وَلَا تَأْثِيرٌ أَصْلًا، وَهَذَا مَذْهَبُ مُنْكِرِي الأَسْبَابِ وَالقُوَى وَالتَّأْثِيرَاتِ فِي العَالَمِ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ سَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بَابَ العِلَلِ وَالتَّأْثِيرَاتِ وَالأَسْبَابِ، وَخَالَفُوا العُقَلَاءَ أَجْمَعِينَ.

الرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الإِصَابَةَ بِالعَيْنِ: وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فِي الأَجْسَامِ وَالأَرْوَاحِ قُوًى وَطَبَائِعَ مُخْتَلِفَةً، وَجَعَلَ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا خَوَاصَّ وَكَيْفِيَّاتٍ مُؤَثِّرَةً، وَلَا يُمْكِنُ لِعَاقِلٍ إِنْكَارُ تَأْثِيرِ الأَرْوَاحِ فِي الأَجْسَامِ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ مَحْسُوسٌ، وَأَنْتَ تَرَى الوَجْهَ كَيْفَ يَحْمَرُّ حُمْرَةً شَدِيدَةً إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ مِنْ يَحْتَشِمُهُ وَيَسْتَحِي مِنْهُ، وَيَصْفَرُّ صُفْرَةً شَدِيدَةً عِنْدَ نَظَرِ مَنْ يَخَافُهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ شَاهَدَ النَّاسُ مَنْ يَسْقَمُ مِنَ النَّظَرِ، وَتَضْعُفُ قُوَاهُ، وَهَذَا كُلُّهُ بِوَاسِطَةِ تَأْثِيرِ الأَرْوَاحِ، وَلِشِدَّةِ ارْتِبَاطِهَا بِالعَيْنِ يُنْسَبُ الفِعْلُ إِلَيْهَا، وَلَيْسَتْ هِيَ الفَاعِلَةَ، وَإِنَّمَا التَّأْثِيرُ لِلرُّوحِ، وَالأَرْوَاحُ مُخْتَلِفَةٌ فِي طَبَائِعِهَا وَقُوَاهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا وَخَوَاصِّهَا، فَرُوحُ الحَاسِدِ مُؤْذِيَةٌ لِلمَحْسُودِ أَذًى بَيِّنًا، وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ ﷻ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِهِ مِنْ شَرِّهِ، وَتَأْثِيرُ الحَاسِدِ فِي أَذَى المَحْسُودِ أَمْرٌ لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ خَارِجٌ عَنْ حَقِيقَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَهُوَ أَصْلُ الإِصَابَةِ بِالعَيْنِ، فَإِنَّ النَّفْسَ

الخَبِيثَةَ الحَاسِدَةَ تَتَكَيَّفُ بِكَيْفِيَّةٍ خَبِيثَةٍ، وَتُقَابِلُ المَحْسُودَ فَتُؤَثِّرُ فِيهِ بِتِلْكَ الخَاصِّيَّةِ، وَأَشْبَهُ الأَشْيَاءِ بِهَذَا الأَفْعَى، فَإِنَّ السُّمَّ كَامِنٌ فِيهَا بِالقُوَّةِ، فَإِذَا قَابَلَتْ عَدُوَّهَا انْبَعَثَتْ مِنْهَا قُوَّةٌ غَضَبِيَّةٌ، وَتَكَيَّفَتْ بِكَيْفِيَّةٍ خَبِيثَةٍ مُؤْذِيَةٍ، فَمِنْهَا مَا تَشْتَدُّ كَيْفِيَّتُهَا وَتَقْوَى حَتَّى تُؤَثِّرَ فِي إِسْقَاطِ الجَنِينِ، وَمِنْهَا مَا تُؤَثِّرُ فِي طَمْسِ البَصَرِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الأَبْتَرِ وَذِي الطُّفْيَتَيْنِ مِنَ الحَيَّاتِ: «**إِنَّهُمَا يَلْتَمِسَانِ البَصَرَ، وَيُسْقِطَانِ الحَبَلَ**».

الحَاسِدُ أَعَمُّ مِنَ العَائِنِ: وَمِنْهَا مَا تُؤَثِّرُ فِي الإِنْسَانِ كَيْفِيَّتُهَا بِمُجَرَّدِ الرُّؤْيَةِ مِنْ غَيْرِ اتِّصَالٍ بِهِ؛ لِشِدَّةِ خُبْثِ تِلْكَ النَّفْسِ وَكَيْفِيَّتِهَا الخَبِيثَةِ المُؤَثِّرَةِ، وَالتَّأْثِيرُ غَيْرُ مَوْقُوفٍ عَلَى الِاتِّصَالَاتِ الجِسْمِيَّةِ كَمَا يَظُنُّهُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ وَمَعْرِفَتُهُ بِالطَّبِيعَةِ وَالشَّرِيعَةِ، بَلِ التَّأْثِيرُ يَكُونُ تَارَةً بِالِاتِّصَالِ، وَتَارَةً بِالمُقَابَلَةِ، وَتَارَةً بِالرُّؤْيَةِ، وَتَارَةً بِتَوَجُّهِ الرُّوحِ نَحْوَ مَنْ يُؤَثِّرُ فِيهِ، وَتَارَةً بِالأَدْعِيَةِ وَالرُّقَى وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَتَارَةً بِالوَهْمِ وَالتَّخَيُّلِ، وَنَفْسُ العَائِنِ لَا يَتَوَقَّفُ تأثيرها على الرُّؤْيَةِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ أَعْمَى فَيُوصَفُ لَهُ الشَّيْءُ فَتُؤَثِّرُ نَفْسُهُ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَرَهُ، وَكَثِيرٌ مِنَ العَائِنِينَ يُؤَثِّرُ فِي المَعِينِ بِالوَصْفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم]، وَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق]، فَكُلُّ عَائِنٍ حَاسِدٌ، وَلَيْسَ كُلُّ حَاسِدٍ عَائِنًا، فَلَمَّا كَانَ الحَاسِدُ أَعَمَّ مِنَ العَائِنِ كَانَتِ الِاسْتِعَاذَةُ مِنْهُ اسْتِعَاذَةً مِنَ العَائِنِ، وَهِيَ سِهَامٌ تَخْرُجُ مِنْ نَفْسِ الحَاسِدِ وَالعَائِنِ نَحْوَ المَحْسُودِ، وَالمَعِينِ تُصِيبُهُ تَارَةً وَتُخْطِئُهُ تَارَةً، فَإِنْ صَادَفَتْهُ مَكْشُوفًا لَا وِقَايَةَ عَلَيْهِ أَثَّرَتْ فِيهِ، وَلَا بُدَّ، وَإِنْ صَادَفَتْهُ حَذِرًا شَاكِيَ السِّلَاحِ لَا مَنْفَذَ فِيهِ لِلسِّهَامِ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ، وَرُبَّمَا رُدَّتِ السِّهَامُ عَلَى صَاحِبِهَا، وَهَذَا بِمَثَابَةِ الرَّمْيِ الحِسِّيِّ سَوَاءً، فَهَذَا مِنَ النُّفُوسِ وَالأَرْوَاحِ، وَذَاكَ مِنَ الأَجْسَامِ وَالأَشْبَاحِ، وَأَصْلُهُ مِنْ إِعْجَابِ العَائِنِ بِالشَّيْءِ، ثُمَّ تَتْبَعُهُ كَيْفِيَّةُ نَفْسِهِ الخَبِيثَةِ، ثُمَّ تَسْتَعِينُ عَلَى تَنْفِيذِ سُمِّهَا بِنَظْرَةٍ إِلَى المَعِينِ، وَقَدْ يَعِينُ الرَّجُلُ نَفْسَهُ، وَقَدْ يَعِينُ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ، بَلْ بِطَبْعِهِ، وَهَذَا أَرْدَأُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ، وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنَ الفُقَهَاءِ: إِنَّ مَنْ عُرِفَ بِذَلِكَ حَبَسَهُ الإِمَامُ، وَأَجْرَى لَهُ مَا يُنْفَقُ عَلَيْهِ إِلَى المَوْتِ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ قَطْعًا.

عِلَاجُ المَعْيُونِ بِالتَّعَوُّذَاتِ وَالرُّقَى: وَالمَقْصُودُ: العِلَاجُ النَّبَوِيُّ لِهَذِهِ العِلَّةِ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ﷺ قَالَ: مَرَرْنَا بِسَيْلٍ، فَدَخَلْتُ فَاغْتَسَلْتُ فِيهِ، فَخَرَجْتُ مَحْمُومًا، فَنُمِيَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا ثَابِتٍ يَتَعَوَّذْ**»، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي وَالرُّقَى صَالِحَةٌ؟ فَقَالَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ، أَوْ حُمَةٍ، أَوْ لَدْغَةٍ**».

وَالنَّفْسُ: العَيْنُ، يُقَالُ: أَصَابَتْ فُلَانًا نَفْسٌ، أَيْ عَيْنٌ، وَالنَّافِسُ: العَائِنُ.

وَاللَّدْغَةُ ـ بِدَالٍ مُهْمَلَةٍ وَغَيْنٍ مُعْجَمَةٍ ـ وَهِيَ: ضَرْبَةُ العَقْرَبِ وَنَحْوِهَا.

عِبَارَاتٌ مِنْ التَّعَوُّذَاتِ النَّبَوِيَّةِ: فَمِنْ التَّعَوُّذَاتِ وَالرُّقَى: الإِكْثَارُ مِنْ قِرَاءَةِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَفَاتِحَةِ الكِتَابِ، وَآيَةِ الكُرْسِيِّ.

وَمِنْهَا التَّعَوُّذَاتُ النَّبَوِيَّةُ، نَحْوُ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ.

وَنَحْوُ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ.

وَنَحْوُ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَنُ.

وَمِنْهَا: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونِ.

وَمِنْهَا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الكَرِيمِ، وَكَلِمَاتِكَ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ تَكْشِفُ المَأْثَمَ وَالمَغْرَمَ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يُهْزَمُ جُنْدُكَ، وَلَا يُخْلَفُ وَعْدُكَ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ.

وَمِنْهَا: أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ العَظِيمِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَبِكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، وَأَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى، مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ لَا أُطِيقُ شَرَّهُ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَمِنْهَا: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَأَنْتَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَإِنْ شَاءَ قَالَ: تَحَصَّنْتُ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِلَهِي وَإِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ، وَاعْتَصَمْتُ بِرَبِّي وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَوَكَّلْتُ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَاسْتَدْفَعْتُ الشَّرَّ بِلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، حَسْبِيَ الرَّبُّ مِنَ العِبَادِ، حَسْبِيَ الخَالِقُ مِنَ المَخْلُوقِ، حَسْبِيَ الرَّازِقُ مِنَ المَرْزُوقِ، حَسْبِيَ الَّذِي هُوَ حَسْبِي، حَسْبِيَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، حَسْبِيَ اللهُ وَكَفَى، سَمِعَ اللهُ لِمَنْ دَعَا، لَيْسَ وَرَاءَ اللهِ مَرْمَى، حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ.

وَمَنْ جَرَّبَ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ وَالعُوَذَ عَرَفَ مِقْدَارَ مَنْفَعَتِهَا، وَشِدَّةَ الحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَهِيَ تَمْنَعُ وُصُولَ أَثَرِ العَائِنِ، وَتَدْفَعُهُ بَعْدَ وُصُولِهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ إِيمَانِ قَائِلِهَا، وَقُوَّةِ نَفْسِهِ، وَاسْتِعْدَادِهِ، وَقُوَّةِ تَوَكُّلِهِ وَثَبَاتِ قَلْبِهِ، فَإِنَّهَا سِلَاحٌ، وَالسِّلَاحُ بِضَارِبِهِ.

مَا يَقُولُهُ العَائِنُ خَشْيَةَ مِنْ ضَرَرِ عَيْنِهِ: وَإِذَا كَانَ العَائِنُ يَخْشَى ضَرَرَ عَيْنِهِ وَإِصَابَتَهَا لِلمَعِينِ، فَلْيَدْفَعْ شَرَّهَا بِقَوْلِهِ: **اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ**، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ لَـمَّا عَانَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ: «**أَلَا بَرَّكْتَ**»، أَيْ: قُلْتَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ.

وَمِمَّا يُدْفَعُ بِهِ إِصَابَةُ العَيْنِ قَوْلُ: **مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله**، رَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَى شَيْئًا يُعْجِبُهُ، أَوْ دَخَلَ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهِ، قَالَ: **مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله**.

الرُّقْيَةُ لِلمَعِينِ: وَمِنْهَا رُقْيَةُ جِبْرِيلَ عليه السلام لِلنَّبِيِّ ﷺ الَّتِي رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: «**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**».

كِتَابَةُ الآيَاتِ ثُمَّ شُرْبُهَا: وَرَأَى جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ أَنْ تُكْتَبَ لَهُ الآيَاتُ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ يَشْرَبَهَا.

قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا بَأْسَ أَنْ يَكْتُبَ القُرْآنَ وَيَغْسِلَهُ، وَيَسْقِيَهُ المَرِيضَ، وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ.

وَيُذْكَرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ لِامْرَأَةٍ تَعَسَّرَ عَلَيْهَا وِلَادُهَا أَثَرٌ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ يُغْسَلُ وَتُسْقَى.

وَقَالَ أَيُّوبُ: رَأَيْتُ أَبَا قِلَابَةَ كَتَبَ كِتَابًا مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءٍ، وَسَقَاهُ رَجُلًا كَانَ بِهِ وَجَعٌ.

اسْتِغْسَالُ العَائِنِ لِلمَعِينِ وَالرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَهُ مِنَ الأَطِبَّاءِ:

وَمِنْهَا: أَنْ يُؤْمَرَ العَائِنُ بِغَسْلِ مَغَابِنِهِ وَأَطْرَافِهِ وَدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، وَفِيهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ فَرْجُهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ طَرَفُ إِزَارِهِ الدَّاخِلِ الَّذِي يَلِي جَسَدَهُ مِنَ الجَانِبِ الأَيْمَنِ، ثُمَّ يُصَبُّ عَلَى رَأْسِ المَعِينِ مِنْ خَلْفِهِ بَغْتَةً، وَهَذَا مِمَّا لَا يَنَالُهُ عِلَاجُ الأَطِبَّاءِ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ أَنْكَرَهُ، أَوْ سَخِرَ مِنْهُ، أَوْ شَكَّ فِيهِ، أَوْ فَعَلَهُ مُجَرِّبًا لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ.

حِكْمَةُ الاسْتِغْسَالِ: وَإِذَا كَانَ فِي الطَّبِيعَةِ خَوَاصُّ لَا تَعْرِفُ الأَطِبَّاءُ عِلَلَهَا البَتَّةَ، بَلْ هِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنْ قِيَاسِ الطَّبِيعَةِ تَفْعَلُ بِالخَاصِّيَّةِ، فَمَا الَّذِي يُنْكِرُهُ زَنَادِقَتُهُمْ وَجَهَلَتُهُمْ مِنَ الخَوَاصِّ الشَّرْعِيَّةِ، هَذَا مَعَ أَنَّ فِي المُعَالَجَةِ بِهَذَا الاِسْتِغْسَالِ مَا تَشْهَدُ لَهُ العُقُولُ الصَّحِيحَةُ، وَتُقِرُّ لِمُنَاسَبَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ تِرْيَاقَ سُمِّ الحَيَّةِ فِي لَحْمِهَا، وَأَنَّ عِلَاجَ تَأْثِيرِ النَّفْسِ الغَضَبِيَّةِ فِي تَسْكِينِ غَضَبِهَا، وَإِطْفَاءِ نَارِهِ بِوَضْعِ يَدِكَ عَلَيْهِ، وَالمَسْحِ عَلَيْهِ، وَتَسْكِينِ غَضَبِهِ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ، وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَقْذِفَكَ بِهَا فَصَبَبْتَ عَلَيْهَا المَاءَ وَهِيَ فِي يَدِهِ، حَتَّى طُفِئَتْ، وَلِذَلِكَ أُمِرَ العَائِنُ أَنْ يَقُولَ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ**»؛ لِيَدْفَعَ تِلْكَ الكَيْفِيَّةَ الخَبِيثَةَ بِالدُّعَاءِ الَّذِي هُوَ إِحْسَانٌ إِلَى المَعِينِ، فَإِنَّ دَوَاءَ الشَّيْءِ بِضِدِّهِ، وَلَـمَّا كَانَتْ هَذِهِ الكَيْفِيَّةُ الخَبِيثَةُ تَظْهَرُ فِي المَوَاضِعِ الرَّقِيقَةِ مِنَ الجَسَدِ؛ لِأَنَّهَا تَطْلُبُ النُّفُوذَ فَلَا تَجِدُ أَرَقَّ مِنَ المَغَابِنِ وَدَاخِلَةِ الإِزَارِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ كِنَايَةً عَنِ الفَرْجِ، فَإِذَا غُسِلَتْ بِالمَاءِ، بَطَلَ تَأْثِيرُهَا وَعَمَلُهَا، وَأَيْضًا فَهَذِهِ المَوَاضِعُ لِلأَرْوَاحِ الشَّيْطَانِيَّةِ بِهَا اخْتِصَاصٌ.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ غَسْلَهَا بِالمَاءِ يُطْفِئُ تِلكَ النَّارِيَّةَ، وَيَذْهَبُ بِتِلكَ السُّمِّيَّةِ.

وَفِيهِ أَمْرٌ آخَرُ، وَهُوَ وُصُولُ أَثَرِ الغَسْلِ إِلَى القَلبِ مِنْ أَرَقِّ المَوَاضِعِ وَأَسْرَعِهَا تَنْفِيذًا، فَيُطْفِئُ تِلكَ النَّارِيَّةَ وَالسُّمِّيَّةَ بِالمَاءِ، فَيُشْفَى المَعِينُ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ ذَوَاتَ السُّمُومِ إِذَا قُتِلَتْ بَعْدَ لَسْعِهَا خَفَّ أَثَرُ اللَّسْعَةِ عَنْ المَلْسُوعِ، وَوَجَدَ رَاحَةً، فَإِنَّ أَنْفُسَهَا تَمُدُّ أَذَاهَا بَعْدَ لَسْعِهَا، وَتُوَصِّلُهُ إِلَى المَلْسُوعِ، فَإِذَا قُتِلَتْ خَفَّ الأَلَمُ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَسْبَابِهِ فَرَحُ المَلْسُوعِ وَاشْتِفَاءُ نَفْسِهِ بِقَتْلِ عَدُوِّهِ، فَتَقْوَى الطَّبِيعَةُ عَلَى الأَلَمِ فَتَدْفَعُهُ.

وَبِالجُمْلَةِ: غَسْلُ العَائِنِ يُذْهِبُ تِلكَ الكَيْفِيَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ مِنْهُ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ غَسْلُهُ عِنْدَ تَكَيُّفِ نَفْسِهِ بِتِلكَ الكَيْفِيَّةِ.

حِكْمَةُ صَبِّ مَاءِ الاسْتِغْسَالِ عَلَى المَعِينِ: فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ ظَهَرَتْ مُنَاسَبَةُ الغَسْلِ، فَمَا مُنَاسَبَةُ صَبِّ ذَلِكَ المَاءِ عَلَى المَعِينِ؟ قِيلَ: هُوَ فِي غَايَةِ المُنَاسَبَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ المَاءَ مَاءٌ طُفِئَ بِهِ تِلكَ النَّارِيَّةُ، وَأُبْطِلَ تِلكَ الكَيْفِيَّةُ الرَّدِيئَةُ مِنْ الفَاعِلِ، فَكَمَا طُفِئَتْ بِهِ النَّارِيَّةُ القَائِمَةُ بِالفَاعِلِ طُفِئَتْ بِهِ وَأُبْطِلَتْ عَنْ المَحَلِّ المُتَأَثِّرِ بَعْدَ مُلَابَسَتِهِ لِلمُؤَثِّرِ العَائِنِ، وَالمَاءُ الَّذِي يُطْفَأُ بِهِ الحَدِيدُ يَدْخُلُ فِي أَدْوِيَةٍ عِدَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ ذَكَرَهَا الأَطِبَّاءُ، فَهَذَا الَّذِي طُفِئَ بِهِ نَارِيَّةُ العَائِنِ لَا يُسْتَنْكَرُ أَنْ يَدْخُلَ فِي دَوَاءٍ يُنَاسِبُ هَذَا الدَّاءَ.

وَبِالجُمْلَةِ: فَطِبُّ الطَّبَائِعِيَّةِ وَعِلَاجُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى العِلَاجِ النَّبَوِيِّ كَطِبِّ الطُّرُقِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى طِبِّهِمْ، بَلْ أَقَلُّ، فَإِنَّ التَّفَاوُتَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ، وَأَعْظَمُ مِنْ التَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الطُّرُقِيَّةِ بِمَا لَا يُدْرِكُ الإِنْسَانُ مِقْدَارَهُ، فَقَدْ ظَهَرَ لَكَ عَقْدُ الإِخَاءِ الَّذِي بَيْنَ الحِكْمَةِ وَالشَّرْعِ، وَعَدَمُ مُنَاقَضَةِ أَحَدِهِمَا لِلآخَرِ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الصَّوَابِ، وَيَفْتَحُ لِمَنْ أَدَامَ قَرْعَ بَابَ التَّوْفِيقِ مِنْهُ كُلَّ بَابٍ، وَلَهُ النِّعْمَةُ السَّابِغَةُ، وَالحُجَّةُ البَالِغَةُ.

لِلاحْتِرَازِ مِنْ الإِصَابَةِ بِالعَيْنِ سَتْرُ مَحَاسِنِ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِ العَيْنُ: وَمِنْ عِلَاجِ ذَلِكَ أَيْضًا وَالِاحْتِرَازِ مِنْهُ: سَتْرُ مَحَاسِنِ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِ العَيْنُ بِمَا يَرُدُّهَا عَنْهُ، كَمَا ذَكَرَ البَغَوِيُّ فِي كِتَابِ «شَرْحِ السُّنَّةِ»: أَنَّ عُثْمَانَ ﷺ رَأَى صَبِيًّا مَلِيحًا، فَقَالَ: دَسِّمُوا نُونَتَهُ؛ لِئَلَّا تُصِيبَهُ العَيْنُ.

ثُمَّ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ وَمَعْنَى: دَسِّمُوا نُونَتَهُ، أَيْ: سَوِّدُوا نُونَتَهُ، وَالنُّونَةُ: النُّقْرَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي ذَقَنِ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ.

وَقَالَ الخَطَّابِي فِي «غَرِيبِ الحَدِيثِ» لَهُ عَنْ عُثْمَانَ ﷺ: إِنَّهُ رَأَى صَبِيًّا تَأْخُذُهُ العَيْنُ، فَقَالَ: دَسِّمُوا نُونَتَهُ، فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: سَأَلْتُ أَحْمَدَ بْنَ يَحْيَى عَنْهُ، فَقَالَ: أَرَادَ بِالنُّونَةِ: النُّقْرَةَ الَّتِي فِي ذَقَنِهِ.

وَالتَّدْسِيمُ التَّسْوِيدُ، أَرَادَ: سَوِّدُوا ذَلِكَ المَوْضِعَ مِنْ ذَقَنِهِ؛ لِيَرُدَّ العَيْنَ.

قَالَ: وَمِنْ هَذَا حَدِيثُ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ دَسْمَاءُ، أَيْ: سَوْدَاءُ. أَرَادَ الِاسْتِشْهَادَ عَلَى اللَّفْظَةِ، وَمِنْ هَذَا أَخَذَ الشَّاعِرُ قَوْلَهُ:

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الكَمَالِ إِلَى عَيْبٍ يُوَقِّيهِ مِنْ العَيْنِ

ذِكْرُ رُقْيَةٍ تَرُدُّ العَيْنَ: وَمِنْ الرُّقَى الَّتِي تَرُدُّ العَيْنَ مَا ذُكِرَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله السَّاجِيِّ أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ لِلحَجِّ أَوْ الغَزْوِ عَلَى نَاقَةٍ فَارِهَةٍ، وَكَانَ فِي الرِّفْقَةِ رَجُلٌ عَائِنٌ قَلَّمَا نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ إِلَّا أَتْلَفَهُ، فَقِيلَ لِأَبِي عَبْدِ الله: احْفَظْ نَاقَتَكَ مِنْ العَائِنِ، فَقَالَ: لَيْسَ لَهُ إِلَى نَاقَتِي سَبِيلٌ، فَأُخْبِرَ العَائِنُ بِقَوْلِهِ، فَتَحَيَّنَ غَيْبَةَ أَبِي عَبْدِ الله، فَجَاءَ إِلَى رَحْلِهِ فَنَظَرَ إِلَى النَّاقَةِ فَاضْطَرَبَتْ وَسَقَطَتْ، فَجَاءَ أَبُو عَبْدِ الله فَأُخْبِرَ أَنَّ العَائِنَ قَدْ عَانَهَا، وَهِيَ كَمَا تَرَى، فَقَالَ: دُلُّونِي عَلَيْهِ، فَدُلَّ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: **بِسْمِ الله، حَبْسٌ حَابِسٌ، وَحَجَرٌ يَابِسٌ، وَشِهَابٌ قَابِسٌ، رَدَدْتُ عَيْنَ العَائِنِ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ:** ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك]، فَخَرَجَتْ حَدَقَتَا العَائِنِ، وَقَامَتْ النَّاقَةُ لَا بَأْسَ بِهَا.

فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي العِلَاجِ العَامِّ لِكُلِّ شَكْوَى بِالرُّقْيَةِ الإِلَهِيَّةِ:

رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ: مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا، أَوْ اشْتَكَاهُ أَخٌ لَهُ، فَلْيَقُلْ: رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، وَاغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الوَجَعِ**»، فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ الله.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟** فَقَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: **بِاسْمِ الله أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ الله يَشْفِيكَ، بِاسْمِ الله أَرْقِيكَ.**

التَّوْفِيقُ بَيْنَ جَوَازِ الرُّقْيَةِ لِكُلِّ شَكْوَى وَبَيْنَ «لا رُقْيَةَ إِلا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»:

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُونَ فِي الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»، وَالحُمَةُ: ذَوَاتُ السُّمُومِ كُلُّهَا.

فَالجَوَابُ: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُرِدْ بِهِ نَفْيَ جَوَازِ الرُّقْيَةِ فِي غَيْرِهَا، بَلِ المُرَادُ بِهِ: لَا رُقْيَةَ أَوْلَى وَأَنْفَعُ مِنْهَا فِي العَيْنِ وَالحُمَةِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الحَدِيثِ، فَإِنَّ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ رضي الله عنه قَالَ لَهُ لَـمَّا أَصَابَتْهُ العَيْنُ: **أَوَفِي الرُّقَى خَيْرٌ؟** فَقَالَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ أَوْ حُمَةٍ**»، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ سَائِرُ أَحَادِيثِ الرُّقَى العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ، أَوْ دَمٍ يَرْقَأُ**».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ أَيْضًا: رَخَّصَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الرُّقْيَةِ مِنْ العَيْنِ وَالحُمَةِ وَالنَّمْلَةِ.

[زاد المعاد لابن القيم ٤/ ١٦٢-١٧٥].

١١ ـ يجب وضع الضعفة من النساء والذراري في مكان آمن وحصين:

يقول د/ الفنيسان: «وذلك أن رسول الله ﷺ يوم الخندق جمع النساء والصبيان ومن لا قتال عليهم في حصن من حصون المدينة يقال له «أطم حسان بن ثابت» وأمر بعض جنوده أن يتناوبوا حراسة الحصن وخاصة في الليل خوفًا من نقض اليهود». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢١].

١٢ ـ مشروعية القَسَم لتأكيد الخبر:

«هذا ما سمعناه في حديث جابر ﷺ حين أقسم قائلًا: فَأُقْسِمُ بِاللهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٢٠].

١٢ ـ جواز التغني بالشعر:

يقول د/ أبو فارس: نعم يجوز التغني بالشعر إذا لم يكن الغناء مصحوبًا بالعزف على الآلات الموسيقية، أي مجردًا عن ذلك، فقد كان الصحابة يرتجزون والرسول ﷺ يقرهم على ذلك، بل هو كان يردد شعر عبد الله بن رواحة ﷺ.

وتكرار الشعر والتغني به له فائدة: أنه يخفف على النفس ويهون عليها الأعباء التي قد تلاقيها، وهذا ما كنا نلمسه عند آبائنا وهم في حقولهم يحصدون ويغنون أغاني المجد والجد الذي لا عبث فيه ولا هزل.

وإذا كانت الجِمال تطرب للحداء وتغذ السير ولا تشعر بطول المسافة وبُعْد الشُّقة وتعب السفر وهي تحمل الأثقال، فليس عجبًا أن يميل الإنسان إلى هذا النوع من الغناء الذي يروح عنه ويخفف من تعب الحياة ومشاقتها، ولعله من أجل هذا كان الصحابة يرتجزون». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٤، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٩٧-٢٠٠].

١٣ ـ الاستئذان بين الحكم الشرعي والأمر العسكري:

يقول د/ أبو فارس: إن جابر بن عبد الله ﷺ لم يغادر الخندق حتى استأذن من رسول الله ﷺ، وأذن له.

والاستئذان بالإضافة إلى أنه حكم شرعي، ينبغي على المسلم التقيد به، فهو أمر عسكري في حال القتال أو الاستعداد له، فينبغي التقيد التام بالنظام والاستئذان؛ لأن مثل هذه الظروف تعلن فيها الطوارئ، ويبقى الجندي مستعدًا لأي ظرف طارئ ليل نهار، فهي تقضي بأن يقوم كل إنسان بما أوكل إليه من مهمات على وجه السرعة ودون تسويف. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٨].

ويقول د/ بربر: «اختلف العلماء في حكم الانصراف من أرض المعركة بدون إذن من قائد الجيش إلى قولين:

القول الأول: ذهب جماهير العلماء من المالكية والحنابلة: إلى عدم جواز ترك ميدان المعركة إلا بإذن القائد، واشترطوا وجود العذر المبيح لذلك، وللقائد تقدير الموقف، فله أن يأذن وله أن يمنع، بحسب

مصلحة الجماعة. [ينظر: الاستذكار لابن عبد البر ٢/ ٣٤، والمغني لابن قدامة ٩/ ١٧٦، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ١٢١، وشرح الزرقاني ١/ ٣١٣، وعون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٣٢٥].

وتقديم مصلحة الجماعة على الفرد قاعدة شرعية. [ذكرها الصنعاني في سبل السلام ٣/ ٢٢، والمناوي في فتح القدير ٦/ ٣٠٨].

القول الثاني: روي عن الحسن البصري أنه قال: كان ذلك خاصًّا بالنبي ﷺ.

[فتح الباري لابن حجر ٦/ ١٢١].

وقد استدل جماهير العلماء على عدم جواز ترك ميدان المعركة إلا بإذن قائد الجيش بالأدلة التالية:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

وجه الدلالة في الآية: أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى طاعة الله وجهاد عدوهم مع رسول الله ﷺ، فإذا عرض لأحدهم عذر استأذن في التخلف، فكان رسول الله ﷺ مخيَّرًا في الإذن لهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾. [عون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٣٢٥].

وهذا ما فهمه البخاري رحمه الله من الآية؛ ولذلك بوَّب في صحيحه بابًا سماه: باب استئذان الرجل الإمام لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

[صحيح البخاري ٣/ ١٠٨٣].

قال ابن عبد البر: تأول أكثر أهل العلم ذلك على السرايا تخرج من العسكر لا تخرج إلا بإذن الإمام.

[الاستذكار لابن عبد البر ٢/ ٣٤].

وقال مجاهد: ذلك في الغزو. [السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٢٢٣، وسنن سعيد بن منصور ٢/ ٢٣١].

٢- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ فَتًى مِنَّا حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ، قَالَ: فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَكَانَ ذَلِكَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ فَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ**»... [مسلم في السلام (٢٢٣٦)].

وجه الدلالة في الحديث: أن هذا الفتى لم ينصرف من المعركة إلا بعد أن أذن له النبي ﷺ بالانصراف، مع أنه قريب عهد بالزواج. [شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/ ٢٣٤].

٣- ولأن الأمير أعرف بحال الناس وحال العدو، ومكامنهم ومواضعهم وقُربهم وبُعدهم، فإذا خرج خارج بغير إذنه لم يأمن أن يصادف كمينًا للعدو فيأخذوه، أو طليعة لهم، أو يرحل الأمير بالمسلمين ويتركه فيهلك، وإذا كان بإذن الأمير لم يأذن لهم إلا إلى مكان آمن، وربما يبعث معهم من الجيش مَنْ يحرسهم ويطلع لهم. [المغني لابن قدامة ٩/ ١٧٦، والكافي في فقه ابن حنبل لابن قدامة ٤/ ٢٨٢].

أما اشتراط وجود العذر المبيح لذلك؛ فلقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وجه الدلالة في الآية: ذم الله تعالى الذين استأذنوا وطلبوا الرجوع إلى منازلهم يوم الأحزاب، يريدون الفرار والهرب من المعركة. [ينظر: المغني لابن قدامة ٩/ ١٧٦، وتفسير الطبري ٢١/ ١٣٥].

قال ابن تيمية: «وكان قوم من هؤلاء يقولون، والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في آطام المدينة: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة، أي مكشوفة، ليس بيننا وبين العدو حائل.

[مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٨/ ٤٥١].

أما دليل الحسن رحمه الله على خصوصية هذا الحكم بالنبي ﷺ، فقد يكون ممن يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

لكن الراجح هو قول جماهير العلماء: أن العبرة بعموم اللفظ وخصوص السبب. [ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٨٩، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٢، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ١/ ٩٣، والمحصول للرازي ٤/ ٧٧، والمستصفى للغزالي ١/ ٢٣٦، وفتاوى السبكي ١/ ٤٤، والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ٢/ ٣٥٢، والقواعد والفوائد الأصولية وما يتعلق بها من أحكام للبعلي الحنبلي ١/ ٢٤٠، والإبهاج للسبكي ٢/ ١٨٤].

وقد يفهم من الآية التي في سورة التوبة أنها تمنع الاستئذان أثناء المعركة، وهي قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة].

فالآية فيها عتاب من الله ﷻ لنبيه ﷺ؛ لأنه أذن للمنافقين بالتخلف عن الغزو قبل أن يستبين الصادق من الكاذب. [الكشاف للزمخشري ٢/ ٢٦٢].

وقد قيل: إن الآية منسوخة. [أخرجه البيهقي في السنن الكبرى باب الاستئذان في القفول بعد النهي ٩/ ١٧٣].

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة]، نسختها التي في النور، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

ويمكن الجمع بين الآيتين: أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان، فإذا عرض لأحدهم عذر استأذن في التخلف، فكان رسول الله ﷺ مُخيَّرًا في الإذن لهم بقوله: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، وأما المنافقون فكانوا يستأذنون في التخلف من غير عذر، فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكون بغير عذر. [عون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٣٢٥].

الترجيح: الراجح ـ والله أعلم ـ جواز الاستئذان من المعركة لعذر بيِّن بخمسة شروط هي:

١- وجود الكفاية من المجاهدين في المعركة.

٢- موافقة الإمام أو قائد الجيش.

٣- ألا يكون الاستئذان سببًا للبلبلة والتثبيط داخل صفوف المقاتلين.

٤- أن لا يكون عدد المستأذنين كثيرًا، فقد يسبب الإرباك في صفوف المقاتلين، ويزرع في نفوسهم الخوف، ويشجع الأعداء عليهم.

٥- أن لا يكون المستأذن صاحب خبرة لا يجيدها غيره في الجيش».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٠٥-١٠٩].

١٤ ـ حكم مَنْ دُعي إلى طعام ودعى معه غيره:

يقول د/ بربر: «الأصل عندما يُدعى الإنسان إلى طعام أن يذهب بمفرده، ولا يصحب معه أحدًا، إلا أن يأذن له صاحب الدعوة. [ينظر: الاستذكار لابن عبد البر ٨/ ٣٦١، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٣/ ٢٠٨، وحاشية البجيرمي على شرح منهج الطلاب (التجريد لنفع العبيد) للبجيرمي ٣/ ٤٣٣].

قال مالك: «لا ينبغي لأحد إذا دعي إلى طعام أن يحمل معه غيره؛ لأنه لا يدري هل يُسَرُّ بذلك صاحب الطعام أم لا؟ إلا أن يقول له صاحب الطعام: **ادع من لقيت**، فإن قال له ذلك كان له أن يحمل معه غيره». [الاستذكار لابن عبد البر ٨/ ٣٦١].

ودليل ذلك حديث أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو شُعَيْبٍ، وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ لَحَّامٌ (أي يبيع اللحم)، فَرَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَرَفَ فِي وَجْهِهِ الْجُوعَ، فَقَالَ لِغُلَامِهِ: وَيْحَكَ، اصْنَعْ لَنَا طَعَامًا لِخَمْسَةِ نَفَرٍ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُوَ النَّبِيَّ ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ، قَالَ: فَصَنَعَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَدَعَاهُ خَامِسَ خَمْسَةٍ وَاتَّبَعَهُمْ رَجُلٌ، فَلَمَّا بَلَغَ الْبَابَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا اتَّبَعَنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ رَجَعَ**»، قَالَ: **لَا، بَلْ آذَنُ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ**.

[البخاري في المظالم (٢٤٥٦)، وفي الأطعمة (٥٤٣٤)، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٦)، واللفظ له].

قال النووي: «المدعو إذا تبعه رجل بغير استدعاء ينبغي له أن لا يأذن له وينهاه، وإذا بلغ باب دار صاحب الطعام أعلمه به؛ ليأذن له أو يمنعه، وأن صاحب الطعام يستحب له أن يأذن له إن لم يترتب على حضوره مفسدة بأن يؤذي الحاضرين، أو يشيع عنهم ما يكرهونه، أو يكون جلوسه معهم مزريًا بهم لشهرته بالفسق ونحو ذلك». [شرح النووي على مسلم ١٣/ ٢٠٨].

ولكن جاء عنه ﷺ في غزوة الخندق أنه دعا أهل الخندق للطعام في بيت جابر ﷺ بدون إذنه، كما مر معنا في عرض الغزوة.

وقد بوب الإمام مسلم لهذا الحديث : « بَابُ مَا يَفْعَلُ الضَّيْفُ إِذَا تَبِعَهُ غَيْرُ مَنْ دَعَاهُ صَاحِبُ الطَّعَامِ، وَاسْتِحْبَابِ إِذْنِ صَاحِبِ الطَّعَامِ لِلتَّابِعِ». [مسلم في الأشربة (٢٠٣٦)].

وتبعه النووي في شرحه على صحيح مسلم. [شرح النووي على مسلم ١٣/٢٠٨].

ولعلها من خلال التبويب أشارا إلى أن النبي ﷺ يثق برضا جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ويتحقق بذلك تحققًا تامًا، فهذا صحيح، وقد يكون السبب أن الجيش أصابته مجاعة، كما جاء في سياق الحديث، فجاز دعوة الكل.

لكن السبب الحقيقي في ذلك هو علمه ﷺ، ومعرفته أن الله تعالى سيجري على يديه البركة، فيكثر الطعام حتى يكفي كل مَنْ دعاه، ولذلك قال لجابر رضي الله عنه: «**لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ [عَجِينَتَكُمْ] حَتَّى أَجِيءَ**»؛ لينزعها بيده ﷺ، فتحل بها البركة ويكثر الطعام، وهو ما تم، فيكون هذا من خصوصياته ﷺ.

ويؤيد هذا الفهم ما جاء عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لأُمِّ سُلَيْمٍ: لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ضَعِيفًا، أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ خِمَارًا لَهَا فَلَفَّتِ الْخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ يَدِي وَلَاثَتْنِي (لفت بعضه على رأسه وبعضه على إبطه من الالتياث وهو الالتفاف) بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**آرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ؟**»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ : «**بِطَعَامٍ؟**»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَنْ مَعَهُ: «**قُومُوا**»، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: **يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ!!** فَقَالَتِ : **اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**، فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا عِنْدَكِ**»، فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَفُتَّ، وَعَصَرَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ (خلطته بالإدام وهو ما يؤكل مع الخبز أي شيء كان)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**»، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**»، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**»، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**»، فَأَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ ـ أَوْ ثَمَانُونَ ـ رَجُلاً. [البخاري في المناقب (٣٥٧٨)، وفي الأطعمة (٥٣٨١)، وفي الأطعمة (٥٤٥٠)، وفي الأيمان والنذور (٦٦٨٨)، ومسلم في الأشربة (٢٠٤٠)].

فقول أم سليم رضي الله عنها له حين شكا لها أبو طلحة رضي الله عنه كثرة مَنْ حلَّ به من الناس : «**اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**»، أي أنه لم يأت بهم إلا وسيطعمهم، فقد فهمت أن هذا من خصوصياته ﷺ.

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٠٧-٢١٠].

المبحث الرابع
الدروس السياسية

١ ـ معرفة طبيعة الغريزة العربية وحذر محمد ﷺ:

يقول د/ هيكل: «ومن اليسير عليك أن تُقدر ضرورة الحذر والحيطة بعد كل الذي رأيت من غدرات قريش وغير قريش بالمسلمين، ومن أن بلاد العرب كلها كانت في ذلك الحين، وكانت من بعد ذلك في أكثر أطوار تاريخها، أشبه بمجموعة جمهوريات مستقلة كل واحدة منها عن سائرها، تتخذ كل واحدة منها نظامًا هو أقرب ما يكون إلى نظام القبائل، وتضطر لذلك إلى الاحتماء بعادات وتقاليد لا يألفها تصورنا في الأمم المنظمة.

وكان محمد ﷺ أشد ما يكون حذرًا أن كان عربيًّا بقدر ما رُكِّب في الغريزة العربية من الحرص على الثأر، وقد كانت قريش وكان يهود بني قينقاع ويهود بني النضير وعرب غطفان وهذيل والقبائل المتاخمة للشام، تتربص كل واحدة منها بمحمد ﷺ وأصحابه الدوائر، وتود كل واحدة منها لو تستطيع أن تجد الفرصة لإدراك ثأرها من هذا الرجل الذي فرَّق العرب في دينها شِيَعًا، والذي خرج من مكة مهاجرًا لا حول له ولا قوة إلا ما يملأ نفسه الكبيرة من الإيمان، وها هو ذا في خمس سنوات قد أصبح له من الحول ومن القوة ما جعله مرهوب الجانب من أشد مدائن العرب ومن أشد قبائلها حولًا وقوة».

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٣٧-٣٣٨].

٢ ـ الوقوف على سياسة اليهود في الحجاز:

يقول د/ أبو خليل: «يمكن إجمال سياسة اليهود في الحجاز بثلاث نقاط:

١ ـ المهادنة ما دام رسول الله ﷺ ظاهرًا قويًّا.

٢ ـ الدس بالسر، والتحريض ضد المسلمين بالخفاء، للقضاء عليهم وعلى رسول الله ﷺ.

٣ ـ العداء الظاهر، ودعم القوى المعادية لرسول الله ﷺ علنًا عندما تسمح الظروف بذلك، وهي الظروف التي يتراءى لهم من خلالها قوة المشركين، وقرب انهيار المسلمين.

كل ذلك هدفه الحفاظ على المكانة المتميزة لهم عندما كان العرب في فُرقتهم وقبائليتهم، وصار هدف اليهود كما قال أحد الكتاب إبان الثورة الفرنسية: «**أهدي إلى كل من يطبق من العمال سياسة التخريب، سلامي الأخوي، وإعجابي القلبي**». [(روح الثورات والثورة الفرنسية) غوستاف لوبون، ترجمة محمد عادل زعيتر، مطبعة الشرق بدمشق، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م، ص٣٠٠].

يصعب تصديقهم ولو ادعوا بأن المحبة لغيرهم آخذة من نفوسهم مأخذها، فالحسد والحقد مرضان لازما تصرفاتهم في مسيرة تاريخهم.

والهدف هنا: تقويض أركان الدولة العربية الإسلامية، وأعمالهم هذه شواهد جلية واضحة تدل على عجزهم في المجابهة العلنية وجهًا لوجه». [غزوة الخندق لأبي خليل ٧٠].

٣ ـ الأحزاب الحلفاء لحرب الله ورسوله:

يقول د/ الغضبان: «ولم تنته مهمة اليهود وزعيمهم حيي في دفع قريش للمواجهة، بل كان تخطيطهم أعمق من ذلك وأبعد من ذلك، فقريش لن تستطيع أن تجند لحرب محمد ﷺ أكثر من أحابيشها وأكثر أقرب الناس رحمًا بها.

وقد بلغت قوتها أن تبرز ثلاثة آلاف رجل لغزو المدينة، وقد أثبتت غزوة أُحُد أن هذا الرقم لا يكفي لاستئصال الإسلام من المدينة والمسلمين، إذ فشل في تحقيق هذا الهدف قبل عامين، فلا بد من البحث عن حلفاء آخرين ينضمون للساحة، فمضت اليهود بزعامة كبير مجرميهم حيي إلى قبيلة غطفان كبرى القبائل العربية آنذاك أو من كبرياتها، وراحوا يدعونهم إلى حرب محمد ﷺ، وإذا كانت قريش ذات هدف في حرب النبي ﷺ؛ لتحافظ على كيانها وعلى وجودها، أما غطفان فلا تفهم إلا في لغة المصلحة، والغنيمة والمال.

واليهود بطبيعتهم المادية الحسية الغليظة وبأنانيتهم البغيضة يستطيعون التفاهم مع أمثال هذه النوعيات، ومن أجل هذا عرضوا نصف ثمار تمر خيبر على غطفان على الرواية الأولى، وتمر خيبر كله لعام كامل كما في رواية الواقدي مقابل دخولهم الحرب ضد رسول الله ﷺ، وكان أسرع الناس استجابة لهذا النداء اليهودي من سماه رسول الله ﷺ (الأحمق المطاع) في قومه عيينة بن حصن.

وعيينة بن حصن هذا هو وارث أمجاد أبيه وجده حذيفة بن بدر الذي طار صيته في حرب داحس والغبراء فهو الذي أشعل الحرب بين عبس وذبيان ووضع في وجه داحس من صدَّها أثناء السباق فسُبقت. فكلاهما عريق في البغي والجاهلية.

وإذا كان عيينة بن حصن موغر الصدر على المسلمين، وقد سبق أن وقعت بعض المعارك الجانبية بينه وبين المسلمين، فإن الحارث بن عوف المري الغطفاني كان له موقف آخر، أقرب إلى الحكمة والتعقل منه إلى الضغينة والحقد، ولم يكن يرى الاصطدام مع المسلمين، خصوصًا والتقارب كبير بين ديار الأوس والخزرج وديار غطفان، ولا معنى لفتح جبهة قريبة عليهم من المسلمين.

لقد كان الحارث بن عوف زعيمًا مرموقًا في بني غطفان، وهو المشهور بحكمته في الجاهلية قبل الإسلام، فإذا كان حصن بن حذيفة بطل حرب داحس والغبراء مع أبيه حذيفة بن بدر وهما أبوا عيينة، فإن الحارث بن عوف هو بطل المصالحة وحقن الدماء فيها، وهذا دوره بين الفريقين عبس وذبيان فساروا حتى نزلوا (بنو عبس) على الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري ليلًا ـ وكان عند حصن بن حذيفة (والد

عيينة) فلما عاد قيل له: هؤلاء أضيافك ينتظرونك، قال: بل أنا ضيفهم، فحياهم وهش إليهم، وقال: من القوم؟ قالوا: إخوانك من بني عبس، وذكروا ما لقوا وأقروا بالذنب، فقال: نعم وكرامة لكم، أكلم حصن بن حذيفة، وعاد إليه، فقيل لحصن: هذا أبو أسماء (الحارث) قال: ما ورد إلا لأمر، فدخل الحارث فقال: طرقت في حاجة، قال: أُعطيتَها، قال: بنو عبس وجدت وفودهم في منزلي، قال حصن: صالحوا قومكم، أما أنا فلا أدي ولا أتدى، قد قتل آبائي وعمومتي عشر من بني عبس.

وفي ذلك قال زهير بن أبي سلمى معلقته يمدح الحارث بن عوف، وهرم بن سنان ويذكر هذه الحرب ويقول:

سَعَى سَاعِيَا غَيْظِ بْنِ مُرَّةَ بَعْدَمَا ... تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ العَشِيرةِ بِالدَّمِ
فَأَقْسَمْتُ بِالبَيْتِ الذي طَافَ حَوْلَهُ ... رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وجُرْهُمِ
يَمينًا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا ... عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحيلٍ وَمُبْرَمِ
تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وذُبْيَانَ بَعْدَما ... تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهم عِطرَ مَنْشَمِ
وَقَد قُلتُما إنْ نُدرِكِ السِّلمَ واسِعًا ... بِمَالٍ وَمَعْرُوْفٍ مِنَ الأمرِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْها على خَيرِ مَوْطِنٍ ... بَعيدَيْنِ فيها مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ
عَظِيْمَيْنِ في عُليا مَعَدٍّ هُدِيْتُمَا ... وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنزًا مِنَ المَجْدِ يَعْظُمِ

فحكيم غطفان الحارث بن عوف المري قال: (تفرقوا في بلادكم ولا تسيروا إلى محمد، فإني أرى أن محمدًا أمره ظاهر، لو ناوأه من بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة).

ولكن رأي عيينة في الحرب كان أقوى، فلم يكن له خيار من متابعة قومه، كما تابع عتبة بن ربيعة قومه من قبل، وكان أول قتلى بدر من المشركين، بعد ما سعى في الصلح وحمل دية حليفه عامر بن الحضرمي.

أما بنو سُلَيم فلا عجب أن تنضم إلى المعركة، لسببين: أولهما: الثارات التي بينها وبين محمد ﷺ، وهي التي غدرت بالمسلمين في بئر معونة، واستجابت لعامر بن الطفيل في قتل شهداء بئر معونة، وثانيهما: للحلف القائم بين سُلَيم وقريش، فحلف سيدها سفيان بن عبد شمس هو مع حرب بن أمية والد أبي سفيان القائد الأعلى لجيش المشركين، والذي انتهت إليه زعامة قريش، وللحلف دوره الكبير في الحياة العربية، ومن أجل هذا كان موقف سليم واضحًا ابتداءً حين قالوا لليهود ووعدوهم أن يخرجوا إذا سارت قريش، ولم يكونوا بحاجة إلى تمر خيبر ليخرجهم من مضاربهم نحو غزو المدينة.

وحين ننظر إلى الأعداد الضخمة التي اجتمعت نحو يثرب، نجد أن المجموع الكلي يختلف عن المجموع التفصيلي، فالمجموع الكلي هو عشرة آلاف، والمجموع التفصيلي هو أربعة آلاف من قريش وحلفائها وأحابيشها، بزيادة ألف عن عدد غزوة أُحُد، وألف لسليم، ولغطفان ألفان تقريبًا من فزارة وأشجع ومرة،

فيكون العدد سبعة آلاف وهذا يعني: أن قبيلة أسد الضخمة والتي تنافس غطفان قد حشدت ثلاث آلاف حتى بلغ مجموع الأحزاب العتاة عشرة آلاف مقاتل، وأسد مثل غطفان سبق أن خاضت معارك جانبية ضد رسول الله ﷺ، وبين أسد وغطفان حلف واضح دائم حتى أنهما ليسميان الحليفين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «غِفَارُ وَأَسْلَمُ وَمُزَيْنَةُ، مَنْ كَانَ مِنْ جُهَيْنَةَ خَيْرٌ مِنْ الحَيَّيْنِ الحَلِيفَيْنِ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ، وَهَوَازِنَ وَتَمِيمٍ [دُبُرٌ لَهُمْ] فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الخَيْلِ وَالوَبَرِ».

[مسند أحمد ١٥/ ٥٠٥ رقم ٩٨١٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح، وهذا إسناد حسن، وفضائل الصحابة ﷺ للإمام أحمد برقم (١٤٧٢) ص ٨١٢، وقال محققه: إسناده حسن].

وهكذا اجتمعت الأحزاب من كل حدب وصوب على حرب الله ورسوله.

ولكن هل يكفي أن يشارك اليهود ببضعة عشر رجلًا منهم ويقودوا هذه الآلاف المؤلفة للموت؟ وحيي بن أخطب هل يكتفي بهذه المشاركات الوجدانية دون أن يخرج باليهود في أتون الحرب؟ إنه لن يستطيع الآن أن يقود أهل خيبر لهذه المواجهة، ولكن لا يزال في المدينة فصيل كبير من اليهود يمكن أن يشاركوا في الحرب هم بنو قريظة، لكنهم حلفاء محمد ﷺ فليزج بكل ما يملك من طاقة لتدمير هذا الحلف من الداخل، ولو نجح بذلك لتم تطويق محمد ﷺ والقضاء عليه كما قال جل شأنه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب].

هؤلاء هم الأحزاب، وفي الميزان البشري يجب أن تسقط المدينة في أقل من أربع وعشرين ساعة حيث يطبق عليهم العدو من كل ناحية، أو تستسلم دون قتال، ولا نبالغ إذا قلنا: إن أعظم محنة عانى منها المسلمون في التاريخ الإسلامي كله هي هذه المحنة.

وهنا تبدو عظمة سيد ولد آدم ﷺ كيف واجه المحنة، وبأي صف واجهه، وما هو دور التربية التي تبدو ثمارها اليوم». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٣-١٦، ١٨].

٤ ـ أهمية المبادرة في العمل السياسي:

يقول أ/ حوى: «المبادرة في العمل السياسي تشكل جانبًا مهمًّا منه أو ركنًا من أركانه، والسياسي الناجح هو الذي يبادر في الوقت المناسب إذا وجد استعدادًا، ويفسد مبادرة خصمه إذا بادر الخصم إلى ما يضره، والسياسي المسلم مقيد دائمًا بالحق والعدل والحكم الشرعي والمصلحة، ولكن لابد أن يمتلك في حدود ذلك قوة المبادرة وقوة تجنب مبادرة الخصوم الضارة وما أصعب ذلك، والملاحظ أن حياة رسول الله ﷺ مليئة بالمبادرات، فمبادرته بكتابة العهود بينه وبين سكان المدينة، ومبادرته بالعقود، ومبادرته ضد

استعدادات الآخرين نماذج، وفي قصة الأحزاب تجد الذين أقدموا على مبادرة التجميع ضد رسول الله ﷺ هم اليهود، واليهود في كل زمان ومكان يمتلكون الجرأة على المبادرات، ولكن مبادرتهم تلك ضد رسول الله ﷺ كانت كارثة عليهم، وهذا من توفيق الله له ﷺ ثم من كمالاته، على كل الأحوال فإن على الحركة الإسلامية أن تبادر، وأن تمتلك القدرة على التصرف أمام مبادرات الخصوم».

[الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٣-٧١٤].

٥ ـ أهمية الشورى في الإسلام والتزام الرسول ﷺ بها:

يقول د/ المدخلي: «الشورى في الإسلام مبدأ من مبادئ نظام الحكم الإسلامي، وعليه المعول عندما لا يوجد دليل من الكتاب أو السنة يحتم الأخذ بشيء معين.

وقد شاور الرسول ﷺ أصحابه كثيرًا، كما فعل ذلك الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم بعده.

والشورى مصطلح إسلامي لا ينبغي أن يُطلق على غير مدلوله الشرعي؛ لأن الشورى في الإسلام لها ميزات لا توجد في أي نظام آخر، أو أي قانون مستحدث. [مرويات غزوة بدر الكبرى لباوزير ١٤٢].

وهي خاصة بأهل الحل والعقد، فلا يدخل فيها من لا يستحقها؛ لأن ذلك يخل بهذا المبدأ العظيم، وفي غزوة الخندق حصلت المشاورة من النبي ﷺ لأصحابه حول خطة الدفاع التي يتخذونها حيال الجموع الزاحفة صوب المدينة، التي جاءت من بلادها عاقدة النية استئصال هذا الدين الحنيف الذي أصبح يهدد كيانهم ويبدد أصنامهم.

وقد أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق وذلك لاقتناعه بأنها خطة عظيمة جيدة في هذا الظرف الخطير؛ والوقت القصير؛ ولأنها قد نفذت في بلاد فارس ونفعت.

واقتنع رسول الله ﷺ بهذا الرأي السديد، وسارع إلى تنفيذه، وسارع أصحابه رضي الله عنهم في هذا العمل العظيم، وأنجزوه في مدة وجيزة، حيث لا تستطيع الآلات الحديثة في هذا العصر المتطور ماديًا أن تفعل فعلهم إذا أخذنا في الحسبان أنهم حفروا من طرف الحرة الغربية الشرقي إلى طرف الحرة الشرقية الغربي.

علمًا بأن الحفر واسع وعميق بحيث لم تستطع الخيل اقتحامه مما يدل دلالة واضحة على عِظمه واتساعه، وما ذلك إلا بقدرة الله وقوته وتوفيقه لرسوله ﷺ ولأصحابه الكرام رضي الله عنهم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]». [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣١-٤٣٢].

ويقول د/ الزيد: «لما علم الرسول ﷺ بخبر الأحزاب شاور أصحابه رضي الله عنهم، ولم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقد قيل: إن الله أمر بها نبيه؛ لتأليف قلوب أصحابه وليقتدي به من بعده، وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب، والأمور الجزئية، وغير ذلك، فغيره ﷺ أولى بالمشورة) [السياسة الشرعية ص ١٥٨]». [فقه السيرة للزيد ٤٩٨].

ويقول د/ الغضبان: «إن تجربة أُحُد علَّمت الأمة المسلمة دروسًا عظامًا، ومن أهم هذه الدروس أن تدع قيادة المعركة وإستراتيجيتها لكبار القادة، وعلى رأسهم المصطفى ﷺ، ولكن الدرس الأهم الذي علمهم إياه القرآن أن حق إبداء الرأي مصون، والشورى مهمتها أن تستمع لكل الآراء، ولا حجر على رأي أحد.

وكان رأي سلمان رضي الله عنه تأكيدًا للرأي الذي طرحه سيد القادة ﷺ إذ قال: «**أَنَبْرُزُ لَهُمْ مِنْ الْمَدِينَةِ، أَمْ نَكُونُ فِيهَا وَنُخَنْدِقُهَا عَلَيْنَا**».

وكان رأي سلمان الفارسي رضي الله عنه اعتمادًا على خبرته في حرب الفرس لغيرهم ـ والفرس عريقون في الحرب والمواجهة ـ أن اختار رأي البقاء في المدينة، وإقامة الخنادق حولها، قال: **يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الْخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا، فَهَل لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ نُخَنْدِقَ؟** فَأَعْجَبَ رَأْيُ سَلْمَانَ رضي الله عنه الْمُسْلِمِينَ.

وهذه خبرة جديدة لم يكن للعرب عهد بها، فقد كان جوابهم يوم أُحُد كما قال عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، كُنَّا نُقَاتِلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِيهَا، وَنَجْعَلُ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ فِي هَذِهِ الصَّيَاصِي، وَنَجْعَلُ مَعَهُمْ الْحِجَارَةَ، وَاللهِ لَرُبَّمَا مَكَثَ الْوِلْدَانُ شَهْرًا يَنْقُلُونَ الْحِجَارَةَ إِعْدَادًا لِعَدُوِّنَا، وَنُشَبِّكُ الْمَدِينَةَ بِالْبُنْيَانِ فَتَكُونُ كَالْحِصْنِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَتَرْمِي الْمَرْأَةُ وَالصَّبِيُّ مِنْ فَوْقِ الصَّيَاصِيِّ وَالآطَامِ وَنُقَاتِلُ بِأَسْيَافِنَا فِي السِّكَكِ**».

فقتال المدن عندهم هو داخل المدينة وفي السكك، ومن فوق الصياصي والآطام، أما الحيلولة دون دخول العدو للمدينة بإقامة الخنادق والمتاريس، فهذا ما لم تعهده الحرب العربية آنذاك.

والخبرة العربية القديمة في قتال المدن كما يقول ابن أبي: تحتاج إلى إعداد طويل وبطيء، كما يقول: فربما مكث الولدان شهرًا ينقلون الحجارة إعدادًا لعدونا، ولكن عامل الوقت الآن هو أخطر العوامل، فما هي إلا أيام إلا وجيش العدو في المدينة، فلابد من الاستفادة من عامل الوقت هذا في اتخاذ القرار المناسب الذي تتغير نتيجة المعركة على ضوئه». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢١-٢٢]».

ويقول د/ أبو فارس: «إن الرسول ﷺ لم ينفرد برأيه ويستبد بالأمر، فقد شاور الصحابة رضي الله عنهم في اختيار موقع القتال، فكان رأي الجميع التحصن بالمدينة.

والذي يدل على أهمية الشورى في هذا الدين هو إكثار النبي ﷺ منها، امتثالًا لأمر ربه سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، نزلت هذه الآية بعد غزوة أُحُد لتؤكد أمر الشورى مهما كانت نتيجتها حتى وإن أدى رأي الأغلبية أحيانًا إلى فشل؛ ذلك لأنه خير للأمة أن تفشل في واقعة من أن تخسر شخصيتها واستقلالها.

هذا وتتأكد الشورى في القرارات المصيرية كقرار الحرب، ينبغي ألا ينفرد به أحد؛ لأن القرارات المصيرية ينبغي أن يشارك فيها كل مؤهل للنظر في تقرير المصير بعقله الراجح ورأيه السديد».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٦-٩٧].

ويقول عميد/ كاخيا: «فقد كان ﷺ يلجأ إلى التشاور مع أصحابه وأفراد جيشه في كل أمر أو مسألة هامة تخص صالح المسلمين، وهذا ما رأيناه عندما قرر الدفاع والتحصن في المدينة المنورة مقابل جيش قريش المتفوق، وإقراره رأي سلمان الفارسي ﷺ بحفر الخندق في الجهة المفتوحة من المدينة المنورة؛ لمنع توغل العدو فيها وتحقيق الأمن الذاتي للأطفال والنساء والذراري، وكذلك قبوله لرأي كل من سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في عدم التفاوض مع قبيلة غطفان والمثابرة على الحرب كما سيأتي».

[الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٧٣].

٦ ـ مواجهة الأزمات بالعزيمة والتنفيذ:

يقول د/ الغضبان: «إن قادة الأمم هم الذين يستطيعون مواجهة الأزمات باستغلال الطاقات والأوقات، فقد انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعد أربعة أيام من انفصال قريش من مكة عن طريق وفد خزاعة حليفة النبي ﷺ، فلابد من الاستفادة بأقصى ما يمكن بعد اتخاذ القرار المناسب ليتم العمل قبل وصول قريش وحلفائها إلى المدينة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد اتجه الرأي عند المسلمين جميعًا بالأخذ برأي سلمان الفارسي ﷺ.

لقد انتهت غزوة الخندق قبل أن تبدأ، فقد صعق المشركون لهذه الخطة الحربية التي لم يعهدوا مثيلًا لها في تاريخهم، ولابد أن نشير من جهة ثانية إلى أن المصطفى ﷺ يقطف الآن ثمار التربية الخالدة التي أنشأ عليها هذا الجيل الفريد في التاريخ، فاتخاذ القرار خطوة حاسمة ولا شك، لكن تنفيذ القرار والمتابعة الحية المستمرة له هي أخطر من القرار نفسه، فكان ﷺ يرعى بشخصه الكريم، ويوزع المسؤوليات كاملة، ويتابع التنفيذ خطوة خطوة، حتى قام ذلك الخندق العظيم الذي حطم على حجارته هجوم الأحزاب كلها». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٢-٢٣].

٧ ـ معاونة الرسول الكريم ﷺ لأصحابه في حفر الخندق:

يقول عميد/ كاخيا: «فقد ساوى رسول الله ﷺ نفسه مع أصحابه عند حفر الخندق فكان ينقل التراب ويضرب بالفأس ويضع الحجر على بطنه من قلة الطعام وشدة الجوع، بل كان يعاونهم علي تفتيت الصخر بأن يضربها بالفأس بيديه الشريفتين بعد أن يضع عليها قليلًا من الماء ويدعو الله القوي الجبار فتنقلب بين يديه كالكثيب، وكان أيضًا يرتجز معهم الشعر الحماسي ترغيبًا بالعمل وابتغاء ثواب الآخرة كقوله ﷺ:

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ

فقالوا مجيبين له: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

[الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٧٣].

٨ ـ خطأ الفهم وخطأ المقارنة:

يقول د/ أبو خليل: «يقول كلود كاهن: (وكان يتوجب على محمد ﷺ أن يؤمّن أيضًا لطائفة المسلمين وجودها المادي، وأن يجعلها متلاحمة في ميادين القتال، وأن يصد غارات قريش التي أقلقها نشوء جماعة إسلامية معادية لها في المدينة، إلى أن تحين الساعة التي تدخل فيها قريش في الدولة الجديدة، أما أخبار (المغازي) التي يطيب للرواة أن ينقلوها لنا في كل تفاصيلها، فهي في بعض مظاهرها استمرار للغزوات القديمة التي اعتادت القبائل أن تشنها على بعضها).

[تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ١٣، نشر دار الحقيقة، ط٢].

خطأ في الفهم، وخطأ في المقارنة.

أولًا: ما اجتمع العرب قبل الإسلام كاجتماعهم هذا، الذي كان هدفه: «إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله».

ثانيًا: هدف غزوات العرب قبل الإسلام، الغزو للغزو ليس غير.. مال، سبي، غنائم، فروسية.

واليوم، استئصال الدين الجديد، هدف ديني سياسي، وبسبب طريق تجارة قريش المار من المدينة يُضاف هدف اقتصادي أيضًا فقوبلت الأحزاب بخطط محكمة مدروسة، وبمفاجأة أذهلتهم، وما عهدوها قبلًا في جاهليتهم.

ووجدت الأحزاب تماسكًا بين المسلمين وقيادتهم، ورأت السيطرة التامة للقيادة على الأحداث منذ اللحظة الأولى، فمنذ الساعات الأولى لحفر الخندق، لا مغادرة إلا بإذن مسبق، فحقق النبي ﷺ التلاحم المطلوب للوقوف في وجه عشرة آلاف مشرك ومَنْ وراءهم من اليهود ومكائدهم.

فالأمر تبدل، والأهداف تغيرت، وبالتالي ستكون النتائج أعم وأشمل على مر الزمن، وأهم وأبرز في مسيرة التاريخ». [غزوة الخندق لأبي خليل ١٠٠-١٠١].

المبحث الخامس
الدروس العسكرية

١ ـ أهمية رصد تحركات العدو في وضع الخطة:

سبق تفصيله في الدروس المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

٢ ـ القائد يتدارس الخطة ويختار موقع المعركة مع أركان حربه:

يقول د/ الفنيسان: «لما تأكد رسول الله ﷺ، ما أجمع عليه الأحزاب، جمع كبار الصحابة وذوي الرأي فيهم، وأخبرهم خبر العدو وما أجمعوا له، وشاورهم هل يخرجون إليهم فيلاقونهم خارج المدينة، أم يقاتلون وهم داخلها؟ فقال بعضهم نحارب داخلها ونحمي ذرارينا، وقال سلمان الفارسي ﷺ: «**يَا رَسُولَ الله، إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا**»، فاستصوب الرسول ﷺ رأيه واختار موقع المعركة لصالحه، فاستفاد من الحِرَّتَيْن الشرقية والغربية كحاجزين طبيعيين لا يمكن عبورهما، وحفر الخندق واصلًا بينهما، ونصب خيمته في منتصف الخندق على جبل صغير يقال له «ذوباب» ليتمكن من متابعة ومراقبة أصحابه وتشجيعهم وهم يحفرون». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٧-٢٣٨].

ويستفاد من بحث الرسول ﷺ عن مكان ملائم لنزول الجند أهمية الموقع الذي ينزل فيه الجند، وأنه ينبغي أن يتوافر فيه شرط أساسي وهو الحماية التامة للجند؛ لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها. [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٢٦].

٣ ـ تشجيع القائد جنده على التفكير للمصلحة العامة:

يقول د/ الرشيد: «كان النبي ﷺ يشجع أصحابه على التفكير البَنَّاء، الذي تتحقق من ورائه مصلحة عامة للمسلمين، فكان يُظْهِرُ التقديرَ والاحترامَ لمن حَقَّقَ شيئًا من ذلك، حتى يدفع الآخرين لكي يسلكوا هذا السبيل، وحين أشار سلمان الفارسي ﷺ على النبي ﷺ بفكرة حفر الخندق، أعجبه هذا الرأي وأظهر التقدير الأدبي الرفيع لسلمان ﷺ على تفكيره السَّديدِ الذي قَدَّمَ لجيش المسلمين أحدث أسلوب يمكن أن يُطَبِّقوه حتى يسلموا من كيد أعدائهم.

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الْمُزَنِيُّ ﷺ قَالَ:... احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ فِي سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ، وَكَانَ رَجُلًا قَوِيًّا، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: سَلْمَانُ مِنَّا، وَقَالَتِ الأَنْصَارُ: سَلْمَانُ مِنَّا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**». [مجمع الزوائد ٦/ ١٨٩ في المغازي والسير (١٠١٣٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٦/ ٢١٢ رقم ٦٠٤٠]، وفيه كثير بن عبد الله المزني وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٦٩١ رقم ٦٥٤١، وقال الذهبي: «سنده ضعيف». دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤١٨].

ويظهرُ ـ والله أعلم ـ أن لقول الرسول ﷺ هذا معنيين آخرين:

الأول: أنه ﷺ أراد أن يقطع دابر العصبيات التي يفتخر بها الناس، فإن قيمة المرء تكمن في تقديمه لكل ما يحقق للمسلمين مصلحةً عامةً بِغَضِّ النظر عن حسبه ونسبه.

الثاني: أنه ﷺ أراد بهذا القول أن يقتدي به قادة الجيوش الإسلامية في تشجيع جنودهم على التفكير في المصلحة العامة، وبذل الجهد فيما يحقق النفع للآخرين، يستوي في ذلك أن يكون هذا التشجيع ماديًّا أو أدبيًّا.

وفي ذلك دعوة لاكتشاف الطاقات والمواهب الكامنة في النفوس، حيث إن في ظهورها إلى واقع الحياة تحقيقًا للمصالح العامة ودفعًا للمفاسد الواقعة أو المتوقَّعة». [القيادة العسكرية للرشيد ٤٧٨-٤٧٩].

٤ ـ أجدى الوسائل لتجنب الاستئصال:

يقول أ/ حوى: «لقد قرر رسول الله ﷺ أن يدافع عن عاصمته، فهي معقله الأول والأخير على قلة العدد وكثرة العدو، وهذا يجعلنا أمام قاعدة مهمة أنه لا خيار في القتال عندما يصل العدو إلى العاصمة أو المعقل الأخير، أما إذا كان الانسحاب إلى معقل أو قيادة فهذا يدخل في التحيز إلى فئة، ولكن مع هذا فقد حرص الرسول ﷺ ألا يدخل في قتال تصادمي مع جيوش تفوق جيشه، وهذا يوصلنا إلى فكرة البحث عن أجدى الوسائل لتجنب الاستئصال، فليست مهمات القيادة أن تقاتل أو تجهز للقتال فقط بل من مهماتها أن تفكر في أن تكون خسائرها أقل إن فاتها أن تجعل خسائرها معدومة، فإذا عرفنا أنه لم يُقتل من المسلمين في غزوة الأحزاب إلا ستة أدركنا كيف أن مبدأ الاقتصاد في القوى كان مطبقًا على أرقاه عند رسول الله ﷺ وفي ذلك درس للقيادات التي لا تبالي بعدد الضحايا في المعارك الرئيسة أو الجانبية».

[الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٢-٧١٣].

٥ ـ استخدام مبدأ الحشد:

حيث قرر رسول الله ﷺ أن يتخذ خطة الدفاع من المدينة وحفر الخندق ووضع قواته بين الخندق والمدينة، فكانت له المبادأة وحرية العمل بينما كانت قريش تتوقع أن يكون اللقاء في أُحُد».

[انتصارات عربية خالدة لفرج ٥١].

٦ ـ الظروف الصعبة لغزوة الخندق:

يقول عميد/ كاخيا: «إن تحضير وتنظيم معركة غزوة الخندق الدفاعية كان ـ حسب المراجع ـ في شهر شوال عام (٥هـ) ما يوافق كما رأينا في متن البحث شهري شباط (فبراير) وآذار (مارس) من عام (٦٢٧م) أي خلال فصل الشتاء البارد الذي يمر عادة على إقليم المدينة المنورة، وهذا ما تؤكده كتب السيرة النبوية أن حفر الخندق كان يتم في ليال باردة بل شديدة البرودة، وفي شروط مناخية صعبة، كما أن حصار المشركين للمدينة تم في ظروف جوية صعبة بل قارصة البرد وفق بعض المراجع الموثوق فيها».

[الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٧٢-٧٣].

٧ ـ أهمية البقاء في المدينة المنورة:

يقول الشيخ المسند: «بلغ الخبر رسول الله ﷺ مجزءًا، وكالعادة جمع أصحابه واستشارهم فأخذوا يديرون وجوه الرأي، وبعد جمع الأخبار علموا بتكالب الأعداء جميعًا فأحسوا بثقل الأمر وبأن هذه المرة هي القاضية لو تمكن الأعداء من تنفيذ خطتهم، ولم يختلفوا هذه المرة مطلقًا في أن البقاء في المدينة أمر ضروري للأمور التالية:

أولًا: إن العدد الذي سيأتيهم به المشركون عدد كبير لا ينسب إلى عددهم.

ثانيًا: إن عدوهم شرير متحمس مستعد، له ثأر كبير وقد وجد فرصته للانقضاض على الآمنين المسالمين.

ثالثًا: إنه أفسد المجتمع المتخفي في المدينة فجعله يظهر بغضبه وحقده على المسلمين، وليس أنكى ولا أعظم ولا أشد خطرًا من خيانة المجتمع أو الجيش من داخله». [متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٦٨-٦٩].

ويقول الشيخ عبيد: «وقَبِلَ رسول الله ﷺ هذه المشورة؛ لأن فيها الخير، ثم هي تحقق الآتي:

(أ) تحفظ الأمة الناشئة وتدفع عنها سطوة هذا الهجوم العام.

(ب) كثرة الأعداء وكثرة العُدة والعتاد في أيديهم، والمسلمون ليسوا مثلهم.

(ج) ضعف المسلمين وبرودة الجو وقلة المؤونة، وقلة العدد، فهم ثلاثة آلاف مقاتل.

(د) علاوة على ما قلنا فإن حفر الخندق دليل لا يقبل الشك أن محمدًا ﷺ مع صحبه لا رغبة لهم في القتال؛ لأنه يؤدي إلى الخراب والدمار، ومحمد ﷺ مع صحبه يعملون من أجل السلام وينشدون السلام ولا يريدون الحرب أبدًا؛ لأن الحرب عند المسلمين ضرورة يلجأون إليها كدفاع عن النفس وهم مضطرون». [غزوة الأحزاب لعبيد ١٩-٢٠].

٨ ـ الأخذ بتطورات العصر:

يقول د/ أبو فارس: «من أخذ النبي ﷺ برأي سلمان ﷺ في حفر الخندق نلمس المعاصرة منه وحرصه على أن يكون الجيش الإسلامي بقيادته جيشًا معاصرًا قد استوعب كل قضايا عصره من حيث التخطيط والتسليح وأساليب القتال، ففي هذه الغزوة ابتكر ﷺ أسلوبًا جديدًا في القتال هو التراشق بالسهام دون الالتحام مع تأمين ظهره، وحجز عدوه عنه بالخندق». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٧-٩٨].

ويقول د/ الفنيسان: «فوجئت قريش وحلفاؤها بوجود الخندق حول المدينة، وهذه وسيلة حديثة للدفاع لم يعتدها العرب من قبل، كانت سببًا في ارتباك خطة قريش مع حلفائها ووهن عزيمة قادتها وهزيمتهم». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٧].

ويقول د/ الصلابي: «لقد كانت خطة الرسول ﷺ في الخندق متطورة، ومتقدمة، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم، بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريبًا عنهم؛ وبهذا يكون الرسول ﷺ هو أول من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام، وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم».

[السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٦٠-٢٦١].

وقال الإمام السهيلي: «وَحَفْرُ الخَنْدَقِ لَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ مَكَايِدِ الفُرْسِ وَحُرُوبِهَا؛ وَلِذَلِكَ أَشَارَ بِهِ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ ﷺ، وَأَوَّلُ مَنْ خَنْدَقَ الخَنَادِقَ مِنْ مُلُوكِ الفُرْسِ فِيمَا ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ: مِنُوشِهْرُ بْنُ أَبِيرِجَ بْنُ أَفْرِيدُونَ، وَقَدْ قِيلَ فِي أَفْرِيدُونَ إِنَّهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عليه السلام، وَأَكْثَرُهُمْ يَقُولُ فِيهِ هُوَ ابْنُ أَثْقِيَانَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ آلَةَ الرَّمْيِ، وَإِلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً مِنْ مُلْكِهِ بُعِثَ مُوسَى عليه السلام».

[الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٠٦].

٩ ـ أهمية اختيار موقع الجيش:

يقول أ/ باشميل: «لقد كان اختيار المنطقة الشمالية من المدينة لتكون موقعًا رئيسًا للجيش الإسلامي، اختيارًا موفقًا من الناحية الإستراتيجية.

فقد كان ذلك المكان هو أصلح مكان يجب أن يعسكر فيه من يريد الدفاع عن المدينة لأنه الناحية الوحيدة المكشوفة التي لابد لأي غاز يريد احتلال المدينة من أن يتجه إليها.

لأن الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة الأخرى، والأبنية المتشابكة والحواجز الطبيعية الصعبة ـ كالجبال وغيرها ـ التي لا تسمح لقوات الأحزاب الكبيرة أن تقوم بإجراء أي قتال على نطاق واسع كما تريد، الأمر الذي يجعل قادة الأحزاب لا يفكرون في ارتياد تلك الجهات للهجوم على المدينة منها.

فالناحية الوحيدة الصالحة للقتال على أوسع نطاق (كما يريد قادة الأحزاب) هي الناحية الشمالية للمدينة حيث المسالك الواسعة والميادين الفسيحة، دونما حواجز طبيعية تذكر، وهذه الناحية هي التي قررت القيادة الإسلامية حفر الخندق فيها بصفة رئيسة». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٣٠-١٣١].

١٠ ـ الخنادق من وسائل الدفاع الثابتة:

يقول د/ عون:

(١) **تاريخها وتطورها**: الخندق من وسائل الدفاع القديمة عند الفرس والروم، يحفرونه حول مدنهم وحصونهم للدفاع عنها من خلفه، وكان ذلك عندهم كالمبدأ المقرر، ولكن العرب لم يعرفوه إلا عن الفرس، وبدليل أن اسمه فارسي معرَّب، فاسمه بالفارسية (كنده) بمعنى محفور.

[المعجم الفارسي للدكتور هنداوي. مطبعة مصر، والمعرَّب من كلام العرب للجواليقي ص٩٦].

وأول من استعمله من العرب هو الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب، فإنه لما علم بخروج قريش وحلفائها من البدو، جمع أصحابه في مجلس حربي واستشارهم، فأشار عليه سلمان الفارسي ﷺ بحفر خندق حول المدينة، جريًا على عادتهم في بلادهم، فاستحسن الرسول ﷺ الفكرة، وخرج في ثلاثة آلاف من أصحابه، وارتاد موضع الخندق، وبعد التدبر استقر رأيهم على أن يُحفر في الجهة الشمالية من المدينة وهي الجهة المكشوفة منها، التي لا تحميها البيوت العالية [تاريخ الطبري ٣/ ٤٥]، فجعل الرسول جبل «سلع» خلف ظهره، وحفر الخندق ممتدًا من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، بعد أن قسم حفره بين أصحابه، وخصص لكل عشرة منهم أربعين ذراعًا، وخطَّه لهم حتى لا يعدلوا عنه».

[تاريخ الطبري ٣/ ٤٥، والإدريسي في التراتيب الإدارية ١/ ٣٧٦].

ولقد تجلت عقلية الرسول ﷺ الحربية في سرعة إنجازه، فإنه جعل كل أصحابه يعملون فيه، وساعدهم بآلات حفر كثيرة استعارها من بني قريظة، وأخرج الرمال والصخور ناحية المدينة؛ ليضمن عدم ردم الخندق بها إذا أخرجها جهة العدو، وليضمن لأصحابه ساترًا كافيًا يحاربون من خلفه، ويرمون عدوهم وهو في أرض مكشوفة أمامهم؛ ولذا فوجئ الأحزاب بالخندق لما شاهدوه وقالوا: «هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها».

ولقد ضرب الرسول ﷺ يومها أروع الأمثال للقائد القدير الحكيم، بأن شارك أصحابه في الحفر ونقْل الرمال؛ استنهاضًا للهمم، وتشجيعًا على العمل [بهجة النفوس لابن أبي جمرة ٣/ ١١٢ ـ ط الصاوي سنة ١٣٥٣ هـ والسيرة الحلبية ٢/ ٣٣٢]، فأتموا حفره بهمة فائقة، في مدة متوسطها عشرون يومًا، مع اختلاف الروايات، وبعمق خمسة أذرع (ثلاثة أمتار تقريبًا) كما روى الحلبي [السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٤، ٣٣٥]، أما عرض الخندق فلم أوفق لنص صريح فيه، ولكن المفهوم أنه عُمل ليحول بين الخيل والمدينة، وأظن أن قفزة الجواد الجيد تقارب الأمتار الستة؛ ولذا فيرجَّح أن عرضه كان في حدود ذلك المقياس؛ لأن بعض الخيل استطاعت عبوره، فقُتلت وقُتل أصحابها.

وإذا علمنا أن الرجل خصه في حفر الخندق أربعة أذرع، وأن الجند كانوا ثلاثة آلاف يومها، استطعنا أن نعرف أن طول الخندق كان حوالي ١٢ ألف ذراع، أي حوالي ستة كيلومترات أو يزيد، حُفرت في عشرين يومًا، بعمق ثلاثة أمتار وعرض ستة أمتار، ومن هنا نعلم مقدار الجهد الذي بُذل فيه.

وقد قام الرسول ﷺ بتخطيط خندقه، وعمل فيه بيده مع جنده، فلم يجعل الحفر قاصرًا على العبيد، كما كان يفعل البيزنطيون، وبث الحُرَّاس حوله بعد الفراغ منه، وكان هو يحرس بعض النقط المخيفة بنفسه؛ لأنه كان يحب أن يكون قدوة لجنده في العمل.

وأول من استخدم الخنادق في خلافة أبي بكر ﷺ وأكثر منها، هو العلاء بن الحضرمي ﷺ أثناء قتاله المرتدين بالبحرين، فقد روى الطبري وابن الأثير [ينظر: الطبري ٣/ ٢٥٨، والكامل ٢/ ١٥٥] وغيرهما أن المسلمين والمرتدين هناك، كانوا يحفرون الخنادق يتحصنون بها، ثم يتراوحون القتال منها.

وفي خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ومن بعده، اتسعت الفتوح وكثرت الجيوش الموجَّهة شرقًا وغربًا، فكان لابد من العناية بالتحصينات، التي تكون مانعًا من البيات والمفاجأة، وكثيرًا ما نصح الخلفاء قوادهم بالتزام الخنادق خشية البيات. [الكامل ٥/ ١٦٧].

فصاروا إذا نزلوا ليلًا في موقع خندقوا حول عسكرهم بالطريقة الرومية، تاركين للمرور بابين أو أربعة، متحصنين بالجسور والخنادق المائية [كريمر: الشرق في حكم الخلفاء ص٣٠٦]، وكانوا إذا حاصروا عدوا مخندقًا على نفسه، وأرادوا إشعاره بدوام الحصار، ضربوا خندقًا حول خندقه، ليبأس من فك الحصار ويبادر بالتسليم، وقد طُبقت هذه الخطة في حصار مدينة «هيت» على شاطئ الفرات، فأسرع أهلها بالتسليم. [الطبري ٣/ ١٨٨ والفاروق عمر ﷺ لهيكل ص١٧٥].

ومن القواد الذين عُرفوا بالتزام الخنادق في الميدان المهلَّب بن أبي صفرة في حربه للخوارج؛ لأنه كانوا أهل جرأة ومكر في حروبهم.

وأحيانًا كان القائد يغتر بقوته ويهمل حفر الخنادق فينال منه عدوه ويوقع به لغفلته.

[الكامل لابن الأثير ٤/ ١٦٤، ٦٥].

وبتقدم الزمن لم يقف استخدام المسلمين للخنادق عند هذا الحد، بل صاروا يحفرونها حول المعسكرات الدائمة، وحول المدن والثغور المهمة، فكان الوالي إذا بنى مدينة مهمة، جعل لها خندقًا يحيط بسورها، وأحيانًا كانوا يحفرون خارج السور خندقين أو أكثر، فالحجاج بن يوسف لما فرغ من بناء مدينة «واسط» بين البصرة والكوفة حصنها بسور وخندقين، وأنفق عليها وعلى قصره والمسجد الجامع ٤٣ مليون درهم، وفرغ من بنائها بعد عامين. [الكامل لابن الأثير ٤/ ١٦٨، والجندية لنعمان ثابت ص٣٠].

بل لقد تدارك بعض الخلفاء ما فات أسلافَهم، فحصَّنوا المدن التي أقيمت في مراكز «إستراتيجية» هامة، قبل شيوع فكرة الخنادق، التي كانت تستغرق كثيرًا من الوقت والمال، فالخليفة «أبو جعفر المنصور» خندق على الكوفة والبصرة في عام ١٥٥هـ ـ (٧٧٢م) وضرب عليهما سورًا، وجعل ما أنفق على ذلك من أموال أهلها، وكانتا قد بنيتا في عهد «الفاروق عمر ﷺ» بلا خنادق ولا أسوار. [تاريخ الطبري ط المطبعة الحسينية ٨/ ٢٨٥، والكامل ٦/ ٢، وفي مختصر تاريخ البصرة للأعظمي أنه كتب بذلك إلى الهيثم فقام به. ط بغداد ١٩٢٧م].

وقد بنى بعد ذلك بثلاث سنوات مدينة الرصافة ومسجدها، وحفر حولها خندقها، وكذلك الشأن في المدن الهامة، تُحاط بالخنادق والأسوار تحصينًا لها.

[ينظر: الكامل ٦/ ٤٥، والمختصر لأبي الفدا ٢/ ٦ الطبعة الأولى].

استمر العمل بنظام الخنادق أيام الدولتين، الأموية والعباسية حتى نهاية القرن الثاني، وأدخلوا على الخنادق كثيرًا من التحسين، فصاروا يبنون عليها الجُدُر العالية، وصاروا يحفرون حول المدينة أكثر من خندق، ويبنون على كل خندق سورًا، وصاروا في حالة الخوف يحفرون حول الخندق حفائر تغطَّى بالقصب والقضبان والتراب [الحسن بن عبد الله: آثار الأول ص٢١٥]؛ لتقع فيها قوات الأعداء، ولقد روى ابن الأثير أن طاهر بن الحسين كان يخندق في بلاد فارس، وأنه أثناء حصاره «بغداد» في الحرب الأهلية بين «الأمين والمأمون» كان إذا استولى على درب خندق عليه وأقام الحيطان. [الكامل جـ ص ص ٨٩، ٩٨، ٩٩ حوادث سنة ١٩٧هـ].

أما متى أُبطل نظام الخنادق: فهذا موضوع تعرض له «فون كريمر» وقرر أنه أُبطل في عهد «المأمون» العباسي، ولا أدري مدى هذا القول من الصواب، فإن صاحب «آثار الأول» وصاحب «كشف الكروب في أمر الحروب» أكثر من ذكر الخنادق، وطريقة ردمها بالمخالي المملوءة بالتراب، وهما متأخران عن القرن الثاني، مما يدل على استمرار العمل بذلك النظام بعد المأمون.

(٢) **طرق اقتحام الخنادق**: ما من أحد يجهل موقف قريش وأحلافها أمام خندق الرسول ﷺ الذي حفره حول المدينة، فكل محاولاتهم لاقتحامه كانت محاولات بدائية، كأن يدور حوله أبطالهم كخالد وغيره؛ ليقتحمه بجواده من أضيق أماكنه، ولم يفكر أحدهم في العمل على ردم جزء منه وعبوره؛ لأنه كان مكيدة غريبة عليهم لم يألفوها.

فلما فتح المسلمون الأقطار بعد الرسول ﷺ، أكثروا من استخدام الخنادق، ومارسوا القتال منها كثيرًا مهاجمين ومدافعين، ففُتحت أمامهم سبل الحيل في التغلب عليها، وعرفوا طرق عبورها، فكان خالد بن الوليد ﷺ إذا صادف خندقًا للعدو، يسرع بذبح الإبل المُسِنَّة التي معه، ثم يرميها ومعها رحالها في أضيق

مكان منه، ثم تعبر قواته فوقها، كما فعل في عبور خنادق الفرس في فتح «الأنبار» وغيرها، وكان يهدف من ذلك أيضًا إلى التخلص من تلك الإبل المُسِنَّة، التي كانت تعوق تقدم الجيش بحمل أولادها عليها.

[ينظر: تاريخ الطبري ٤/ ٢٠، والكامل ٢/ ١٦٥، وعبقرية خالد ﷺ ص ١٨٠].

ثم رأينا المسلمين بعد ذلك، يضنون بلحوم الماشية أن تضيع في الخنادق، فكانوا يأكلون لحومها، ثم يملؤون جلودها بالرمال، ويرمونها في الخندق حتى يمتلئ ويتم لهم عبوره، وكان بعضهم يُطم الخندق بالبراذع والرحال، والزُّبل المملوءة بالرمال.

[الكامل لابن الأثير ٥/ ٦٠، ٩٥، ٦/ ١٧٩ ومواضع متفرقة، والزبل هي القفف].

وكثيرًا ما رأينا خالد بن الوليد ﷺ في فتح دمشق وغيرها، يصادف الخنادق المملوءة بالمياه، فيعبرها سباحة على القِرَب المملوءة بالهواء بعد إحكام غلقها، فإذا أرادوا أن تعبر القوة الخندق، ألقوا فيه حُزمًا من فروع الأشجار، بعد ربطها بحجارة تجعلها ترسب في قاعه، حتى يمتلئ الخندق، ثم يعبره الجند، بعد أن يمهدوا طريقهم فوق الفروع بغرائر الرمال، فإن كان الخندق قليل العرض، طرحوا عليه الأبواب والألواح الخشبية، وجعلوا منها قنطرة، يعبرون فوقها. [آثار الأول ص٢١٤].

ولكي نعرف أثر التطور الزمني، في فكرة عبور الخنادق، يصح أن نستعرض هنا موقف قريش الذي مر آنفًا أمام خندق الرسول ﷺ، ثم نقرأ ما رواه ابن الأثير، وأبو الفدا عن ذلك الخندق نفسه في أواسط القرن الثاني، فقد ذكر أن محمد بن عبد الله المحض لما خرج بالمدينة عام ١٤٥هـ ـ ٧٧٤م عمل على تحصينها ضد قوات القائد العباسي عيسى بن علي، فأعاد حفر خندق الرسول ﷺ حولها، وبنى عليه جهة العدو جدارًا، وقف عليه حراس من أصحابه يدفعون عنه، فلما جاءت القوات العباسية، لم تقف حائرة أمام الخندق وقفة قريش، ولكن بعض قواد عيسى تقدم إلى جداره في مائة من جنده، فهدموه وانتهوا إلى الخندق، فنصبوا عليه أبوابًا خشبية ثم عبروه، فلما جاء عيسى في الجيش بعد قائده المتقدم، ألقى في الخندق الحقائب وغيرها، ثم طرح عليه الأبواب الخشبية، وعبرت فوقها الخيل والرجال.

[الكامل ٥/ ٢١٩، ٢٢٠ والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٣ ط المطبعة الحسينية].

وأحيانًا كان يشتد الدفاع عن الخندق، فيرمي أصحابه الذين يهاجمونه بالسهام وحجارة المجانيق، وفي تلك الحال كان المهاجم يبعد عنه، ثم يحفر تحت الأرض نفقًا يوصله إليه، فإذا انتهى إلى حائط الخندق عمل على ردمه، أو ثقب سور الحصن، ويظهر أن هذه الطريقة استخدمت بعد القرن الثاني، فإن راويها لم يحدد تاريخها، ولم يعين القائد الذي فعلها». [آثار الأول ص٢١٤، وراجع فكرة القرب الهوائية بالكامل ٥/ ٢٠٩ في فتح دمشق]. [الفن الحربي في صدر الإسلام لعون ١٩٠-١٩٥].

١١ ـ حجم الخندق ومدة حفره:

يقول أ/ باشميل: «فقد قسَّم الرسول ﷺ المساحات المطلوب حفرها خندقًا، بين أصحابه لكل عشرة منهم أربعين ذراعًا، عليهم أن ينجزوا حفرها (في حدود العمق والعرض الذي حددته القيادة لهم) بأسرع ما يمكن.

وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، أما عمق الخندق فلا يمكن أن يكون أقل من سبعة أذرع، والعرض (كذلك) لا يمكن أن يكون أقل من تسعة أذرع؛ لأن الخيل باستطاعتها أن تقتحم ما هوا أقل من هذه المسافة.

وقد استغرق حفر الخندق (كما يقول ابن القيم في الهدي النبوي) شهرًا كاملًا».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٤١].

ويقول د/ أبو خليل: «كم عدد المسلمين الذين اشتركوا في حفر الخندق؟

وبكم من الأيام أُنجز وتم حفره؟

تكاد المصادر تجمع على أن عدد المسلمين في الخندق ثلاثة آلاف.

[الاكتفاء ١/ ١١٤/ ب، ابن خلدون ٢/ ٢٩، البداية والنهاية ٤/ ١٠٢، السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٩٧، ابن هشام ٣/ ١٣١، السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٥، الطبري ٢/ ٥٧٠، عيون الأثير ٢/ ٥٧].

وهذا الرقم موضع تساؤل: كان المسلمون في أُحُد قرابة ألف رجل حملوا السلاح، أفمن المعقول أنهم ازدادوا ثلاثة أضعاف في مدة قصيرة؟

يمكننا أن نجد الإجابة في جملة وردت في السيرة الحلبية، وهي أن الذين عملوا في الخندق ليس الرجال فقط: «وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون فيه». [السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٥].

بهذه العبارة يمكننا تثبيت عدد المسلمين الذين عملوا في الخندق ثلاثة آلاف. [ولكن رسول الله ﷺ استعرض عند وصول الأحزاب المجاهدين كلهم، ورد من كان دون الرابعة عشرة من عمره، وبذلك ينخفض عدد الجيش إلى ألف رجل، يزيدون أو ينقصون قليلًا، فليس من المعقول أن يزداد عدد المسلمين من أحد إلى الخندق ثلاثة أضعاف، وأشار ابن خلدون إلى ذلك: «وخرج ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، وقيل في تسعمائة فقط» ٢/ ٢٩].

وتُجمع المصادر أن كل عشرة من المسلمين عملوا في حفر أربعين ذراعًا، فكان نصيب الفرد الواحد وسطيًّا أربعة أذرع.

٣٠٠٠ رجل، نصيب الواحد منهم ٤ أذرع، فيكون طول الخندق: ٣٠٠٠ × ٤ = ١٢٠٠٠ ذراع.

وقدر عَرْض الخندق بتسعة أذرع إلى ما فوقها، وليكن وسيطًا: ١٠ أذرع، وعمقه ٧ أذرع إلى عشرة.

والذراع هنا هو الذراع الشرعي، لقد أجمعت أقول الفقهاء على أن طول الذراع ستة قبضات معتدلات، كل قبضة أربعة أصابع وكل إصبع بعرض ست حبات من الشعير وكل شعيرة بعرض ست شعرات من شعر البغل، وطول الذراع فقهًا: ٢ و٤٦ سم، أو: ٤٦٢ و٠ م.

[راجع كتاب: الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، لأبي العباس نجم الدين بن الرفعة الأنصاري، تحقيق د/ محمد أحمد إسماعيل الخروف، طبعة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. جامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة].

لنحول المقاييس السابقة إلى أمتار:

١٢٠٠٠ ذراع × ٤٦٢ و ٠ =٥٥٤٤ م طول الخندق.

١٠ ذراع × ٤٦٢ و ٠ = ٦٢ و ٤ م متوسط عرضه.

٧ ذراع × ٤٦٢ و ٠ =٢٣٤ و ٣ م متوسط عمقه.

والطول المطلوب من كل فرد إنجازه:

٤ أذرع × ٤٦٢ و ٠ =٨٤٨و١ م.

أما حجم العمل المطلوب من كل فرد فهو:

٨٤٨و١ × ٦٢و٤ × ٢٣٤و٣ = ٦١١١١٥و٢٧ م٣.

ويمكن للعامل النشيط في أيامنا هذه أن ينجز ثلاثة أمتار مكعبة من الحفر، ويمكننا القول: إن هذا الرقم (٣ م٣) مقبول أيضًا للعاملين بالخندق على الرغم من أن أجسامهم كانت أقوى، ولكن بما أن الذين عملوا (من بلغ ومن لم يبلغ) يمكن وسيطًا قبول ثلاثة أمتار مكعبة كمية العمل اليومية.

كمية العمل: ٦١١١١٥و٢٧ كم٣، والإنجاز اليومي ٣م٣، ومن هذين الرقمين يمكننا معرفة عدد أيام العمل: ٦١١١١٥و٢٧ ÷ ٣ = ٢٠٣٧٠٥و ٩ أيام، أي ما بين ٩ إلى ١٠ أيام.

والمدة الطبيعية لوصول المسافر من نجد إلى الحجاز هي على الأقل ثمانية أيام، ولما كان الخبر وصل إلى رسول الله ﷺ بعد أربعة أيام: (أرسلت خزاعة بموكب قطع الطريق بين مكة والمدينة في أربع ليال بالخبر إلى رسول الله ﷺ)، يضاف إليها عشرة أيام مدة حفر الخندق، نقول على ضوء هذا: لم تصل الأحزاب إلى المدينة إلا بعد مرور أكثر من أربعة عشر يومًا، وهي المدة المعقولة لذهاب وفد اليهود من مكة إلى غطفان في نجد، وسير غطفان إلى المدينة لتلتقي بقريش». [غزوة الخندق لأبي خليل ٩٠- ٩٣].

ويقول د/ الوكيل: «قال ابن حجر: عند موسى بن عقبة أنهم أقاموا في عمل الخندق قريبًا من عشرين ليلة، وعند الواقدي أربعًا وعشرين، وفي الروضة للنووي خمسة عشر يومًا، وفي الهدى لابن القيم أقاموا شهرًا [فتح الباري ٧/ ٣٩٤]، وعند ابن سعد أنهم حفروه في ستة أيام.

وبتحقيق هذه الروايات نلاحظ أن أقربها إلى الصواب هي رواية النووي التي تنص على أن حفر الخندق استغرق خمسة عشر يومًا؛ لأن ما عداها من الروايات إما أن يترتب عليه جهد غير معقول لا يتحمله البشر، أو يكون المشركون قد وصلوا إلى المدينة قبل أن يُحفر الخندق، ولا داعي لكلا الأمرين ما دامت هناك رواية صحيحة، وهي أقرب إلى الواقع والمحتمل، وقد رجحتُ رواية النووي للأسباب الآتية:

(١) أن الرسول ﷺ لم يبدأ في حفر الخندق إلا بعد تهيؤ قريش للخروج، يقول ابن إسحاق: «فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا أَجْمَعُوا لَهُ مِنَ الأَمْرِ ضَرَبَ الخَنْدَقَ عَلَى المَدِينَةِ».

ولما كان الطريق من مكة إلى المدينة يحتاج ممن يسلكه إلى أحد عشر يومًا ليقطعه ركب ضخم، وجيش جرار مثل جيش أبي سفيان، وقد قطع الرسول ﷺ وجيشه الطريق نفسه في غزوة الفتح في تلك المدة الزمنية المذكورة، جاء في البداية والنهاية أن الرسول ﷺ خرج من المدينة قاصدًا مكة لليلتين خلتا من شهر رمضان، وكان الفتح لثلاث عشرة ليلة خلت منه، ثم قال: وعلى هذا تكون مدة السفر إحدى عشرة ليلة، وجاء فيها أيضًا عن البيهقي أن الفتح كان في عشر بقيت من رمضان، وهذا مبني على رواية ابن إسحاق، أنه ﷺ خرج لعشر مضين من رمضان. [ابن هشام ٤/ ٣٠، ابن كثير ٤/ ٢٨٦].

فإذا كان الطريق يحتاج من يقطعه لإحدى عشرة ليلة، والتهيؤ للخروج بجيش جرار يحتاج إلى ست أو سبع ليال قبل الخروج، يكون جيش أبي سفيان قد وصل إلى المدينة بعد سبع عشرة أو ثماني عشرة ليلة من بداية العمل في الخندق.

وعلى هذا لو كانت مدة الحفر عشرين يومًا على رأي موسى بن عقبة أو أكثر من ذلك على رأي الواقدي وابن القيم يكون المشركون قد وصلوا إلى المدينة، ولم يتم حفر الخندق بعد، وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين، فيجب حمل الروايات التي ذكرت أن مدة الحفر كانت عشرين أو أربعة وعشرين أو شهرًا على أن الزمن المذكور هو زمن الحصار لا زمن الحفر.

(٢) إن طول الخندق أربعة آلاف ذراع تقريبًا ـ أي ما يساوي كيلوين من الأمتار ـ لأن الرسول ﷺ جعل لكل عشرة من الصحابة أربعين ذراعًا يحفرونها، ولما كان عدد المسلمين الذين حفروا فعلًا تسعمائة رجل على التحقيق كما ذكر ذلك ابن حزم ﷺ كان ذلك هو طول الخندق، ويستحيل أن يكون الحفر قد وزع على كل الذين اشتركوا في الغزوة، لأن المؤرخين وأهل السير والمغازي يذكرون أن عدد المسلمين في هذه الغزوة ثلاثة آلاف رجل.

ولو كان الحفر قد اشترك فيه الجميع بالنسبة التي ذكرتها لبلغ طول الخندق ستة آلاف متر وهذا مستحيل؛ لأن الأرض التي حفر فيها الخندق لا تبلغ هذا القدر؛ ولهذا وجب الأخذ بقول ابن حزم من أن عدد الذين حفروا الخندق كان تسعمائة، ثم علق عليه بقوله: وهذا هو الصحيح بلا شك.

[جوامع السيرة ص ١٨٧].

وأما باقي ثلاثة الآلاف فكانوا يعملون في حمل ما يخرج من الحفر من التراب والحجارة كما جاء ذلك في صحيح البخاري. [البخاري ٧/ ٣٩٢].

ولا يسع الباحث إلا ترجيح هذا الرأي، وعليه لو جعلنا لكل عشرة منهم أربعين ذراعًا لبلغ طول الخندق «٣٦٠٠» ثلاثة آلاف وستمائة ذراع، ولو أضيف إليه الخندقان الفرعيان ـ من راتج إلى أجمة الشيخين ومن خُربى إلى طرف الحرة الغربية ـ لبلغ طوله أربعة آلاف ذراع تقريبًا.

ولو تركنا الخندقين الفرعيين، وفرضنا أن عرض الخندق عشرة أذرع؛ لأنه لو كان دون ذلك لعبرته الخيول بسهولة، وأن عمقه خمسة أذرع؛ لأنه لو كان أقل من ذلك ما تورط فيه نوفل بن المغيرة ولم يستطع الخروج حين سقط فيه.

وحيث إن الذراع يساوي خمسين سنتيمترًا تقريبًا، فيكون كل ذراعين مترًا، ولو ضربنا الطول في العرض في العمق = ١٨٠٠× ٥ × ٥ و٢ = ٠ و٢٢٥٠٠ لكان الناتج اثنين وعشرين ألفًا وخمسمائة متر مكعب، ولو قسمنا هذه الكمية على عدد الذين حفروا لخص كل واحد منهم خمسة وعشرون مترًا مكعبًا يحفرها في خمسة عشر يومًا ـ أي بمعدل كل يوم متر وثلثا متر مكعب، وهذا القدر مع الهمة العالية، وبذل الجهد مقدور للفرد بمعونة الله ﷻ.

ولو لاحظنا ما كان فيه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وهم يحفرون من الجوع الشديد، حتى شدوا الحجارة على بطونهم، وشد رسول الله ﷺ حجرين، ومكثوا ثلاثة أيام لا يذوقون طعامًا، كل ذلك مع شدة البرد والنصب [البخاري ٧/ ٣٩٢]، لو لا لاحظنا ذلك لعلمنا أن هذه الكمية كثيرة جدًّا على رجل في مثل هذه الظروف.

فإذا اعتبرنا مدة الحفر ستة أيام [ابن سعد القسم الأول ص ٢٤٨، السمهودي ٤/ ١٢٠٨]، فإن ذلك يلزم منه أن يحفر كل فرد في اليوم الواحد أربعة أمتار وسدس المتر المكعب، وهو ما لا طاقة لأحد به في مثل هذه الحال.

ولهذا وجب المسير إلى أن مدة الحفر كانت خمسة عشر يومًا؛ لأنها المدة التي يمكن إتمام العمل فيها قبل وصول العدو، كما يمكن لكل فرد أن يحفر حصته مع بذل الجهد والاستعانة بالله تعالى».

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧٦-١٧٨].

ويقول الشيخ عرجون: «وقد اختلفت الروايات في تحديد الزمن الذي استغرقه حفر الخندق، وأصح ذلك وأرجحه ما ذهب إليه محمد بن سعد في الطبقات، وهو أنهم مكثوا في حفر الخندق ستة أيام، قال السمهودي: وهو المعروف.

وذكر موسى بن عقبة في مغازيه إنهم أقاموا في عمل الخندق قريبًا من عشرين ليلة، وذكر الواقدي أنهم أقاموا في حفرة أربعًا وعشرين ليلة، وهذا فرق كبير واختلاف عريض.

والظاهر أنه قد اشتبه على الرواة واختلط على بعضهم أمر حصار الأحزاب للنبي ﷺ وأصحابه بأمر الحفر، فجعلوا مدة الحصار هي مدة الحفر، والصواب ما ذهب إليه ابن سعد من أن مدة الحفر ستة أيام بلياليها كما أيده السمهودي بقوله: وهو المعروف، والخلاف الذي بين رواية ابن عقبة ورواية الواقدي إنما هو في مدة الحصار لا في مدة الحفر؛ لأن النبي ﷺ بدأ العمل في حفر الخندق والأحزاب كانوا قد أتموا أهبتهم وأعدوا للسير عدته، وكان ركب خزاعة قد سبقهم بالخبر إلى النبي ﷺ، وقطع المسافة بين مكة والمدينة في أربعة أيام.

ومن أبعد البعد أن يستغرق سيرهم ما قيل في مدة الحصار بتوهم أنها مدة الحفر، والخندق كان هو الوسيلة العظمى في مواقفة الأحزاب عند هجومهم، فلابد أن يكون قد أُعد وفُرغ منه قبل أن يصلوا إلى مكان المعركة.

ولعل الذين زعموا أن مدة الحفر طالت فنقلوا لها مدة الحصار، أنهم أدخلوا مدة حراسة الخندق وترميم ما عسى أن يكون قد وهي منه في مدة الحفر فقالوا ما قالوا».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥٢-١٥٣].

١٢ ـ حقيقة عدد قوات المسلمين:

يقول الإمام الصالحي: «الصحيح المشهور أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في غزوة الخندق ثلاثة آلاف، ونقل في زاد المعاد عن ابن إسحاق أنهم كانوا سبعمائة.

قلت: ولا دليل في قول جابر رضي الله عنه في قصة الطعام: «وكانوا ألفًا»؛ لأنه أراد الآكلين فقط لا عدة من حضر الخندق، والله تعالى أعلم». [سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٦٥].

ويقول د/ المدخلي: «جيش المسلمين هو ذلك الجيش الذي ضحى بالغالي والنفيس في سبيل الله في سبيل الدفاع عن هذا الدين الحنيف دين الله الذي قال فيه سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران].

هذا الجيش رغم قلة عدده وعدته فقد كان كثيرًا قويًّا بإيمانه وبعقيدته.

وقد حصل في تقدير هذا الجيش خلاف على النحو التالي:

(١) قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى جَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ، فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، فَضَرَبَ هُنَالِكَ عَسْكَرَهُ، وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٠].

وتابعه في ذلك ابن سعد، والطبري، والبيهقي، وابن عبد البر، وابن الأثير، وابن سيد الناس، وابن كثير، وذكره الديار بكري، كما ذكره صاحب المواهب اللدنية.

(٢) قال ابن حزم: «وقد قيل تسعمائة فقط، قال: وهو الصحيح الذي لا شك فيه».

[جوامع السيرة ١٨٧].

(٣) قال الديار بكري: «بعد أن ذكر أن عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف قال وقيل: كان المسلمون ألفًا، هكذا بصيغة التمريض». [تاريخ الخميس ١/ ٤٨٠].

قلت: ولعل القائل بذلك ذهب إلى ما ورد في حديث جابر ﷺ حيث قال في سياق الحديث الذي فيه القصة التي أضاف فيها جابر ﷺ النبي ﷺ على عناق وصاع من شعير:... قَدْ جَاءَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ!... إلى أن قال: وَهُمْ أَلْفٌ».

ولا يجزم بهذا أن عدد المسلمين كانوا ألفًا على ضوء هذا، وإنما هذا العدد هو الذي كان موجودًا مع رسول الله ﷺ في ذلك الوقت في مأدبة جابر ﷺ، ولعل أكثرهم كان قد استأذن منه ﷺ؛ لأنهم كانوا يتناوبون في الحفر كما هو معلوم.

أما ابن القيم فقد قال: «إنهم كانوا ثلاثة آلاف» ثم عقب قائلًا: وقال ابن إسحاق: «خرج في سبعمائة»، قال: «وهذا غلط من خروجه يوم أحد».

[زاد المعاد ٣/ ٢٧١، وبنفس هذا الرد قال المقريزي في الإمتاع ١/ ٢٦٦].

وقال القسطلاني: وكانوا ثلاثة آلاف، ثم قال: «قال الشافعي: ووهم من قال كانوا سبعمائة».

[المواهب اللدنية ١/ ١١١].

أما بالنسبة للرأي الثاني: فلم يشر أحد إليه، وهو الذي ارتضاه ابن حزم ورفض ما عداه، وإذًا فلعل الأولى الرأي القائل بأنهم كانوا ثلاثة آلاف لكثرة القائلين بذلك، والله أعلم.

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٢٢٤-٢٢٦].

ويقول أ/ باشميل: «وذكر ابن حزم في كتابه (جوامع السيرة) ص١٨٧ (وصححه) أن جيش المسلمين لم يزد على تسعمائة في غزوة الأحزاب.

وأقول.. هذا أقرب إلى الصواب، وخاصة بعد انسحاب المنافقين الذين كانوا يشكلون جزءًا كبيرًا من الجيش وتركهم المسلمين وشأنهم عندما اشتد الكرب وتأزمت الحالة، وتصويبنا لرأي الإمام ابن حزم يستند إلى الأمور المنطقية التالية:

(أ) أن الجيش الذي اشترك في معركة أُحُد (وهو كل القوة التي لدى الدولة في المدينة) لا يزيد على سبعمائة مقاتل، حيث لم يتخلف عن معركة أُحُد من يقدر على حمل السلاح.

(ب) من المؤكد أن المدة بين معركة الأحزاب وغزوة أحد لا تزيد على سنة واحدة [سبق بيان أن بينهما سنتين لا سنة واحدة، في المبحث الأول من الفصل الأول من هذا الباب]، ولم تكن هذه السنة إلا فترة صراع مرير بين الإسلام والوثنية في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وخاصة المناطق المحيطة بالمدينة.

(ج) لذلك يكون من المؤكد أن الداخلين في الإسلام (في تلك المدة) هم قليلون جدًّا، وعلى هذا يكون من المستبعد أن يرتفع عدد الجيش الإسلامي (في فترة صراع العصبية تلك) من سبعمائة مقاتل إلى ثلاثة آلاف مقاتل.

(د) مما يعضد الرأي الذي ذهب إليه ابن حزم هو أن المصادر التاريخية (كما في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما في البداية والنهاية) ذكرت أنه في الليالي الأخيرة الحاسمة من ليالي الخندق، لم يبق مع النبي ﷺ في وجه الأحزاب أمام الخندق سوى ثلاثمائة مقاتل أو نحوهم.

[سيأتي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما هذا مفصلًا في الباب التالي من هذا الكتاب إن شاء الله].

(هـ) لو كان جيش المسلمين الذي ظل صامدًا في وجه الأحزاب طيلة ليالي الخندق، هو ثلاثة آلاف مقاتل، لما خاف المسلمون ذلك الخوف الشديد الذي بلغ حد الزلزال وبلوغ القلوب الحناجر، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

ذلك أن نسبة المسلمين تكون (إذا كان جيشه ثلاثة آلاف مقاتل في غزوة الأحزاب) واحدًا لثلاثة تقريبًا، وهذه ليست أول مرة تكون فيها نسبة المحاربين المسلمين واحدًا لثلاثة من المشركين، ففي معركة أُحُد كانت النسبة أقل من ذلك، حيث كانت نسبة المسلمين واحد لأربعة من المشركين (تقريبًا) حيث خرج من المدينة سبعمائة مقاتل اصطدموا في العراء (حيث لا خندق ولا أبنية ولا حرار تحميهم) بثلاثة آلاف مقاتل فأنزلوا بهم في الجولة الأولى هزيمة منكرة كادت تكون ساحقة لولا غلطة الرماة.

فكيف (إذن) يبلغ الخوف والفزع بالمسلمين إلى تلك الدرجة وهم متحصنون داخل المدينة وكأنهم في قلعة منيعة، ونسبة محاربيهم واحد لثلاثة فقط من محاربي الأحزاب، وهي نسبة أكثر من نسبتهم في معركة أحد التي قابلوا فيها جيش العدو، دون أن يشعروا بخوف أو فزع؟

فهل انخفضت نسبة الشجاعة والثبات والإقدام بين المسلمين بعد معركة أحد، حتى يبلغ بهم الخوف والفزع إلى تلك الدرجة في معركة الأحزاب، ونسبة عددهم إزاء عسكر الأحزاب فيها أكثر من نسبته إزاء عسكر مكة في معركة أحد؟.. الجواب الصحيح هو النفي (قطعًا) فالمسلمون بعد معركة أحد لم يزدادوا إلا شجاعة وثباتًا وإقدامًا وتضحية.

(إذن) وقد ثبت أن الخوف والفزع قد بلغ بين المسلمين إلى درجة الزلزال وبلوغ القلوب الحناجر في غزوة الأحزاب لابد من القول (أو الترجيح على الأقل) بأن مصدر ذلك الخوف والفزع الأساسي هو أن المسلمين (على شجاعتهم) كانوا (لكثرة عدوهم وقلتهم) كالجزيرة الصغيرة التي يحيط بها البحر الهائج ويهددها بالابتلاع في كل لحظة، وأن كثرة العدو الغامرة الهائلة التي بلغت فيها النسبة واحدًا من المسلمين لعشرة من المشركين مع تربص اليهود وتوقع المسلمين منهم نقض العهد وضربهم من الخلف، مع إرجاف المنافقين داخل الجيش، هي السبب الأكبر في ذلك الخوف والفزع الذي انتاب المسلمين بصورة لم يسبق لها مثيل.

وعلى هذا لابد من ترجيح القول الذي قال به الإمام ابن حزم، وهو أن جيش المسلمين الذي رابط وراء الخندق وصمد في وجه عشرة آلاف مقاتل من عساكر الأحزاب لم يزد على تسعمائة مقاتل.

ولا يستبعد أن يكون عدد الجيش الإسلامي أول الأمر ـ وعندما كان المنافقون يشكلون جزءًا منه ـ قد بلغ الألفين أو أكثر، وأنه بانخذالهم وتسللهم منه عندما بدأت جيوش الأحزاب تصل إلى المنطقة لم يبق فيه إلا تسعمائة من المؤمنين الصادقين الذين لم يجد الشك سبيلًا إلى نفوسهم، فيكون صحيحًا القول بأن الجيش الإسلامي الذي واجه الأعداء يوم الأحزاب لم يزد على تسعمائة مقاتل كما أكد ذلك الإمام ابن حزم، وبهذا (فقط) نستطيع أن نجد تفسيرًا مقنعًا لذلك الخوف الشديد الذي بلغ بالقلوب الحناجر».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٤٨-١٥٢].

ويقول د/ المجدوب: «وفيما يتعلق بعدد المقاتلين المسلمين الذين واجهوا الأحزاب واليهود، فإن الآراء قد اختلفت بشأنه: فهناك رأي يذهب إلى أنه كان سبعمائة مقاتل، وهناك رأي آخر يذهب إلى أن عددهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فضلًا عن الآراء الأخرى التي تذكر أعدادًا تتراوح بين الرقمين السابقين.

وفي رأينا أن القول بأن عدد المقاتلين المسلمين كان ثلاثة آلاف فيه مبالغة شديدة، ثم إن الفرق بين السبعمائة والثلاثة الآلاف فرق كبير جدًّا، ولا يعقل أن يكون البعض قد لاحظ أن جيش المسلمين كان سبعمائة، في حين يلاحظ البعض الآخر أنه كان ثلاثة آلاف؛ لأن الفرق بين الرقمين من الضخامة بحيث لا تخطئه العين.

وعمومًا فإن ملاحظتنا على العدد الذي ذكره المؤرخون من الفريقين تستند إلى الأسباب الآتية:

أولًا: أن عدد المسلمين الذي اشتركوا في غزوة أُحُد كان سبعمائة، ولما كانت المدة التي انقضت بين هذه الغزوة وبين غزوة الخندق حوالي عام، فإنه من غير المتصور أن يكون عددهم قد زاد بهذا الشكل ليصل إلى ثلاثة آلاف.

ثانيًا: أنه طبقًا لما قيل من أن توزيع العمل في حفر الخندق قد جرى على أساس أن لكل عشرة رجال من المسلمين أربعين ذراعًا، مما يعني أن طول الخندق كان اثني عشر ألف ذراع وهو ما يساوي تسعمائة ألف سم (الذراع = ٧٥سم) أو ٩٠٠٠ متر، أي ٩كم ونرجح أن هذا كان طول الجهة من المدينة الخالية من العوائق الطبيعية والحصون؛ لأنه لا يعقل أن يكون قطرها، المدينة تسعة كيلو مترات فقط، خاصة إذا لاحظنا أنها كانت مكونة من أحياء تفصل بينها في بعض الأحوال أميال.

والذي نرجحه أن الذين اشتركوا في حفر الخندق لم يكونوا كلهم من المقاتلين، وإنما اشترك معهم آخرون، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار اتساع الخندق وعمقه وطبيعة الأرض وغير ذلك، وأيضًا المدة التي استغرقها الحفر، وكذلك عدد ساعات العمل.

ثالثًا: أن غزوة خيبر، التي سيأتي ذكرها فيما بعد، على خطورتها ـ لبعدها من ناحية، ولكونها مستعمرة يهودية حصينة كل سكانها من اليهود ـ لم يزد عدد المقاتلين المسلمين الذين اشتركوا في غزوها على ١٤٠٠ راجل و ٢٠٠ فارس، وكان بينها وبين الأحزاب أكثر من عام، وبينها وبين أُحُد أكثر من عامين، أي أنها مدة كافية لأن يتضاعف المسلمون، خاصة بعد الانتصار الكبير في غزوة الأحزاب ثم في بني قريظة وفي غيرها، فضلًا عن صلح الحديبية.

ومع ذلك، وحتى لو أننا افترضنا أن عدد المسلمين الذين تصدوا للأحزاب كان قد بلغ في أول الأمر ثلاثة آلاف مقاتل، وهو ما ذكره البعض ـ فإن هذا الرقم ما لبث أن انخفض إلى الرقم الآخر، وهو السبعمائة، نتيجة لفرار المنافقين والخائفين الذين تأثروا بدعايات أتباع عبد الله بن أُبي بن سلول.

وهذا ما أردنا أن نبينه بالنسبة لما لاحظناه ويلاحظه من يقرأ التاريخ الإسلامي من تفاوت كبير بين البيانات، وبخاصة ما كان منها له علاقة بالغزوات والمعارك». [المستوطنات اليهودية للمجدوب ٩٧-٩٩].

١٣ ـ استخدام السواتر والمتاريس:

يقول د/ الفنيسان: «لما حفر المسلمون الخندق أمرهم الرسول ﷺ بأن يجعلوا التراب مما يليهم جهة جبل سلع حتى لا يتمكن العدو من دفنه والعبور عليه، وحتى يستعمله المسلمون ساترًا لهم من قبل العدو، كما أمرهم بنقل الحجارة من جبل سلع ووضعها على حافة الخندق على امتداده وذلك ليستخدمها المسلمون فيما إذا تسلل من الأعداء متسلل، وفعلًا وقع هذا». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٨].

ويقول د/ الوكيل: «وأمرهم الرسول ﷺ بأن يجعلوا التراب الخارج من الحفر في جهة المسلمين، كذلك أمرهم بأن يجلبوا الحجارة من جبل سلع، ويضعوها إلى جوار الخندق، وكان لهذا العمل فائدتان هامتان تدلان على عبقرية عسكرية نادرة:

أما إحداهما: فإن هذا التراب الموجود على حافة الخندق من جهة المسلمين يعتبر ساترًا جيدًا، للرماة المسلمين، حيث يتمكنون من إيقاع خسائر بالعدو دون أن ينال منهم شيئًا، وكذلك فإن التراب والحجارة يكونان خط دفاع قوي بحيث لا يستطيع أحد عبور الخندق والوصول إلى جهة المسلمين، وقد حدث ذلك فعلًا لما حاول نوفل بن المغيرة عبور الخندق بفرسه فلم يستطع وسقط في الخندق.

وأما الثانية: فإن الحجارة المنقولة من جبل سلع إلى جوار الخندق تعتبر سلاحًا فعالًا يستعمله المسلمون وقت الحاجة ليردوا به المهاجمين، والذين يحاولون عبور الخندق.

وقد استفاد المسلمون من تلك الحجارة، فإنه لما سقط نوفل بن المغيرة في الخندق أخذ المسلمون يرمونه بتلك الحجارة، وهو يصيح ويقول: يا معشر العرب، موتة غير هذه، حينئذ نزل إليه الزبير بن العوام ﷺ وضربه بالسيف فشقه، وأثَّر السيف في كاهل فرسه.

قال المسلمون للزبير ﷺ: ما أمضى هذا السيف يا أبا عبد الله!

فقال ﷺ: إنه ليس السيف، ولكنه الساعد الذي يحمل السيف.

وهكذا كان هذا التخطيط وقاية للمسلمين، وسلاحًا يستعملونه وقت الحاجة، وردعًا للعدو فلا يدخل الخندق». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧٩-١٨٠].

١٤ ـ هل كان للخندق أبواب؟:

يقول د/ الوكيل: «ويقول اليعقوبي: إنهم جعلوا للخندق أبوابًا، وجعل الرسول ﷺ عليها حُرَّاسًا كل قبيلة رجل، وجعل الزبير بن العوام ﷺ قائد الحرس. [اليعقوبي ٢/ ٥٠].

ويبدو أن بعض المؤرخين قد ذكر الأبواب، مما جعل الواقدي يقول: إنه لا يعرف له أبوابًا، والظاهر أن الأمر قد التبس على من قال بأن للخندق أبوابًا؛ لأن فتح باب الخندق لم يكن في عهد الرسول ﷺ، ولكنه كان في عهد يزيد بن معاوية عندما أرسل جيشًا إلى المدينة ليؤدب المتمردين من أهلها، وفكر أهل المدينة في الخندق.

يقول الواقدي: إنه لما دنا عسكر يزيد تشاور أهل المدينة في الخندق، واختلفوا أيامًا، ثم عزموا على الخندق ـ خندق رسول الله ﷺ ـ وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، وقال حنظلة بن قيس الزرقي بعدما تكلم عن الخندق يوم الحرة: وفتح بعض بني حارثة طريقًا إلى الخندق من قبلهم لأهل الشام.

[السمهودي ٤/ ١٢٠٦].

ولعل هذا هو السبب في التباس الأمر على من ذكر أن للخندق أبوابًا، ولكن يعكر على ذلك ذكر الحُرَّاس وجعل الزبير ﷺ قائدًا عليهم؛ لأن الزبير ﷺ لم يشهد يوم الحرة حيث استشهد في خلافة علي رضي الله عنه». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٨٠].

١٥ ـ تأمين الذراري والنساء والصبيان من خطر الأعداء:

يقول د/ الرشيد: «لما علم النبي ﷺ بقُدُومِ جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق، أمر بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم من حصن بني حارثة، حتى يكونوا في مَأْمَنٍ من خطر الأعداء.

إن اتخاذ التدابير الأمنية لحماية المدنيين من أطفال ونساء في غاية الأهمية؛ لأن حماية الذراري والنساء والصبيان لها أثر على فعَّال على معنويات الجنود المقاتلين؛ لأن الجندي إذا اطمأن على سلامة زوجه وأبنائه، يكون مرتاح الضمير، هادئ الأعصاب، فلا يفكر فيهم فإنهم في مأمن، بل يسخر كل الطاقات الجسمية والعقلية للإبداع في فن القتال، والإقدام عليه.

أما إذا لم يطمئن على زوجه وأبنائه وعرضه وشعر بأن الخطر يهددهم، فإن أمره يضطرب، ومعنوياته تضعف، ويأخذ عليه القلق والفزع كل مأخذ، ويؤدي كل هذا إلى التراجع، وربما الانهيار، وبذلك تنزل الكارثة بالجميع. [غزوة الأحزاب ـ د/ أبو فارس ص ٩٨].

وفي فعل النبي ﷺ في هذا الشأن تعليمٌ للقادة العسكريين من بعده حتى يقتدوا به في هذا الأمر؛ لأن الجندَ حين يَأْمَنُونَ على عَوَائِلِهم، ترتفع معنوياتُهم لقتال أعدائهم، فيتحقق من وراء ذلك النصر للأمة وتندفع عنها شُرُورُ أعدائها». [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٨٥].

١٦ ـ يقظة القيادة الدائمة:

يقول د/ أبو فارس: «اليقظة الدائمة التي كان رسول الله ﷺ يعيشها في غزواته ويربي أصحابه عليها، فهو يرسل دوريات الحراسة التي تجوب أطراف المدينة، فترهب الأعداء في الداخل كالمنافقين واليهود، وكذلك في الخارج حين يرون المسلمين في سهر دائم ويقظة تامة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٨].

١٧ ـ القائد لا يميز نفسه عن أتباعه:

يقول د/ أبو فارس: «إن رسول الله ﷺ لم يرغب في خصِّ نفسه بطعام جابر ﷺ دون غيره، بل دعا أهل الخندق كلهم، وهكذا يكون القائد لا يميز نفسه عن أتباعه، كما يفعل بعض القادة اليوم، يملؤون معداتهم بأشهى الأطعمة وألذها، وجنودهم يتضورون جوعًا، أو قد يمتازون عنهم بنوع الطعام وكميته، فالقادة في كثير من الجيوش الجاهلية يأكلون طعامًا خاصًّا لا يُصرف لجنودهم، وملابسهم تختلف جودة عن ملابس جنودهم». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٩-١٢٠].

١٨ ـ رفع معنويات المقاتلين:

يقول عميد/ كاخيا: «ويتجلى ذلك في معاونته لهم ﷺ في حفر الخندق وفي الحراسة الليلية وفي التصدي للخطر خلال الأوقات الصعبة، وفي تطمينه بأنهم بعد هذه الغزوة سوف يغزون قريشًا، وفي

حسن معاملته لجنوده وأصحابه والرفق بهم، ودعائه إلى الله العلي القدير أن ينصر المسلمين، وبعد أن هيأ رسول الله ﷺ كل الأسباب المؤدية إلى النصر المبين قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الأحزاب]». [الغزوات النبوية المطهرة لكاخيا ٧٤-٧٥].

١٩ ـ مشاركة القائد لجنده في الميدان من عوامل النصر في المعركة:

يقول د/ الفنيسان: «لما قرر الرسول ﷺ حفر الخندق، شارك أصحابه بنفسه في الحفر، وكان ينقل التراب معهم كما ينقلون، فلم يبق في خيمته «غرفة القيادة» يُصدر عليهم الأوامر العنترية، ويطالبهم بالطاعة العمياء، وكانت مشاركته لهم في السراء وفي الضراء لها أثر كبير بإنجاز حفر الخندق في مدة قليلة». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٧].

ويقول د/ الرشيد: «اجتمع على الصحابة ﷺ وهم يقومون بحفر الخندق ظروف صعبة، كان من أهمها الخوف من مداهمة الأحزاب لهم، فكان لابد من إنجاز هذا المشروع الكبير في أسرع وقت.

وقد شارك الرسول ﷺ الصحابةَ في هذا العمل المضني، فأخذ يعمل بيده الشريفة في حفر الخندق، كما مر تفصيله.

فعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكَلَل، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما في وِسْعِهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن مشاركة النبي ﷺ لأصحابه في هذا العمل كانت مشاركة حقيقية، في تلك الظروف الصعبة، وليس المراد بها البدء بأول ضربة ثم بعد ذلك يدير ظهره لأصحابه فلا يرونه، أو أنه كان يقف موقف المشجع على الحفر بكلام معسول، أو أنه كان يكتفي بإصدار الأوامر الصارمة، كما يفعل معظم القواد في عصرنا الحديث.

إن شيئًا من ذلك لم يحدث، بل انطلق يشارك جنده التعب والمشقة، حتى غطى التراب بطنه الشريف.

[ينظر: غزو الأحزاب لأبي فارس ص ١٠٢-١٠٣].

ومن هذا الموقف يُسْتَفَادُ درسٌ عملي مهم: وهو أن مشاركة القائد جنده في عملهم، وتفانيه في ذلك سببٌ في رفع معنوياتهم، وبذل أقصى ما يستطيعون في إنجاز العمل الذي كُلِّفوا به.

أما إذا حدث العكس فإن الجند لا يبذلون من الجهد إلا بالقدر الذي يجنِّبهم محاسبة قائدهم لهم».

[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٧٩-٤٨٠].

ويقول أ/ فرج: «كان الرسول القائد ﷺ يشاور رجاله في كل أمر، ويأخذ بالرأي الذي تبديه أو توافق عليه الأغلبية، كما كان الرسول القائد ﷺ أسوة طيبة ومثلًا أعلى لرجاله، كان بينهم كأحدهم وقد عمل في حفر الخندق بيديه فكان يرفع التراب ويدعو إلى مضاعفة الجهد.

إن الجنود يتأثرون بالقائد ويحذون حذوه، وكيفما يكون القائد تكون الجنود؛ ولهذا فإن التوجيهات الحديثة للقادة هي أن القيادة تحتم تقديم المثل الطيب قبل أية فضيلة أخرى، وأن يشارك القائد جنوده كل ظروف المعركة.

في هذا يقول فيلد مارشال سليم: «الضباط وجدوا ليقودوا الجنود»، وإني أناشدكم بصفتكم ضباط أن لا تأكلوا ولا تشربوا أو تدخنوا أو تجلسوا أو حتى تستندوا إلى شجرة، قبل أن تتأكدوا أن ذلك متاح لجنودكم». [انتصارات عربية خالدة لفرج ٥١-٥٢].

٢٠ ـ مشاركة القائد جنده في آلامهم وآمالهم:

يقول د/ الرشيد: «كان الرسول ﷺ يشارك الصحابة ﷺ في آلامهم وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجَمَّة دونهم.

ففي غزوة الأحزاب: نجد أنه ﷺ كان يعاني من آلام الجوع كغيره، بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن ربط حجرًا على بطنه الشريف من شدة الجوع.

ثم إنه ﷺ كذلك شاركهم في آمالهم فحين وجد ما يَسُدُّ رمقه بعد هذا الجوع الذي استمرَّ ثلاثًا، لم يستأثر بذلك دونهم، بل أبت عليه نفسه الكريمة وقلبه الذي امتلأ عطفًا وحنانًا إلا أن يشاركه أصحابه في هذا الطعام، الذي صنعه جابر ﷺ مع أنه كان قليلًا يكفي لرجلين أو ثلاثة لا غير.

وقد كان جابر ﷺ مضطرًا إلى ما فعل، إذ إنه كأي مفكر عادي من الناس لم يكن يملك إلا أن يتصرف حسب ما يملك من الأسباب المادية.

ولما كان الطعام الذي لديه قليلًا لا يكفي إلا لهذا العدد اليسير، خَصَّ به رسول الله ﷺ ومن يشاء من بعض الصحابة في حدود ضيِّقة، ولكنه ﷺ لم يكن من عادته أن يتأثر بنظرة جابر ﷺ تلك، فهو أولًا: لا يمكن أن يتميز عن أصحابه بشيءٍ من النعمة أو الراحة، وهو ثانيًا: لا يمكن أن يجعل نفسه أسيرًا للأسباب المادية التي أَلِفَها البشر، فالله ﷻ هو مسبِّبُ الأسباب وخالقها، وهو القادر على أن يجعل من الطعام القليل كثيرًا، وأن يبارك في القليل منه حتى يكفي القوم الكثير.

فقد أكل أهل الخندق وكانوا ألفًا من طعام جابر ﷺ القليل حتى شبعوا وبقي فيه بقية.

وبهذا يتبين أن الرسول ﷺ كان هو وأصحابه شركاء متضامنين، يتقاسمون النعمة بينهم مهما قَلَّتْ، كما أنهم كانوا يتقاسمون بينهم المحنة مهما عَظُمَتْ.

ولو أن هذا الطُّعَيمَ القليل الذي دعا إليه جابر ﷺ الرسولَ القائد ﷺ، دُعِيَ إليه قائدٌ من قيادات الجيوش في عصرنا الحاضر، لما علم بذلك جنوده، فضلًا على أن يروه أو يَطْعَمُوه ـ إلا من رحم الله ـ بسبب الأنانية وحب الذات التي أصبحت من سمات هذا العصر.

وفيما فعله ﷺ عندما صبر على الجوع كغيره، وفي دعوته الصحابة إلى طعام جابر ﷺ، قدوةٌ لمن يأتي بعده من القادة.

إذ إن مشاركة القادة جنودهم في آلامهم وآمالهم: دليلٌ على المحبة القوية التي تجمع بينهم، وهذا له آثاره الطيبة في انقياد الجند لقادتهم، وبذل أقصى ما يستطيعون من جهد في الذود عن حياض الإسلام ومقدسات المسلمين». [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٨١-٤٨٢].

٢١ ـ تخفيف القائد عن جنوده بما يُدخل عليهم السرور ويبعث فيهم النشاط:

يقول د/ الرشيد: «اقترن حفر الخندق بصعوبات جَمَّة، فقد كان الجو باردًا والريح شديدة، والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة.

ويضاف إلى ذلك كلِّه: العمل المُضْني حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولا شك في أن هذا الظرف ـ بطبيعة الحال ـ يحتاج إلى قدرٍ كبير من الحزم والجد.

ولكن النبي ﷺ لم يَنْسَ في هذا الظرف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوسٌ بحاجةٍ إلى الراحة من عناء العمل، كما أنها بحاجة إلى من يُدْخِلُ عليها السرور، حتى تنسى تلك الآلام التي تعانيها فوق معاناة العمل الرئيس.

ولهذا نجد أن النبي ﷺ عَطَّرَ هذا الجو الذي يملأه الرعب ومشقة العمل بنوع من المرح البريء، بما كان يرتجز بكلمات ابن رواحة وغيرها كما مر بنا.

وإذا كانت الجمال تطرب للحداء وتواصل السير ولا تشعر بطول الطريق ومشقة السفر وهي تحمل الأثقال، فليس غريبًا أن يميل الإنسان إلى هذا النوع من الغناء ـ إن صحت تسميته بذلك ـ الذي يروِّح عن النفس همومها، ويبعث فيها النشاط، ويخفف عنها مما تعانيه من التعب.

ولعله من أجل هذا ـ والله أعلم ـ أقر النبي ﷺ الصحابة على هذه الأراجيز.

[ينظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس ص ١٠٤-١٠٥].

ولنا أن نتصور هذا الجو الذي يعمل فيه المسلمون والرسول ﷺ بينهم، يضرب بالفأس، ويجرف بالمِسْحَاة ويحمل في المِكْتَل، ويُرَجِّعُ معهم هذا الغناء ـ إن صَحَّتْ هذه التسمية ـ ولنا أن نتصور أَيَّةَ طاقةٍ يُطلقها هذا الجو في أرواحهم، وأي ينبوع يتفجر في كيانهم بالرضا والحماسة والثقة والاعتزاز.

[في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٤٢].

كما أن هذا الجو لم يَخْلُ من روح الدعابة والمزاح، فقد كان زيد بن ثابت ﷺ غلامًا صغيرًا، ينقل التراب أثناء حفر الخندق، وعندما نزل في الخندق أَحَسَّ بالدفء فغلبته عيناه حتى نام، فأخذ عمار بن حزم ﷺ سلاحه، فقام زيد فزعًا، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا رُقَادٍ، نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلاحُكَ!**».

وتتجلى روح الدعابة التي مازح بها النبي ﷺ هذا الغلام في قوله: «يَا أَبَا رُقَادٍ!».

ولقد كان لهذا التَّبَسُّط والمرح في ذلك الوقت، أثره في التخفيف عن الصحابة مما يعانونه نتيجة للظروف الصعبة التي يعيشونها، كما كان له أثره في بعث الهمة والنشاط، بإنجاز العمل الذي كُلِّفوا بإتمامه، قبل وصول عدوهم». [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٨٢-٤٨٥].

ويقول أ/ الشامي: «تقرر حفر الخندق، وخطه رسول الله ﷺ، وعيَّن لكل جماعة ما يخصها، وبدأ المهاجرون والأنصار العمل في غداة باردة، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بهم من النصب والجوع والبرد، قال:

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالـمُهَاجِرَهْ

وما إن سمع الصحابة رضي الله عنهم ذلك حتى أجابوه ﷺ بقولهم:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

كانت لفتة كريمة من رسول كريم، أراد ألا يكون صوت المعاول هو الذي يُسمع وحده، فهو يذكِّر بالتعب والجوع؛ ولذا رفع صوته مذكِّرًا بأن الغاية هي الدار الآخرة، ومن عرف ما قصد، هان عليه ما بذل، وأن ما يصيب المرء في الدنيا إلى زوال، وأجابه القوم بما استقر في نفوسهم، إنها البيعة على الجهاد الدائب المستمر.

إنها كلمة الحق، فالعيش عيش الآخرة؛ ولذا فها هو ﷺ في الخندق، يشارك القوم في الحفر، ويشاركهم بنقل التراب، قَالَ البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ الله ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الخَنْدَقِ، حَتَّى وَارَى عَنِّي الغُبَارُ جِلدَةَ بَطْنِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ.

وأي جهد أكبر من هذا؟

كما شاركهم الجوع، بل ربما كان أكثرهم جوعًا كما مر في حديث جابر رضي الله عنه.

ويصل المشركون إلى المدينة فيكون نصيب الرسول ﷺ من العمل كنصيب أي فرد، إضافة إلى أعباء القيادة، حتى الحراسة ليلًا، قالت أم سلمة: وكان يحرس بنفسه في الخندق، وكنا في قر (برد) شديد.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٤].

إنها القيادة في وسط الناس ومعهم في كل شيء، معهم في الحفر، معهم في نقل التراب، معهم في الجوع، معهم حتى في الرجز والإنشاد.

ويُدعى ﷺ إلى طعام جابر رضي الله عنه فيأبى أن تكون الدعوة خاصة به ـ وطعام جابر رضي الله عنه لا يكفي إلا الأفراد ـ ويدعو أهل الخندق، وتكون معجزة من معجزاته ﷺ.

وكل فرد من الأفراد في الجيش الكريم له مكانته في نفس القائد، فكان ﷺ يتفقدهم فردًا فردًا يطمئن عليهم بنفسه في الوقت الذي أقعد فيه الخوف والجوع والبرد الكثير منهم.

قال حذيفة: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلًا رجلًا حتى أتى عليَّ... [البداية والنهاية ٤/ ١١٤].

إن قيادة هذا وضعها لن يخذلها الله أبدًا، وإن جندًا هذه قيادتهم سيتفانون في سبيلها، وقد فعلوا.

إنه منهج الإسلام في القيادة ...». [من معين السيرة للشامي ٣١٠-٣١١].

٢٢ ـ تقدير حاجات الجند والإذن لهم في قضائها:

يقول د/ الرشيد: «مرَّت فترة حفر الخندق بظروف حاسمة تتطلب إنجاز العمل في أسرع وقت؛ لذا كانت مصلحة العمل تقتضي أن يستأذن الرجل عندما تَعْرِضُ له حاجةٌ، وقد كان الصحابة ﷺ على قدرٍ كبيرٍ من الأدب مع النبي ﷺ، فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عَرَضَتْ لهم ضرورة.

روى ابن إسحاق وابن المنذر والبيهقي: أن النبي ﷺ لما سمع بقدوم الأحزاب ضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه، وأبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق لحاجته، فيأذن له، وإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور]. [الباب النقول للسيوطي ص ٦٢].

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم التي تَعْرِضُ لهم، فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ منهم في الانصراف عنك لقضائها واستغفر لهم.

[صفوة التفاسير للشيخ الصابوني ١٠/ ٣٢].

فكان النبي ﷺ بالخيار، إن شاء أذن له إذا رأى ذلك ضرورةً للمستأذِن، ولم يرَ فيه مَضَرَّةً على الجماعة، فكان يأذن أو يمنع، حَسْبَ ما تدعو إليه المصلحة ويقتضيه مقام الحال. [أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٠].

وتشير الآية الكريمة إلى أن مغالبةَ الضرورة، وعدم الانصراف هو الأَوْلَى، وأن الاستئذان والذِّهابَ فيهما قصور يقتضي استغفار النبي ﷺ أو أمير الجماعة بعده للمُسْتَأْذِنِ. [في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٣٥].

وذلك أن الاستئذان ـ وإن كان لعذر قوي ـ لا يخلو من شائبة تقديم أمر الدنيا على الدين.

[ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ٤/ ١٥١].

وفي الآية ـ أيضًا ـ التنبيه على أن الاستئذان إذا كان فيه أدنى دخل للاحتيال، أو يريد المستأذن أن يُؤْثِرَ مصلحتَه الفردية على المصلحة الجماعية، فإنه آثِمٌ، وهذا يقتضي الاستغفارَ له.

[تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي ص ٢٣٠].

وينبغي أن يستفيد قادة الجيوش الإسلامية في عصرنا الحاضر من هذا الدرس، وعليهم أن يُقَدِّروا المصلحة العامة للجيش، فيأذنوا لمن كانت له ضرورةٌ لابد من قضائها، بقدر ما تنقضي ضرورته، وإذا كانت المصلحة في منع جندي بعينه من الذهاب ـ ولو كان قد استأذن ـ فإن لهم الحق في منعه.

وعلى القادة أن يراعوا في كلتا الحالتين المصلحة العامة وملابسات الظروف التي تعيشها تلك الجماعة». [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٨٥-٤٨٧].

٢٣ ـ إخلاص الجندي لقائده وحبه له:

«لقد رأى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما حجرًا مربوطًا على بطن رسول الله ﷺ، وهذا يعني أن الرسول ﷺ قد بلغ منه الجوع مبلغًا شديدًا، والجندي المحب لقائده لا يطيق أن يرى قائده يكابد آلام الجوع ويقدر أن يقدم له شيئًا من الطعام ويتأخر». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٨].

المبحث السادس

الدروس الدعوية

١ ـ الأخذ بالأسلوب النافع وإن كان الكفار يستعملونه:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا أن النبي ﷺ استشار أصحابه عما ينبغي فعله لمواجهة زحف المشركين على المدينة، وكان رأي سلمان الفارسي ﷺ أن يحفروا حول المدينة خندقًا؛ معللًا ذلك بقوله: «إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا»، فاستحسن النبي ﷺ رأيه وأخذ به، وأمر بحفر الخندق، وإن كان هذا الأسلوب من الحرب ومدافعة العدو كان من أساليب فارس.

ومعنى ذلك أن النافع من الأمور الدنيوية قد يعرفه الكفار عن طريق التجربة وأن لا مانع من فعله من قِبَل المسلمين.

فعلى الدعاة وجماعتهم أن يستفيدوا من وسائل وأساليب الكفرة فيما يتعلق بنشر الدعوة، أو في خططهم في مواجهة أعدائهم ونحو ذلك.

وهكذا فعل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ عندما وضع الدواوين وهو ما كان يفعله الفرس في بلادهم». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٥٨].

٢ ـ على قادة جماعة الدعاة مشاركة أفرادها في أعمال الدعوة:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا أن النبي ﷺ شارك أصحابه في حفر الخندق وحمل التراب بنفسه الشريفة، وكان يشجعهم على عملهم ويذكِّرهم بالأجر والثواب الحسن من الله، وأن العيش الطيب الرغيد هو عيش الآخرة، فعلى قاعدة الجماعة المسلمة، قادة جماعة الدعوة، أن يشاركوا أعضاءها من الدعاة والأنصار فيما يقومون به من أعمال الدعوة مثل بناء دار لاجتماعاتهم، أو بناء مسجد خاص بهم أو عام لجميع المسلمين ونحو ذلك، وكذلك يشاركونهم وسائر أعضاء الجماعة في أعمال البر العامة كبناء مدرسة ونحو ذلك؛ لأن هذه المشاركة من أساليب الدعوة». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٥٨].

ويقول أ/ ياقوت: «وفي ذلك، الدرس الأوفى؛ لأصحاب المسؤوليات في العمل الجماعي الدعوي، أن يتقوا الله في أنفسهم وإخوانهم والدعوة، فتجد أحدهم يلقي على إخوانه التكاليف الثقال، وليس له من الأمر إلا القعود وقيل وقال، أو تراه يتكلف ويتعمَّل، ويتصنع المشاركة ثم ينسل من بينهم، تاركًا الجَمل بما حمل، ولا حياء ولا خفر، وبعد العمل تراه قد خرج من جحره؛ ليلقي نظرياته في العمل وينظِّر تنظير العلماء، ويعَّقب تعقيب الحكماء، عما كان وعما ينبغي، وهو الخطيب المصقع والمتحدث المِفْلق، لكن... دون مشاركة جادة ومعاونة فاعلة». [السيرة النبوية لياقوت ٤١٨].

٣ ـ التطبيق العملي للدعوة:

يقول د/ الزيد: «مشاركة الرسول ﷺ بنفسه مع أصحابه ﷺ في حفر الخندق، فقد كان ينقل التراب معهم ﷺ، وبهذا فعلى الداعية إلى الله إذا أمر بخير أن يكون أول المبادرين إليه وأول المساهمين فيه، فلا يكفي بل ولا يصح أن يكون الداعية إلى الله آمرًا بالمعروف دون أن يكون هو أول العاملين به، والله ﷻ يقول: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة].

ولا شك أن التطبيق على النفس والبداءة بها أمر شاق ولكنه أقوى الأساليب للتأثير وإيجاد القدوة الحسنة لمن حوله». [فقه السيرة للزيد ٤٩٩].

ويقول أ/ ياقوت: « وهذا درس لقادة الدعوات الذين أفلحوا في التنظير، ولم يفلحوا في كسب احترام جماهير المدعوين، ونجحوا كواجهة دعائية ولم ينجحوا كقدوة تربوية، وأجادوا وأبانوا العلم والفكر والدعوة، وفشلوا فشلًا ذريعًا في نصب راية الدعوة في ميدان الحياة، فضلًا عن مجتمع الدعاة الأقران.

وخليق بجميع الدعاة كبارًا وصغارًا أن ينزلوا إلى ساحة المدعوين وإلى ميدان العمل ومشاركة الناس همومهم وتحطيم صخور أحزانهم بمعاول الإيمان والقرآن، وليُقُلْ ذلك الداعي الساكن في البرج العاجي: (أنا نازل)، أي إلى الشارع والحي والمجتمع، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

إن الفطنة والألمعية والجهبذة لن تفلح ما دامت نائمة في رؤوس العلماء والدعاة ولم تخرج إلى واقع الحياة! كزير الماء الذي أُحكم غلقة ولم يشرب منه أحد». [السيرة النبوية لياقوت ٤٢٥-٤٢٦].

٤ ـ أمير الجماعة يعفي من العمل مَنْ لا يستطيعه وإن رغب فيه:

يقول د/ زيدان: «فقد ذكرنا أن النبي ﷺ رد ابن عمر ﷺ ولم يقبله في معركة أُحُد، ولكنه قَبِلَه في معركة الخندق لبلوغه سن الخامسة عشر من عمره، وهكذا ينبغي للجماعة المسلمة أن تعفي من العمل من لا يطيقه، وتعهد إليه بما يقدر عليه؛ لأن أعمال الدعوة كثيرة جدًّا، وقد يستطيع من لم يبلغ الحلم بعدُ القيام ببعض الأفعال». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٥٩].

٥ ـ على جماعة الدعاة أن تبشر أنصارها بالنصر:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا أن النبي ﷺ بشر أصحابه بالنصر وبفتح بلاد الشام وفارس وهم يحفرون الخندق استعدادًا للدفاع عن المدينة أمام زحف المشركين إليها، ولا شك أن من المندوب إليه أن يفعل قادة الجماعة المسلمة ذلك بأن تذكِّر أعضاءها من الدعاة والأنصار بوعد الله بنصر المؤمنين، وبأن العاقبة لهم وإن كانوا الآن في ضيق وحرج وعسرة؛ لأن المصاعب والشدائد قد تُنسي المسلم ما وعد الله به المؤمنين من نصر وعون ويسر بعد عسر فيحتاج المسلم إلى تذكره أو تذكيرٍ بذلك». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٥٩].

ويقول أ/ ياقوت: « إن من أخلاقيات القيادة الإسلامية في ميادين القتال، التبشير بالنصر والتفاؤل بالظفر، والعمل الإعلامي الجاد المتواصل في بث روح الثقة في نصر الله ومدده..

أرأيتَ هذا النبي العظيم ﷺ وهو في كُربة الحرب، وقد تكالب القاصي والداني عليه، وأوشكت المدينة أن تكون كَلأً مباحًا للأعراب واليهود، تراه كالطود الشامخ والعَلَم الراسخ يثبِّت الأرض من حوله، ويرسِّخ الإيمان في جنده، وينشر أحاديث البشائر، وأخبار الفتوحات، وأناجيل النصر، وفتح أوربا وأسيا وأفريقيا... فيثبِّتَ الجند، ويخفف عنهم.. وهو بهذه الأحاديث التي تُحيي النفوس يسلِّيهم، ويُخَفِّض عنهم، ويخفض جناحه لهم، ويَرأفُ بهم، ويرحمهم.

فما أحوجنا إلى الداعية المُبشر لا المنفر، المُيسِّر لا المُعسِّر، المعتدل لا المتنطع، المتوسط لا المتكلف.

الداعية الذي يغرس في نفوس الناس والنشء بذار الإيمان والثقة بنصر الله، والذي يؤكد للناس مرارًا أن الدائرة للإسلام وأن الله متم نوره وأن الغلبة لدينه والعاقبة لأوليائه والتمكين لجنوده والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون». [السيرة النبوية لياقوت ٤٢٦، ٤٢٧].

٦ ـ المعجزات حق:

يقول د/ زيدان: «ومعجزات رسولنا ﷺ المادية حق نؤمن بها سواء ما أشار إليه القرآن كحادثة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج إلى السموات العلى، أو ما ورد في السنة النبوية، ومن هذه المعجزات المادية مثل تكثير الطعام وكفاية القليل منه مئات الجياع كما في دعوة جابر ﷺ للنبي ﷺ مع رجل أو رجلين معه، فدعا النبي ﷺ المهاجرين والأنصار، وكانوا يعدون بالمئات، فكفاهم ما كان جابر ﷺ قد هيأه من لحم عَنَاق وصاع من شعير كما ذكرنا، فعلى الدعاة إذا جاء ذِكْر المعجزات المادية في القرآن أو في السنة أن يبينوا للناس ضرورة الإيمان بها وعدم تأويلها بما يجعلها حدثًا عاديًا مع أنها خارق ومن أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ، وإن كان أعظم معجزاته على الإطلاق القران الكريم، ولكن معجزة القران لا تنفي معجزاته الأخرى صلوات الله وسلامه عليه». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٥٩].

٧ ـ توزيع الأعمال على الدعاة:

يقول د/ زيدان: «ويستحسن للجماعة المسلمة أن توزع أعمال الدعوة على الدعاة، وتجعل لكل واحد منهم أو جماعة منهم عملًا معينًا يقوم به سواء كان تعيين العمل من حيث نوعيته أو مكانه أو زمانه، فقد قسَّم رسول الله ﷺ حفر الخندق بين أصحابه فأعطى حفر كل أربعين ذراعًا لعشرة من أصحابه، وكان من فرغ من المسلمين من حصته في الحفر عاون غيره في الحفر، فحَفْرُ الخندق كان مقسومًا على المسلمين

فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ منه، فعلى قادة الجماعة المسلمة ـ جماعة الدعاة ـ أن يوزعوا أعمال الدعوة على الدعاة بحيث يكون كل واحد مسؤولًا عما يُناط به من عمل، وأن يُعان عليه إذا قصَّر فيه.

وتوزيع الأعمال أسلوب جيد للوفاء بمتطلبات النجاح في هذه الأعمال وإيقاعها على الوجه المطلوب، ومعرفة المقصِّر فيها ووجه هذا التقصير، كما يُعين على سير الجماعة بصورة منتظمة بعيدًا عن الفوضى وانعدام المسؤولية أو ضياعها». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٠-٢٦١].

٨ ـ الأخذ بالأسباب ولكن مع التوكل على الله:

يقول د/ زيدان: «وفي حفر الخندق دليل واضح على الأخذ بالأسباب الدافعة للشر والعدوان، ولكن الثقة تكون بالله والاعتماد يكون على الله لا على الأسباب التي يباشرها أهل الإيمان، فعلى الجماعة المسلمة أن تأخذ بكل وسيلة مشروعة من شأنها أو يظن أنها يمكن أن تكون سببًا في دفع الأذى عنها، وإفشال خطط أعدائها في سعيهم الخبيث لإيذاء الجماعة، ولكن اعتمادها على الله لا على ما تباشره من أسباب.

والأسباب كما تكون مادية يمكن أن تكون غير مادية، ونستدل على هذا بما فعله نعيم بن مسعود ﷺ في تخذيله للمشركين وما فعله للوقيعة بين بني قريظة وبين جيش قريش وحلفائها، والأسباب التي تأخذ بها الجماعة تتناسب وما تريد الوصول إليه أو ما تريد حماية الجماعة منه، وهذا يختلف باختلاف الظروف والأحوال، وليكن معلومًا لدى الدعاة أن ما يتعلق بالجماعة وحمايتها وما يقرِّبها من أهدافها وبالتالي تعيين الأسباب المؤدية إلى ذلك، كل هذا متروك تقديره إلى أمير الجماعة أو قيادتها، ولا يجوز لأفرادها أن ينصبوا أنفسهم أوصياء على الجماعة فيعقبون على ما يقرره أميرها من اتخاذ أسباب معينة لتحقيق أغراض معينة».
[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٤].

٩ ـ حرب الحيل والإبداعات:

يقول أ/ ياقوت: « لقد ظهرت أهمية الحيل الحربية في هذه الغزوة، وتبيَّن رجحان فكرة سلمان ﷺ، وظهر لنا كيف أن عقل رجل واحد قد يُنجِّي أُمة من الهلاك كما في مثال حيلة الخندق التي كانت ثمرة تفكير رجل من المسلمين.

فكم من عقل سعدت به البشرية دهورًا، وكم من عقل تعست به الأرض قرونًا!

ولقد ظهر للمتبصر كيف أن تعب ساعة قد يريحَ دهرًا، وكسل لحظة قد يُتعبَ زمنًا، فهؤلاء الصحاب تعبوا أشد التعب في حفر الخندق فكان في ذلك مفازتهم، ولو تأخروا عن هذا العمل الشاق الهام لكان في ذلك هلاكهم.

فلا تكسل أبدًا، وتحيل كل حيلة ـ شرعية ـ في نصرة الإسلام». [السيرة النبوية لياقوت ٤٢٩].

١٠ ـ طاعة الدعاة لأمير جماعتهم:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا فيما سبق أن المؤمنين في حفر الخندق ما كان أحدهم يخرج وينصرف لقضاء حاجته إلا بعد أن يستأذن الرسول ﷺ ويأذن له، فإن لم يأذن له بقي ولم ينصرف، فمدحهم الله على ذلك، وجعل استئذانهم من علامة صدقهم في إيمانهم بالله ورسوله، وأن المنافقين كانوا يخرجون متخفين من غير استئذان الرسول ﷺ فذمهم الله تعالى على صنيعهم هذا وتوعدهم عليه.

وعلى هذا فينبغي للدعاة أن يلتزموا بهذا الأدب الإسلامي الرفيع، فإذا دعاهم أمير جماعتهم لأمر مهم يقتضي اجتماعهم ويتعلق بالدعوة وأعمالها فعليهم أن يستجيبوا لهذه الدعوة، ويحضروا حالًا ولا يخرجوا من هذا الاجتماع إلا بعد انفضاضه، وإن طرأت لأحدهم حاجة تقتضي خروجه من الاجتماع فلا يخرج حتى يستأذن الأمير للخروج، فإن أذن خرج وقضى حاجته وعاد، وإن لم يأذن بقي ولم يخرج.

ونستأنس لقولنا هذا ما ذكره الزمخشري في تفسيره وهو يفسر آية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

فقد قال الزمخشري وهو يفسرها: «وقالوا ـ أي العلماء ـ كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم: يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يتفرقوا عنهم، والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام، إن شاء أذن وإن شاء أبى على حسب ما اقتضاه رأيه».

وأمير جماعة الدعاة يعتبر من مقدميهم في الدين والعلم، فينبغي أن يكون له حق الطاعة على أتباعه الدعاة، وأن لا يخرجوا من الاجتماع الذي دعا إليه إلا بعد انفضاضه، أما في أثنائه فلابد من الاستئذان وحصول الإذن للخروج كما قلنا». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٦].

ويقول أ/ ياقوت: « وفي هذا دلالة على أهمية الاستئذان إذا ما أراد الجندي الانصراف عن العمل الجماعي لضرورة أو لحاجة.. فلا يجوز له ـ شرعًا ولا خُلقًا ولا عُرفًا ـ أن يتحول عن العمل الجماعي إلى العمل الفردي ـ أي من المصلحة العامة إلى المصلحة الخاصة ـ إلا بموافقة صريحة من القائد.

وفي ذلك المشهد درسٌ لهؤلاء الهزليين والكُسالى الذين يتخلفون عن المصلحة العامة لحساب مصلحتهم الشخصية، ويقدمون مستحب الفرد على واجب الأُمة، ويُبطؤون عن إخوانهم بغير عذر ولا إذن، ويُوَرّون بالعمل المتصنع الضعيف الشكلي، ويتسللون إلى بيوتهم ومصالحهم الشخصية تسلل الثعالب، هربًا من الأعمال، وتهربًا من الأعباء، وفرارًا من المصلحة العامة ـ تالله إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه، وفاسدٌ ما هم عليه، وهم أحوج إلى التوبة والأوبة من العبد الآبق!

إن القائم على ثغر من ثغور الإسلام لا ينام عن إخوانه، ولا يتهرب من مهامه، ولا يَكتنُّ في كِسر بيته وإخوانه يكابدون قيظ الحَرِ، وما أقبح التخلف والإهمال في أبناء الصحوة الإسلامية! أحَسِبَ هؤلاء أنهم كعامة الناس؟ فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود! فعليك ـ أخي ـ بغرس قيمة المشاركة وقيمة الاستئذان.

ولهؤلاء نقول: إن الله تعالى لم يذرأكم في هذه الأرض عَبَثًا، ولم يترككم فيها سُدًى، ولا يريد منكم من رزق فتَقْسمون، ولا قصور فتفخرون، ولا مراكب فتمرحون، وما بَينْ أحدكم وبين الجَنة والنار إلا الموتُ يأتيه اللحظة، أو بعد لحظة، وإنَّ طموحاتٍ تَنْقُصها اللحظةُ، ومشاريعًا دنيوية تَهْدِمها اللحظة، لجديرة بِقِصَر العمر، وهوان الدنيا... فيالها حَسْرَةً على كل ذي غَفلة!». [السيرة النبوية لياقوت ٤١٨، ٤٢٣].

١١ ـ تربية الأمة على الأدب الإسلامي الجهادي:

يقول أ/ ياقوت: « إذا أردتَ أن تهدم شَعبًا فسلط عليه الأدب الرقيع، والشعر الرخيص، وقصص الجنس، وروايات العهر، وقصائد الخمر، فالأدب الخليع لا يقل ضراوة في الهدم من الصواريخ!

وإذا أردنا أن نؤسس جيشًا، ونبني أُمةً ـ وقد قال الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ [الأنفال:٦٠] ـ فإن من تمام الإعدادِ تربيةَ الجنود على الأدب الإسلامي الجهادي، والشعر العربي الحماسي، وأناشيد الشجاعة، ومقالات الإباء، وقصص البطولة.. و﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:٨٤]!.

وفي هذه الغزوة، وقد بدأ الحصار، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتطايرت الظنون والشكوك، وساحت الأضاليل والأباطيل، نرى القائد العظيم والرئيس الحكيم يثبِّت جنده، ويربط على قلوبهم، ويشد على أيديهم، مستخدمًا في ذلك القصيدة الحماسية والطرفة الظريفة، والترنيمة اللطيفة.

ومثل هذا أيضًا، يدلل على قدرة القائد في الجمع بين الجد والترويح عن النفس، لاسيما في كربة الحرب وشدة الضنك..

وإنشاد الأناشيد والأشعار الجهادية في ثنايا المحن دائمًا تحقق عدة فوائد، أهمها :

(١) الترويح عن الجنود.

(٢) إلهاب مشاعر المسلمين بشكل إيجابي نحو العقيدة والوطن .

(٣) تقوية الصلة بين الجنود وقاداتهم، فضلًا عن الجنود وبعضهم.

فلفنون الأدب أهمية في معركتنا مع العدو، فكم من قصيدة أحيت الجهاد في قلوب موات، وكم من أنشودة شدا بها المجاهدون حتى بلغوا بها المعالي، فعليك بأشعار الشجاعة عند المتنبي، وديوان الحماسة لأبي تمام، وقصائد الزهد لأبي العتاهية وغيرها من الأدب القديم، إضافة إلى الكتابات الأدبية الجهادية ما مضى منها وما استجد». [السيرة النبوية لياقوت ٤٢١، ٤٢٣].